

أمينة بير

دزيري

أمينة بير

دزيري

رواية

في ذاكرتي... في ذاكرتي فوضى من جبال الملفات
الكثيرة وأبجر من القضايا المعقدة، كلُّها أوقدت النَّار فيها
واحترقت رمادا مندثرا بُعثت خلقا جديدا فتعود تحظر
ذات البأس الشَّديد تفرض... تفرض نفسها في عقلي
فرضا وبقوَّة فتأزني أزا، ودوي البارود يعكس صدهاء في
أذناي تراشقه صدى البنادق مع صور صادمة عديدة،
لا تخلوها أصوات الأرواح الشريرة ووجوه الأشخاص
اللثيمة ذات السمات الدنيئة والحكايات الأليمة والحقائق
الدفينة، في رحم الخنادق العميقة التي تحرسها قمم الجبال
الحادة الشامخة التي تروي القصص الحزينة بعيون باكية
دما سائلا كان مداد التاريخ كتب على صفحات الأرض
والتراب، ونُقش في ذاكرة تأبي... تأبي أن تندثر وتأبي
أن تعود إلى رفوف الأرشيف العتيقة في فصّ النسيان في
الذاكرة المنسيَّة للأحداث الغابرة القديمة.



رواية

أمنية بير

دزيري

رواية

اسم العمل: دُزِيرِي
رواية غير منشورة
نوع العمل: رواية
اسم المؤلف: أمينة بير
تصميم الغلاف: أمينة بير
مارس 2023
الهاتف: 0657463729

biramina860@gmail.com

كل الحقوق محفوظة لدى الديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة

إهداء

إلى بلدي الجزائر ورجالها الأحرار

إلى الشهداء الأبرار

إلى مرغنة ونساءها

إلى مذلات كل محنة

أيها العالم، اقرأ واسمع

تاريخ وطن مجيد

عقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فأشهدوا... فأشهدوا... فأشهدوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170)»

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، الْآيَةُ 169-170

تمهيد

أفتح النَّافذة فيقابلني منظر الجبال الشاهقات في مناطق الظل بالريف، يحوم عليها الهدوء التام، أُلْفُ حولي فتسافر بي الذاكرة إلى حكايات الجدات والمعاصرين للثورة التحريرية، والتي كان فيها الشعب هو البطل فيها أتخيل السرد المفصل لأحداث الزمان الواقعة على هذه المناطق وأغمض عينيّ أستمع إلى صوت البارود وصدى البنادق المنبعث من الجبال، وأستمع إلى المرويات، أفتح عينيّ فأرى طيفي لما كنت في طفولتي وباقي الأطفال في سنيّ وأترابي، نسأل أهلنا لمَ ليس لنا أجداد؟ فيجيبنا أهلونا أنّ أجدادنا ماتوا شهداء من أجل الحرية ونيل الاستقلال، فمشي مفتخرين معتزين بأجدادنا الشهداء، نركض في بسطة الجزائر ونُحلق بأجنحة الحرية ونسقط فتححضنا أرضها الزكية وتشمّ عبقنا، كأنما هي تريد أن توصل أحضاننا إلى الشهداء القابعين في باطنها، أمدُّ بصري إلى المدرسة البعيدة فيخيل إليّ منظر الجسر البشري الذي كُتّب بنينه نحن الأطفال سنوات التسعينات، نضع أيدينا فوق بعض ونشدُّ بعضنا وتتشابك أصابعنا ونبني جسرا بأجسادنا الصغيرة نُجندها أرواحنا الشُّجاعة، فنعبّر فوق المقابر المنسية نُسلم على أهلها وترحم على الشهداء الأبرار، ونعبّر فوق أنهار الدماء وعلى جثث الضحايا لنصل إلى مدرستنا التي ترفرف عليها رايتنا علم الجزائر الحبيبة عاليا دون مرافقة الأولياء، مقاومة منّا للإرهاب ولكل الأعداء، لتتعلم ولنبني حصونا هدمها الاستعمار الغاشم ودمرها، ولنصنع جزائر قويّة بأبنائها ونشارك في سرد تاريخها.

رغبت في نقل القصص والروايات وأحداث البلاد بين الأقرح والأفراح التي كنت أستمع إليها من أفواه الأجداد والجدّات الساردين لحكايات الثورة وأقدار الحياة، وكذلك الاحتفالات بالانتصارات، و رغبت في حفظ ما عشته وما عاصرته من أحداث من مآسي ومسرّات صارت في مسارح هذه البلاد، وعمدت أن أنفخ بروحي في رحم الحقيقة أجنّة الخيال فإن موعد المخاض فتولّد كتاب روايّي أسميته دزيري.

أمنية بير

بجاية 15 مارس 2023م

الجزائر العاصمة، جوان 1982م

- على المسافرين المتوجهين إلى الجزائر التقدم إلى الطائرة

هذه الكلمات التي تترد على مطار شال ديقول فجر السادس عشر من جوان 1982م التي تدعو المسافرين المتوجهين إلى الجزائر للتقدم إلى الطائرة، تثير ذبذبات القلق في جسد السيد (ماسون رنجير فرونسوا) جعلت يداه تنزلقان من شدة التوتر كلما حاول الإمساك بحقييته البنية المستطيلة، بشقّ الأنف من فلتحت أنامله من لمس يد الحقيبة بعد كثرة الرجفة المشابهة لارتجاج نباتات الحشيش من وقع الرياح التي تهزها، وسرعتها الموالية لدقات قلبه التي تتسابق في ضخ الدم الثائر من قلبه إلى سائر جسمه. الناظر إلى وجهه المصفر يكشف على الخوف الذي تملكه.

تلبسه التردد تلبسا، هو في صراع بين الثواني التي تُحْتَضِرُ أمامه لِتُشِيعَ إلى مدفن الوقت الماضي، في ما إن سيتقدم إلى طابور الركوب أم يرجع بصره إلى باب الخروج من المطار منقلبا إلى أهله تاركا شكوكه ويحثه عن أجوبة مقنعة لتخض التساؤلات التي تنهش فصوص التفكير اللامتاهي في عقله،

وضاربا تساؤلاته داخل الصندوق الأسود في رأسه. في وسط المسافرين يسير فتيان في أول شبابهما يتجادلان مرًا أمام السيد ماسون رنجير صبت في أذنه جملة من أحد الشابين يقول لآخر محاولا إقناعه:

- لا تخف من هذه الرحلة ربما هذه الرحلة التي تخاف أن تخوضها هي أعظم رحلة في حياتك.

كانت هذه العبارة مواساة لماسون رنجير فراح يقول لنفسه إنها بشارة من القدر ورسالة من السماء أنّ هذه الرحلة مباركة من الرب، رسم على صدره بيده علامة الصليب وتوجه لركوب الطائرة، منذ إقلاع الطائرة والسيد ماسون رنجير ساند رأسه على نافذة الطائرة وبصره شاخص نحو سواد الليل ولازال التوتير ينهش كيانه، لولا فلقُ الصبّاح الذي أعلن عن بداية نهار جديد للبت بصر السيد ماسون رنجير شاخصا إلى الظلام تأمًا في أفكار عقله التي تفور، بعد مدة قصيرة من الزمن قاطع تفكيره صورة لمصاييح وإنارة تملأ من الأرض حينها تهّد السيد ماسون رنجير تنهيدة طويلة وأخذ يعدل في جلسته ويمسح على وجهه بيديه ويستنشق الهواء شهيقا وزفيرا وأسند رأسه على المقعد الذي أمامه ولم يرفعه إلا على التنبيه الصادر من الطائرة الذي ينوه إلى أنّ الطائرة على استعداد للهبوط إلى مطار هواري بومدين بالجزائر العاصمة. وقف السيد ماسون رنجير ينتظر حقيقته بعد النزول إلى مطار هواري بومدين كان أمامه شيخ كبير طلب من العامل أن يساعده على حمل حقائبه الكثيرة فلبيّ هذا الأخير طلبه فدعا الشيخ لوالديه بالرحمة قائلاً:

- الله يرحم والديك

فرد عليه العامل:

- والدينا ووالديك الله يرحم الشهداء

كان ماسون رنجير يتأمل الشيخ والعامل وهو يستغرب ذكر العامل الشهداء بعد انقضاء مدة من الزمن على استقلال الجزائر، أخذ ماسون رنجير حقيقته توجه خارج المطار وضع حقيقته على الأرض وطفق يملأ صدره بالهواء ويطلقه من فمه بهدوء شديد وهو مغمض العينين مطلقاً كل شعور سلبي تاركا الصفاء يخترق كيانه وجسده وعقله مع الأكسجين النقي أعاد الكرة مرارا وتكرار حتى أحسّ بلطف الشمس تلمس وجهه وتضع سهامها الدافئة عليه فتح عينيه استوقف سيارة أجرة فتح الباب الخلفي للسيارة فطلب منه السائق أن يركب في الأمام، شرع السائق يستجوب السيد ماسون رنجير كأنه المحقق يستقصي عن أصله وفصله وغايته من زيارته للجزائر، تدمر ماسون رنجير من السائق لثرثرته اللامتناهية فاكتفى بقوله أنه سائح يحمل الجنسية الفرنسية، وماعدا ذلك لم يكلف ماسون رنجير عناء الإجابة على أسئلته الكثيرة فقد كان منشغلا بتتبع الأحياء بعينه وتتبع كل ما مرَّ عليه، توقف السائق ليصطحب زبائن آخرين ركبوا في المقاعد الخلفية وخاض معهم في سجال كاد أن يكون عنيفا بسبب كرة القدم كان السائق يأمل بأن تفوز الجزائر اليوم والرجلين الجالسين في الخلف يؤكدان له أن هذا ممكن لكن صعب، يعاود السائق كلامه في غضب وحدة وثقة أن الجزائر ستفوز، ضرب على مقود السيارة ثلاث ضربات عنيفة كادت تقطع المقود صارخا:

- سأراهن بمكتسباتي لهذا الشهر إن الجزائر ستفوز في مباراة اليوم

أخيرا نزل الرجلين وحلّ الهدوء في السيارة، وبهدوء السائق أعاد السؤال على ماسون رنجير:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

نظر ماسون إليه نظرة حادة ثم التفت إلى النافذة مستفسرا من السائق كم بقي من الوقت للوصول إلى (حيدرة)، حاول السائق استفزاز ماسون من جديد فراوغه بأسلوب متهم وهو في منطقة الانتصار:

- يبدو أن حسرة خروج فرنسا من الجزائر لم يبتلعها الفرنسيون بعد لا عجب من رؤيتهم يرتادونها من جديد... تمالك ماسون رنجير نفسه ولم يبد أي انعكاس ولا ردة قول ولا فعل لقول السائق وأعاد سؤاله كم بقي من الوقت ليصل إلى حيدرة رد عليه السائق:

- أقل من خمس دقائق

نزل ماسون إلى وجهته وقف أمام فيلا قديمة من عهد الاستعمار الفرنسي يتأمل فيها، اقترب إلى الباب طأطأ رأسه أرضا ثم رفعه استجمع قواه ومدّ يده يطرُق الباب، انتظر هنيهات لم يفتح أحد الباب، أخرج من جيبه الواقع داخل معطفه الورقة المكتوب فيها العنوان ليتأكد منه، أخذ يطرُق الباب مرة أخرى لبث هناك آملا أن يفتح أحدهم الباب لما يئس راح يحدث نفسه:

- لا بد أن العنوان مشتبه فيه، أم أهلهم رحلوا؟

طرق الباب مرة أخرى لكن بدون جدوى حمل حقيقته واستدار وخطّ خطوتين ثم التفت برأسه إلى الباب منصبا نظره إلى النباتات الكثيفة المحاطة بأعلى الباب، هزّ رأسه بعلامة النفي، ثم استدار كي ينصرف عن المكان وما إن تحرك من مكانه بخطوات قليلة سمع وقع فتح الباب يسأل من الطارق ويلومه:

- هناك جرس لم الطرق القوي على الباب؟

كان ذلك كهلا قصيرا وأصلع الرأس، ينادي بصوت عال ويلوح بيديه:

- يا سي محمد واش بيك تدق فلباب بالقوة، كسرو خير

بين فرحة ودهشة ورهبة دنى ماسون رنجير إلى الفيلا عرّف بنفسه وسأل الرجل الذي فتح الباب:

- أريد مقابلة السيد (إريك موتانا)

اعتذر منه صاحب البيت وقال له أنه اشترى الفيلا منذ أكثر من عشرة أعوام، فسأله ماسون هل يعرف مكان إريك؟ فرفع حاجبه الأيسر مستفسرا منه سبب رغبته في رؤية إريك موتانا فقال له ماسون رنجير أنه كان صديق والده فقال الكهل:

- آخر يوم التقيت بإريك موتانا كان يوم استلامي للفيلا والإنهاء من معاملات البيع والشراء بيننا...

وجهه بصره إلى السماء ثم أسقطه على وجه ماسون فأردف قائلا:

- مميمم أتذكر أن إيرك موتانا كان بصحبة ابنه وكان يؤكد لهما أن مدينة
وهراڤ ستعجبهما... أعتقد أنه رحل إلى وهران

طلب ماسون رنجير من الكهل عنوان إيرك موتانا فتأسف الكهل منه
لأنه لا يجوز على عنوانه ولا تربطه أي صلة بإيرك موتانا غير معاملة البيع
والشراء

شكر ماسون الكهل وهم بالرحيل، استوقفه الكهل:

- إي يا كي سماك الله إي يا راجل بيدوا أنك لست من البلد، بيدوا أنك
رومي

هز ماسون رأسه وأجاب:

- فرنسي

راح ماسون رنجير يمشي بخطاه البطيئة يتساءل في نفسه:

- آه، أترى مجيئي إلى هنا هو السبيل لنفض الضباب الذي غشي بتفكيري
أم هو ضرب من الجنون؟

بين ظل الأشجار وصوت مداعبة الرياح الخفيفة لأوراقها وزقزقة العصافير
دهس ماسون على الأوراق المتساقطة يحاول أن يهدئ من ثوران الأفكار
المتناقضة في عقله، رفع رأسه والتفت إلى صوت نشيد قسما:

قسما بالنازلات الماحقات والدماء الزايات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات في الجبال الشاخات الشاهقات
نحن ثرنا حقاة أو ممت وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

بأصوات صغار عالية التفت إلى مصدر الأصوات لمح من باب واسع مفتوح
لمدرسة ابتدائية صفوفا من التلاميذ أيديهم على قلوبهم يُنشدون النشيد
الوطني بحرارة وحب الوطن متدفق من عيونهم المتألثة والعلم الوطني يعلوا
المدرسة. استوقف سيارة أجرة أقلته إلى الفندق، أخذ قسطا من الراحة
الجسدية، نهض من فراشه على صيحات قوية (وان، تو، ثري، فيفا
لالجيري. وان، تو، ثري، فيفا لالجيري) ساقته الصيحات إلى باب الشباك
فتحه وأخذ يتأمل من الشرفة المارة من الشارع المملوء عن آخره بالمشجعين
الجزائريين الذين يحملون أعلام وطنهم يرفرفونها في السماء، ومنهم من لفّ
رأسه بها ومنهم من لفّ بها كل جسده وآخرون جعلوها على ظهورهم
وعقدوها في مقدّمة رقابهم، اندهش ماسون من أجواء الفرحة والبهجة التي
صنعها الجزائريون، واصلوا توافدهم حتى اكتظت الشوارع أُعجب برهط من
المشجعين يتوسطون الشارع يبدو أنهم كانوا مختلفين في طريقة تشجيعهم
اختاروا الزي التقليدي الجبادولي وغيره من الأزياء المختلفة حاميلان الطبل
ويهتفون بأغنيات تجذ الجزائري وفريقها، وحوهم شباب يرددون خلفهم
الأغاني ويدورون حول أنفسهم من شدة الحماسة حاملين الدربوكة بمعية
القار قابو، كان فيهم شاب كثير الحركة يحمل الأعلام ويقوم بتوزيعها على
الناس، طلب منه أحد المشجعين بأن يعطي الأعلام لنزلاء الفندق الواقفين
على الشرفات وهم فرحين ومستمتعين بالأجواء التي صنعتها الكرة الساحرة
في قلوب الجزائريين فراح الشاب يرمي إليهم الأعلام ويطلب منهم أن يزيّنوا
بها شرفات الفندق كما فعلت البيوت والعمارات، كان الدور على ماسون
رنجير ألقى الشاب بعلم كبير التقطه بكلتا يديه، اتباه شعور غريب وتدفق
قلبه بنبضات متعالية وراحت الرجفة السريعة ترقص بكلتا يديه، راح

يتحسس النجمة والهلالة بين يديه الراجحتين والمنزلتين على العلم، عادت به ذاكرته إلى زمن ولى لازال يطارده الطفل الذي لم يكبر في داخله وأبى الزمان أن يحرك عقارب الوقت المتوقفة فيأتي هذا الطفل بين الفينة والأخرى راكدا خلف ماسون رنجير بدقتر من الدفاتر الملغمة لتجعله في حيرة من أمره، فالعلم الجزائري أيقض مشهدا من طفولته في ستينات القرن الماضي بعدما عاد والده السيد ميشل فرونسوا وعمه ليونير فرونسوا من الجزائر إلى فرنسا في نهاية الحرب جارين ذيل الخسارة والخروج المذل من الجزائر، كان والده وعمه إطارين مهمين في الجيش الفرنسي. كان ماسون رنجير يُلوح بمروحية لما كانا يفرغان حقائبهما وكزه والده فسقط أرضا، أخرج عمه علما جزائريا مخيطا باليد لوح به وأرشفه في الهواء وصاح في غضب شديد جدا وفي غبطة تكاد تقتلع بالعروق من وجهه ورقبته:

- اللعنة، كيف تمّ دسّ هذا العلم في حقائبنا...؟ فلاقة

1... تبا

هو العلم بين يدي ماسون وكان آنذاك طفل، فأخذ يبسط العلم ويقول:

- نجمة وهلال وبين الأحمران الأبيض والأخضر

لطمه والده على وجهه الصغير وركله برجله على بطنه وهو يردد:

- الأحمران إلى الجحيم... أحمران... دزيري... اللعنة

1 - مصطلح أطلقه الفرنسيون على المجاهدين وحاملي السلاح في الجزائر وتونس والمغرب

سقط ماسون أرضا من شدة الركل تلتطخ الأحرمان وما يحيطه من بياض
بدمه المنهمر من نزيف الرعاف، لم يستطع ماسون الاحتماء من والده الحاقدا
على هذا العلم فما كان عليه إلا طلب الغفران والاعتذار:

- آسف جدا أبي ما كان عليّ أن أتكلم...

زاد انتفاض ميشل فونسوا على ولده ماسون لما قدّم اعتذاره فراح يركله
ثم ألقى بنفسه أرضا ولهب النار تأنجج من وجهه الغاضب أوسع ضربا وقال
بصياح هز أركان البيت وجعل الجيران ينصتون:

- الأحرمان هما دم... دم...

سكت ميشل قليلا ولكن الحقد والغضب لم يسكّتا في قلبه وهو لازال يلطم
ماسون ناوب كلامه وهو مستمتع برؤية الدم الذي يسيل على العلم الجزائري
من وجهه وجسد ماسون:

- الأحرمان هما دم ال... دم الج... دم الجزائريين ال... ال...

بالكاد نطقت بنات شفته بكلمة الجزائريين للضعينة الشديدة التي يكنّها لهذا
البلد بعد إعلان استقلاله لا يجذب نطق كلمة الجزائر ولا ذكر هذا البلد، فلم
يهضم فكرة انفصال الجزائر عن فرنسا ولم يجد الكلمة الأبشع لوصف
الجزائريين في نظره فراح يردد:

- دم الجزائريين ال... ال...

تدخل ليونير وأوقفه وأبعده عن ماسون رنجير وهذا من روعه ونصحه:

- ما ذنب الولد؟ ضرب الولد لن يُغَيَّر من الأمر شيئاً ولن يحول القطب المتجمد صحراءً ولن يقتص من غضبك.

كان جسد ميشل في ذروة اهتزازة فقد السيطرة على تحركاته فراح يميل به التوتر والتأرجح يمينا وشمالا كأرضة مستوية حلّ عليها غضب الزلزال الشديد، نهض ماسون بصعوبة كبيرة يخاطب عمه:

- لم يكن من الواجب أن أتدخل ولا أن أتكلّم أعتذر عمي

نظر إليه ميشل بحدة وحزم ثم اقترب إليه وأمسكه بيد واحدة في خديه وأطبق عليهما وضغط على جانبي خديه بكل ما أوتي من بأس وجبروت وقوة، حتى كاد يكسر رباعيته ويخلطها في كفّيه داخل فمه ثم قال له:

- الأحمران هما دم الدزيري، الأحمران هما دم علي أيها الأسمر

في هدوء لا يبشر بالخير يتبعه تحرك بؤبؤ عين ميشل التي تحوم على وجه ماسون كحوم الغريبان على الفريسة، قهقهة ضحكا وانتشر رذاذ لعبه في وجه ماسون لكن هذا الأخير لم يستطع مسح الرذاذ ولا الاستفسار عن سبب انقلاب غضبه الشديد إلى هستيريا ضحك، فكان على ماسون أن يواكبه ويصطنع ضحكة مزيفة يسايره بها، كلفه الأمر توليدها من مخاض الآلام وعليه أن يبرز أنيابه وأسنانه البيضاء الصغيرة بين حمرة الدماء وهو ناظر إليه ولم ترمش عيناه، التقت عيناهما وتناطحت بيابهما بالنظرات الناطقة بلغتها، في ساحة عيون ماسون البنية راحت ذاكرة ميشل تجول بسرعة فائقة بين الوجوه الكثيرة والنظرات النديّة القوية لرجال التقى بهم في المعارك وساحات المعارك أيام الزحف، هي نظرات مدببة ومعبأة بعدم الخشية

والتحدي مشابهة للنظرات الآتية من ماسون رنجير تبعثها لوحظ ماسون نحو والده ميشل، انطفئ الضحك عن ميشل وعبست عضلات وجهه فأطلق ميشل يده من وجه ماسون ثم نكس رأسه أرضا متفاديا التوغل في عيناه ليتفادى استحضار وجهه أخرى تلك الوجوه التي صنعت أحداثا أبي الزمان أن يحمها وخفق الماء والبرد بغسل أوزارها ولا الثلج فعل، لوح نحو ماسون بيده متوعدا ورأسه لازال منكسا:

- الأحمران هما دم علي ورفاقه الفلاقة الذين قامو بقتلي عيني، أعدك أن دم علي سينهار مجددا أيها الأسمر

توعد ميشال ماسون من جديد وهو يقهقه:

- أعدك أن دم علي سيستمر بالانهار أيها الوغد الأسمر

سارعت أخت ماسون رنجير الصغرى ذات الثلاث أعوام تمسح بطرف ثوبها الدم عنه، في حين التزم بقية إخوته الصمت واكتفوا بالوقوف كأنهم خُشِبُ مسندة على الحائط مذعورين من بطش والدهم ومن هول الحادث غير أن أخاهم الأكبر باتريك لم تبدووا عيه سمات الخوف من والده، وكذلك زوجة ميشل اختارت التفرج والجلوس على أريكة واضعة رجلها الأيمن على رجلها الأيسر مرتدية فستانا أزرقا غامقا لم تتعب نفسها بتهدئة زوجها أو أن تكون الفيصل بين ميشل وابنها

طلب ليونير من ميشل أن يخرج ليتفصح في شوارع باريس:

- اذهب إلى مبنى الشانزليزيه رمز الانتصار وتأمل فيه مليا مهما صار ستجد العظمة في فرنسا فهي ربة الثورات والحضارات.

قال ميشل:

- كان يجب أن أضرب أحدهم، أحسست بنار شديدة لا يستحيل إخمادها أخرج ميشل غيوانه وأوقده ليدخن همّ خارج البيت، دنى ليونير نحو ماسون أخذ العلم الجزائري ولفه حول أنف ماسون المصاب بالرعاف، وقال له وهو يهزّ رأسه ببطء وحسرة شديدين:

- لا تأخذ أخي ميشل فقد أثرت عليه الحرب فأصبح شديد القسوة

أحس ماسون أنه كان السبب في ذنب لم يقترفه، ذنب أنه وجد في حقيقته علم الجزائر.

في حرم الذكريات المتتالية في ذاكرة ماسون استوقف المشجعون صورة الماضي

- ياو علقها في البالكونة واهبط

علق ماسون العلم ودخل إلى غرفته بحث في جيوبه عن سيجارة، لم تبقى لديه ولا واحدة ففتح الحقيبة يقلب فيها أملا في العثور على سيجارة ولو واحدة لكنه نسي أنه قد دخن كل العلب التي بجوزته ونفذت دون وعي منه يوم سفره، حمل نفسه على عجلة إلى خارج الفندق ليقطني السجائر استقبله المشجعون بالتصفيقات وأدخلوه إلى وسط الحشد وألبسوه العلم

الجزائري الكبير كما يلبس البرنوس التقليدي، انخرط ماسون بسرعة مع المشجعين واندمج مع الاحتفالات التي تسبق المباراة فراح معهم يجولون الطرقات ويطوفون حول الأحياء والشوارع هاتفين عبارات التمجيد والتشجيع، فجأة علت أصوات ونداءات أسكتت المشجعين كأنما قُطعت أصواتهم ووقفوا خاشعين للنداءات رافعين سبابتهم نحو السماء يرددون الأصوات وبقي ماسون يهتف حتى طلب من حوله السكوت:

- فلتهدأ قليلا ريثما يختم الإمام الآذان

فأجابه ماسون متعجبا:

- آذان! أي آذان؟

ضرب على كتفه شاب كان يلبس القميص الوطني وعلى رأسه قبعة وقال له:

- هيا فلنصل الظهر

التفت ماسون إلى الشاب فقال له:

- أين؟

تبسم الشاب مستغربا من سؤال ماسون فقال:

- نصلي في المسجد، أعتقد أننا سنصلي هنا على قارعة الطريق؟

اتبع ماسون صوت الآذان وخطى نحو المسجد وقف على عتبة الباب وألقى ببصره إلى المثذنة وإلى التفاصيل المحيطة بالمسجد، تردد ماسون أيدخل إلى المسجد أم لا حدث نفسه:

- كيف نسيت أن هذا الوطن مسلم؟ إنه لمن العجيب من هذا الشعب أن يتزاحم إلى المحراب هكذا!

لمس الباب الخشبي وانحنت أنامله عبر النقوش وعاد يحدث نفسه:

- ادخل يا ماسون فالزخرفة في خارج المسجد مرآة إلى ثقافة وحضارة عظيمة خسر من لم يتعرف على هذا الفن

دخل ماسون المسجد يتفقد كل صغيرة وكبيرة فيه أعجب أيما إعجاب بالزخرفة العثمانية وانهر بالسور القرآنية المكتوبة بالخط الكوفي وغيره من الخطوط وتحسّر على نفسه:

- فليسأحك الرب يا والدي، يا ليتك لم تُضح بي وتركتني أتم دراستي الفنية، كنت الأمل في المعهد بل كنت الأمل في كل باريس لأنني موهوب... خلقت للفن وأنت لطحنتي بالتراب

اختلس ماسون لحظات روحانية يتلوا كلام الله إمام المسجد، وتسبيحات تعلووا بخشوع من صفوف المصلين الوافدين إلى المسجد المملوء عن آخره وكأنهم بنيان مرصوص اخترقت نفس ماسون وجعلت روحه تطير إلى علياء السماء بأجنحة الكلمات المقدسة التي يلفظها الإمام، شعر ماسون بجرمة المكان وقديسيته فاتباه شعور غريب لم يزره هذا الشعور قط، كان

أول مرة تهتز روحه وتسبح بين بحار المصلين، اقشعر بدنه في التسليمة الأخيرة، ثم تبسّم لما سمع دعوات المصلين ترفع إلى السماء بأيدي ملتصقة طالبة الله أن يفوز المنتخب الوطني في المباراة

- اللهم يا رب إنّا نسألك باسمك الأعظم الذي إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت أن توفق منتخبنا وتمن عليه بالفوز اليوم

أدرك ماسون الحب الكبير الذي يكنه الجزائريون لكرة القدم وحببه الجم للمنتخب الوطني الذي لا يقدر الوصف على محابته ولا الكلمات تستطيع ذلك ولو قامت بجمع شمل المعاجم الدلالية لوصف الحب ومدلوله، فراح آخرون يستغيثون الله بدم الشهداء واقتراب شهر رمضان المبارك:

- اللهم بحق الدماء السائلة على هذه البلاد، وبحق شهر شعبان الذي نحن فيه الآن وبحق شهر رمضان المبارك الذي قُرب انصر وطننا ومنتخبنا اليوم...

كان هناك شيخ كبير سافرت به السنون إلى ما يزيد عن مائة عام، ناهزت لحيته عمامته في اللون الأبيض، كان يؤدي الصلاة على كرسي لكبره وعجزه عن الركوع والسجود أخذ يستغفر الله ويدعوه أن يقوي صحته ويبرئه من داء المفاصل ويخفف عنه وطئته ليتسنى له الركوع والسجود وتأدية العبادات، كان رجل يصلي أمامه في الصفّ خاطبه:

- يا بركة الشيوخ ادع لنا يصلح أمرنا وادع لمنتخبنا اليوم

توهج وجه الشيخ الكبير نورا من تبسّمه داعيا:

- الله يرحم الشهداء، ويصلحكم يا أبناءى يا عماد الجزائر

ثم قال آخر:

- اليوم هي الثورة الثورة

فضرب جمع من المراهقين والشباب أيديهم ورددوا:

- اليوم هي الثورة الثورة يا شيخ...

فأعلى صوته:

- تحيا الجزائر تحيا الجزائر

كمدت عيون الشيخ متأثرا بكلام الشباب عن الثورة، واستذكر في نفسه مرارة الغاشم وفقده لأهله وأصدقائه والخسائر البشرية والمادية التي ألت بالجزائر إبان الثورة بسبب الاستعمار الفرنسي فقال:

- الله يرحم الشهداء يا أبناءى، الله يرحم الشهداء

جرت الذكريات الأليمة للحرب والثورة على ذاكرة الشيخ الكبير مجرى الدم وتسابقت الأحداث واكتظت إلى ما لا يسعه طاقة وتحملا، انتفضت عيناه بالدمع الذي لم يستطع الشيخ إخفائه داخل قفص النسيان فراح الشباب يمسحون دمه ويواسونه فراح الشيخ يدعو:

- اللهم إنا نستغيثك بتراب هذا الوطن الطيب الذي ارتوى بدماء الشهداء الذين لقوا نحبهم، رجال صدقوك وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، رجال صدقوا الثورة وسقطوا من أجل تحريرها فحرروها بإذنك فاللهم وأتم نعمتك على

شبابنا وأولادنا وأحفادنا واجعلهم قرة أعين لنا واحم الوطن، حررها اللهم اليوم مرة أخرى بفوز منتخبنا الوطني وأفرح أبناءنا، الله يرحم الشهداء

كان الشباب يَمون بكلمة أمين بعد كل دعوة، أمسكا حفيدا الشيخ بيديه يعينه على المشي والعودة للمنزل، نظر الشيخ إلى الشباب وقال هذان حفيداي أرى فيهما أبنائي اللذان قتلا أمامي في حرب التحرير لما كنت جنديا ومجاهدا في صفوف جبهة التحرير، نحن نموت من أجلكم ونعيش من أجلكم، نسلم الجزائر لكم فحفظوها وصونها هي أمانة على رقبتم اليوم

فرد عليهم الشباب:

- الله يرحم الشهداء، الله يرحم الشهداء

ثم قال الشيخ لهم:

- أنا الآن في آخر العمر سأبلغ سلاحي للسابقين حينما ألتحق بالرفيق الأعلى حيث أرواح الشهداء تسكن وأطمئنتهم على أبنائهم وأحفادهم

فقالوا له الشباب:

- مازال البركة يا الشيخ مازال البركة

هنا أدرك ماسون تعلق الجزائريين بالثورة وشهداءها، وتمت لديه فكرة أن جيل اليوم امتداد لجيل الماضي الذي جاهد وحرر واستشهد، دخل أحد الشباب حاملا فوق رأسه قصعة كبيرة مملوءة بالأكل حطّها الرجل على السجاد في الأرض ونادى:

- رشة بالججاج فال الريح اليوم أيا تاكلوا بصحتكم
ثم تبعه رجل آخر يحمل قصعة فيها أكلة تقليدية ووضعها أمام قصعة الرشة
وأخذ يأكل ونادى:

- وهاي الشخشوخة بصحتكم، سأندوق أولاً المومن يبدأ بروحوا

أمسك شاب ماسون رنجير من يده يدعوهم لمشاركتهم الغذاء، أفلت يده
بسرعة وشعر بالخرج وحرص على إخفاء يده في جيبه وإخفاء ساعده
بقميصه، ألح عليه الشباب مشاركته الغذاء أتى على جانبه الإمام وهمس
في أذنه:

- لا خرج في ذلك، فسيدينا النبي محمد صلى الله عليه وسلم علّنا الإخاء
والإحسان

مدّ يده على كتفه وطمئننه وأردف قائلاً:

- أنت ضيف من أهل الكّاب لا خوف عليك بيننا فنحن أهل الضيافة
والكرم والإحسان، اللهم صلي على حبيبنا المصطفى

استسمح الإمام بقول كلمة:

- أيها الملاء إنا لنا ضيفا عابر سبيل فهل له مكانا بينكم

تدنّوا جانبنا خالقين له مكانا بينهم وردّ الجميع بصوت واحد:

- مرحبا مرحبا، الدار ليكم والعتبة لنا

لاحظ صاحب القصة غياب سعيد كهل متقاعد ينفق جُلَّ أيامه بين المقهى والحديقة الموجودين أمام المسجد:

- أين سي سعيد لا أراه بينما منذ أسبوع وعدته بقصة رشة وضربت معه الموعد اليوم في المسجد، كل يوم يسألني أين الرشة

فتكلم أحدهم فقال:

- هذا السي سعيد ينطبق عليه المثل القائل اصبرَّ اصبرَّ كي طابَّ كُفْرُ

همَّ الجميع بالضحك، تقدّم ماسون ليتغذى بينهم أدخل ماسون يده في جيبه وحرص ألا يخرجها فراح يستعين بيد واحدة في الأكل فقال له الذي جلس بجانبه:

- ما لك تأكل بشمالك؟ قل بسم الله وكل بيمينك ومما يليك

لكن ماسون أصمَّ سمعه على قول السيد الذي بجانبه وحرص على إضمار يده اليمنى في جيبه خشية أن يظهر وشم الصليب في ساعده ومعصمه، أعجب ماسون بالأكلات الشعبية وبعد الفراغ من الصلاة والأكل انتشر الناس يبتغون في الأرض فهذا تاجر عاد لفتح دكانه وهذا عامل، وذاك سائح وآخر مرتجل وما، وأغلبهم أغلقوا محلاتهم واتجهوا لحضور المباراة.

اتجه ماسون رنجير برفقة المشجعين إلى ساحة البريد المركزي، معبئة نفوسهم بالأمل وروحهم بحب كرة القدم وقلوب الجزائريين معلقة بالعشق لمنتخبهم الوطني كما يتعلق الطفل الصغير بأمه، ولا ينفك أن يهدأ لهم بال حتى يروا علم بلادهم يرفرف عاليا فوزا، الكل كان يترقب المباراة على أحر من الجمر،

كانت أجهزة المذياع تترصد بأواجها عقب المقابلة، وأجهزة التلفاز كانت ملك المترفين آنذاك لم تنطفئ منذ بزوغ الفجر من ذلك اليوم، دخل ماسون إلى مقهى قريب من ساحة البريد المركزي كان مكتظا بالمتفرجين الكل كان صوب الشاشة التلفزيونية التي تبث الصورة بالأبيض والأسود، حلّ الصمت الرهيب وتحول التشجيع والصراخ الصاخب بين هنية إلى خشوع تام تخشوع أصحاب الحراب، حينما بدأ ترتيل النشيد الوطني للمنتخب الوطني، كان ماسون متأثرا جدا ويراقب مراقبة شديدة كل ما يحدث أمامه، لم يكن متأثرا بالمقابلة الكروية قدر تأثره بما رآه للتو، تعجب من حدث يتكرر له مرتين في اليوم ذاته في أول اليوم عصافير الابتدائية يغردون النشيد الوطني ويزار أشبالها متوعدين فاشهدوا فاشهدوا، ومرّة ثانية آباء العصافير والأشبال من أسود الجزائر رجالا وأجدادا وضعوا أيديهم على قلوبهم يرددون النشيد في رحاب المباراة

طفق قلب ماسون يدوي وتسبق النبضات في ذروة سرعتها كأنما هي في عدو بري شرس بين مفترس وفريسة، فراح يهدأ من روعه لعلّ الدم يبطئ دورانه في جسمه ويعود إلى حالته الطبيعية:

- عجا مني تنقبض روحي وتختنق أنفاسي كلّما رأيت جزائرياً ينادي بنشيد صغيرا كان أو كبيرا وأشعر بالإثم كلّما عاتبوا فرنسا وجرموها في نشيدهم؟

شرب ماسون جرعات ماء ولم يسمح ما سال على فكه، وتاه بفكره وشرّد بين التصفير والصراخ عند انتهاء النشيد الوطني وعاود سؤال نفسه من جديد:

- لم يَضيق صدري كأنما أصعد إلى السماء وتلطمني السحب ويقطع أنفاسي الضباب عندما يَصُبُّ هذا النّشيد في مسمعي؟

أخذ ماسون يدور حول نفسه شاخصا بصره حول أعضاء جسده الراقصة على أوتار التأثر بالنشيد الوطني وأبناء الجزائر وهو في غرابة من أمره:

- رباه ما الذي أصابني؟

لما اشتدّ عليه الارتجاف حمل يده وهي في عزّ اهتزازها كأنما بها جان رسم على صدره علامة الصليب وهو يرجوا:

- ربّاه لم يرتجف جسدي على أنغام لحنه هذا؟ رباه...

استقرّ ماسون على الأرض بصعوبة، وبطح رجليه، وانكس بظهره ورأسه على الحائط الخارجيّ غير آبه لما حوله، راح يتحسّس بيده اليمنى قلبه ويدلك صدره محاولا مسح الرّجفة عنه، يتنفس بهدوء وبطئ شديدين كتتنفس النّبات في محضر النّدى، لمحّه شباب تبدو عليهم الأناقة نفاطبوه:

- خويا راك مليح؟

لم ينطق ماسون رنجير بينات شفته فلوح رأسه يمينا وشمالا، فقال أحدهم لأصحابه:

- يبدو أن قلبه لا يتحمّل أهوال المباراة

تدخل عجوز كان يجلس رفقة صديقه أعطى بعضا من الماء للشباب وطلب منهم أن يرشّوه على ماسون علّه يذهب عنه الرّوع، فعل الشباب ذلك فتح

ماسون عينيه ومدّ شاب يده وساعده على النهوض ثم أجلسوه على الكرسي بجانب العجوز فقال له الشاب وهو يطمئنه:

- هي مباراة مهمّة، فلتطمئن ولا داع لكل هذا القلق فلها رجالها

فصاح الشاب يهتفون ببعض من أسماء اللاعبين:

- ماجر، بلومي، ربي معنا كرة مربوحة اليوم إن شاء الله

تأمل العجوز في ماسون ملياً ثم كَلّم صديقه الجالس أمامه المرتدي قشايّة وحذاء جلدي ولّف رأسه بعمامة صفراء مستعينا بفكاهته المعتادة:

- آه يا السيّ نخضر تذكّر أيام الصّفار... تلك الأيام التي تكون فيها وجوهنا لا تفرق لونا بين عمامات رؤوسنا

مدّد سيّ نخضر فاه المجرد من الأسنان والأنياب بتبسيمة تحوم حولها تجاعيد رقيقة ورقيقة فأردف قائلاً:

- كانت وجوهنا صفراء فاقع لونها من شدة الجهد والتعب والقتال المتواصل

واصل العجوز استذكار الخوالي من الأيام فيحزن حيناً ويضحك حيناً أخرى، رفع قطعة الحلوى من نوع المقروط يحمد الله عليها فراح يُدكّر صديقه:

- هاهاها تذكري يا سيّ نخضر قطعة المقروط التي وجدناها أمام أحد البيوت في قسنطينة كيف قسمناها بيننا نحن المجاهدين الخمسة

ضحك سيّ نخضر حتّى سقط رأسه على الطاولة وقال:

- أتذكر مجموعة القطط التي كانت تتحرك خلف ذلك البيت فهرعنا نجري للاحتماء ظناً منا أنه العدو الغاشم فلما ظهرت لنا القطط جلياً جمدنا واقفين كأعجاز نخل تتأمل بعضنا البعض ثم انصب علينا الضحك

- كما في طريقنا إلى تونس لطلب السلاح لتمويل الثورة، أتذكر كيف كنت ألعب دور عابر سبيل مجنون، أمثل أنني فاقد للعقل كما حللنا إلى بلدة أو إلى قرية أطلب الطعام لوجه الله، فأباغت أهل البلدة وأفرّ بالطعام إليكم ولا أمس ذرة من الطعام حتى أعود إليكم لتشاركه معاً.

أطبق سي لخضر على فمه بصمت ثم تبسم ألما من ذكرياته المشتركة بين أبناء شعبه، رفع رأسه وأصلح عمامته وأمسك بعكازه الخشبي وقال بصوت متحسر:

- إنها أيام مسغبة، صفراء وجوهنا من شدة الجوع والقلة والفاقة، كما تتغذى على التوت البري والثمار الغابية، ونملئ بطوننا الجائعة بمياه الوديان الجارية والبحيرات، وأحياناً أخرى نقض على المستعمرين ونستحل الغنائم
نظر سي لخضر إلى ماسون ثم طأطأ بياي عينيه وتبسم ألما وقال لصديقه:

- إنني أرى في وجه هذا الشاب المصفر وجسده التحيل أصدقائنا وزملاء البنادق... آه الله يرحمك يا القمري، الله يرحمك يا الفواز، الله يرحمك يا السايح وكل عائلتك... الله يرحم كل الشهداء

شدّ يده بقوة وقبض عليها، ونفذ الكمد من عينيه عبر تشققات التجاعيد الملتقة بعيونه متحدثاً والحسرة تنتقع من لحم فؤاده:

- آه دفناكم وغيركم ممن لا نعرفهم في قعر الرواسي الشاخات تركناكم
والتراب، فلتكن الأشجار غطاء لكم ولتكن الثلوج والمطر والبرد سقاء لكم.
آه يا ليتني كنت بينكم.

ناد شاب في العشرينات من عمره:

- دزيري

في خطفة كلمح البصر التفت ماسون رنجير إلى المنادي، تقدّم الشاب
بخطوات سريعة إلى الطاولة التي تجمع ماسون بالعجوزين، مدّ الشاب يده
من بعيد للمصافحة، هيأ ماسون رنجير يده ليصافح الشاب، فأعشى الشاب
بصره عن ماسون رنجير ووجه يده إلى سي نخضر وقال له:

- يا جدّي وليت دزيري عجباتك العاصمة، ولا عمي ماخلاكش تولي، ياو
توحشاتك الصحراء

تبسم سي نخضر ضاحكا من قول حفيده وقال له:

- يا وليدي شكون اللي مايجبش العاصمة.

أمسك الحفيد رأس جدّه وقبّله في جبهته ثم وضع يده على عمامته الصفراء
وقال:

- يا جدّي أراك محافظا على عمامتك وقشاييتك كالأرض التي تحافظ على
خضرتها، وكالبحر الذي يحافظ على مياهه، متى أراك باللباس العصريّ.

أمسك سي نخضر يدي حفيده وأردف قائلا:

- أنت في بلاد عظيمة لتقاليدها وفيه كوفاء النور للنهار، يا ولدي ستري العمامة بكل أشكالها التوتية والكبوش والجاري كلُّ منها ترمز على الطبقات الاجتماعية بين الأثرياء والأعيان والتجار، وإن جُلت الشرق والغرب والشمال والجنوب ستري ثراء شعوبنا باختلاف تقاليدنا في ثيابهم ومأكلاتهم وطرق احتفالاتهم وعيشتهم ولهجاتهم إنها الثراء يا بُنيّ

كان ذلك الشاب حفيد سي لخضر من ابنه الثاني المقيم بالصحراء وصل لتوه إلى الجزائر العاصمة لزيارة عمه المقيم في العاصمة وزيارة جدّه الذي ينفق أيامه في ذلك المقهى مع صديقه.

في حرم الأحاديث بين سي لخضر وحفيده وصديقه نُفخ بوق التسجيل للمنتخب الوطنيّ برجل ماجر الذي فتح باب الهدف الأوّل، فتعلت صرخات الفرحة بصوت الشعب الواحد فراح هذا ينطّ وهذا يعانق الآخر، وعلا التصفير الذي كاد يقطع الأحبال الصوتيّة ويمزق الآذان، ورفع شباب كراسي يدقونها على الأرض تعبيرا عن فرحتهم الكبيرة. في مشهد أسطوري كان كالمرهم الشافي الذي قلب حالة ماسون رنجير من ضنك وضيق وتوتر إلى حالة انفراج وساقه الفضول والصراخ إلى التسلّل داخل المقهى بين المشجعين يهتف هو الآخر بما يهتفونه:

- يا لولاد ديرو حالة، يا لولاد ديرو حالة

- جيبوها يا لولاد إن شاء الله يا لولاد

- يا لولاد ديرو حالة، إسبانيا نقلبوها اليوم ألمانيا تغلبوها اليوم

ثم انقسم المشجعون بعبارتين، كان الفريق يردد بدق الدف والتصفيق:

- يا لولاد

فيُكَلِّمُ العبارة الفريق الثاني من المشجعين بصوت خشن به قوّة وحزم بدقّ الدفّ والتصفيق والتصفير:

- جييوها

ولم يستسلم الشعب ولم يفقد إيمانه بمننتخبه رغم تسجيل ألمانيا وتعديل النتيجة، فكان إصرار المنتخب الوطني هو الأقوى فأثبت قوته وتميّزه فكتب عصّاد بلومي بساقه النارية الهدف الثاني الذي أشعل فتيل الأفراح الصاخبة بين شعوب الجزائر وخُذِّت في اللوح الكروي الجزائري المحفوظ وفي الذّاكرة الجماعية يتوارث أحداثها الخلف جيلا عن جيل ويستذكرها الفنانون والموسيقيون في أغانيهم وينشدها الشعراء في قصائدهم، وما إن أعلنت صفارة الحكم نهاية المباراة تحوّل الشعب الجزائري إلى فراش مبثوث يطير فرحا بوجهات غير منتظمة ووجهات غير معروفة، نخرج الشعب محتفلا بالعرس الكروي وتفوّقه على ألمانيا الغربية وأخرجت المنازل والمقاهي والملاعب أثقالها وحملها البر والطرقات فامتألت عن آخرها بشعب أويّ يركض كما تركض الأسود والنمور والفهود في البرية يرددون:

- وان تو ثري فيفا لالجيري

هذا الفوز المحقق فتح شبيهة الجزائريين حدّ الشراهة للفوز القادم فهتفوا تيمنا بفوز جديد في المرات المقبلة:

- هذي البداية ومزال مازال، هذي البداية ومازال مازال

انطلق ماسون رانجير راكضا مع الراكضين المرعين في الطرقات المعبّئين بوقود فرحة الانتصار والفوز المستحقّ على ألمانيا، مرّت أمامهم شاحنة تحمل في مقطورتها الغير المسقفة رجال وشباب حالهم التعبير عن الفرحة والمسرة، كانت الشاحنة وسائر المركبات من السيارات والحافلات تسير ببطء شديد لكثرة الرّاجلين، صعد ماسون رانجير على عجلات الشاحنة والتحق بالمشجعين داخل المقطورة، وناولوه العلم وراح يهتف وان تو ثري فيفا لالجيري، أحسّ ماسون رانجير في تلك اللحظة البهيجة بالانتماء أحسّ أنه جزء من هذا الشعب الذي يتقاسم معهم حب الشعب لوطنه، ويتقاسم معهم عشق كرة القدم ولا بد من إسماع صوتهم للعالم كما يُسمع الرّعد صوته للأرض ومن عليها ولا يذر أن يقاطعه أحد.

في لحظة غريبة كان ماسون رانجير يمسك العلم الجزائري في طرفيه ويهز بها في وجه السماء مسه طائف من الحنين إلى وطنه أبسط العلم الجزائري بين يديه وسافر شاردا بذهنه يُحدث نفسه:

- كم تمنيت أن أكون بجوارك يا وطني في هذا المحفل الكروي البهيج، كان الرب معك، قلبي وروحي معك سأصلي من أجلك

لفّ ماسون رانجير العلم الجزائري على رأسه وألقى بنفسه من الشاحنة إلى الأرض واسترسل في حديث نفسه:

- فلتفرح يا ماسون، فليست كل الأيام تضحك، وليست كل الشعوب تحتفل هكذا بالانتصارات كما هذا الشعب العظيم، فلتضع ما جئت من

أجله جانبا اليوم واذكره غدا، واستمتع بنشوة النجاح والفوز بروح الجزائر وشعبها، استمتع بهذه اللحظات التاريخية التي سيخلدها التاريخ، استمتع وطير كما يطير الفراش والنسر والصقر، كن عندليباً يغرد بأجود وأعذب الألحان، لفت انتباه ماسون الزغاريد المتواصلة المنبعثة من شرفات وشبابيك العمارات والبيوت التي تطلقها النسوة الجزائريات، وقف مستحسنا لتلك الأصوات من الزغاريد النسوية التي كانت جديدة عليه واعتبره اكتشافا بالنسبة له، في الطريق استوقفه صحفي يحمل كاميرا وآلة تصوير فطلب منه مساعدته في التصوير:

- السلام عليكم من فضلك سيدي أنا الصحفي عبد القادر أنا أقوم بتصوير بالكاميرا هل لديك بعض الإتيقان في التقاط الصور

فردّ عليه ماسون:

- وأنا السيد ماسون رنجير، التقاط الصور من هواياتي

في فرحة مبينة على وجه الصحفي قال لماسون:

- الله بعثك إليّ، هل تتكرم وتساعدني بالتقاط الصور ريثما أنهي تصوير فيديو بالكاميرا

التقط ماسون صورا احترافية لتلك الاحتفالات، وراح يتحاوران مسافة الطريق إذ بادره الصحفي عبد القادر لسؤاله باللغة الفرنسية عن أصله و سبب زيارته لما بدى على ماسون أنه أجنبي، فاكتفى ماسون بإجابة كانت كفيلة لتقطع مدد الأسئلة من الصحفي:

- لغتك الفرنسية متقنة جدًا وأغلب الجزائريين الذين صادفتهم أمس واليوم يتقنونها جيدًا، فلا أجد صعوبة في التواصل مع غيري هنا... لكن يبدو أن مهنتك كصحفي تعدت ميدان العمل فأصبحت روتين يومي تمارسه على كل من اصطدم بخلقك

فقال له الصحفي:

- لا داع للقلق كان مجرد فضول فقط بمعرفة سواحنا وضيوفنا

وصل ماسون والصحفي برفقة المشجعين إلى فناء مقام الشهيد المعني بالجزائريين يرددون النشيد الوطني:

قسما بالنازلات المتحقات والدماء الزايكات الطاهرات

والبندو اللامعات الخلفقات والجبال الشامحات الشاهقات

نحن ثرنا فحياة أو ممت وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدو- فاشهدو- فاشهدو

كَبَّ الصحفي عبد القادر يوثق الحدث بكل تفاصيله بكميراته، وقدم آلة التصوير لماسون رنجير طالبا منه أن يلتقط الصور للجماهير المصطفة على قلب رجل واحد تنشد النشيد الوطني، أمسك ماسون آلة التصوير ووقف جامدا في مكانه كعمود ثابت في الأرض لم يحرك ساكنا فقد عاودته نوبة التأثر لسماع النشيد بزئير أسود الجزائر، هزه الصحفي من كتفه وقال له:

- ما بك، التقط صورا لهذه اللحظات التاريخية

لكن بدون جدوى، فقد كان ماسون رنجير منسلخا عن ذاته وكيانه فانصهر
داخل النشيد الوطني، ثم صاح صائح فيهم:

- هذا الانتصار نقدمه للمليون ونصف المليون شهيد، تحيا الجزائر

ثم هتف كل الموجودين:

- الله يرحم الشهداء

أعاد ماسون رنجير آلة التصوير للصحفي معتذرا:

- أعتذر كنت شاردا بعض الشيء، لكن كُن على يقين أنّ ذاكرتي وكياني
التقطا صورا خالدة لا تحي أبدا

صعد ماسون رنجير الدرج وتزاحم بين المشجعين ليلبس جدران مقام
الشهيد كما يتزاحم الحجاج للمس الحجر الأسود في البيت الحرام بمكة، وصل
إلى مقام الشهيد طفق يتحسس ويلبسه بيديه، أسند رأسه عليه وأخذ يهمس
عليه كمن يهمس على من له آذان:

- أذنت... قد أذنت بلدي وأذنب أهلونا فيك يا جزائر كما أذنت في
عديد من البلدان، السلام على الأرواح التي سقطت سأسلي من أجلها،
فلتدرك أنني لست بقاتل ولا حاقد ولا نصاب أنا الإنسان ابن الإنسان

فتح ماسون رنجير عينيه وهو يلبس مقام الشهيد، ثم انسحب نازلا في
غروب الشمس آخذا طريق العودة إلى الفندق وفؤاده معي بتأنيب الضمير

ومتحاشيا ذكر جنسيته الفرنسية أمام الملاء الواقف بشموخ معززا بشهداء
وطنه المقتولين على يدي فرنسا.

وصل ماسون إلى غرفته في الفندق خلع حدائه وارتمى إلى السرير غارقا في
نوم عميق ولم ترمق عينيه ولم يفتحهما حتى تعدى النهار التالي ضحاه،
وأوقدت الشمس في ذروتها وسط النهار، نهض ماسون من مرقدته بعجالة
كالناهض الذي فاته وقت العمل فهياً نفسه بما يجبل صورة وجهه الطويل
الأسمر وشعره الأسود وعطر ثيابه بالعطر الفرنسي، خرج من الفندق
وأشعل سيارته وركب سيارة أجرة، كانت هناك امرأة لبست الحايك
تحدث ابنها معاتبه له:

- حدّرتك من التسكّع خارجا، كيف تجرّد نفسك من القميص وتلوح به
في السماء تشجيعا
فردّ عليها ابنها:

- هذا وطني، وهذا منتخبنا كيف لي أن لا أشجع وطني، كيف لي أن لا
أفرح، وكيف لي أن أُعبر عن فرحتي بفوز منتخبنا على ألمانيا
فقالت له أمه:

- لكن صحّتك أهم، من أين لي المال لأدفع فاتورة الدواء
فقال لها ابنها بضحك:

- يمكنك أن لا تشتري لي الدواء، سأغيب عن الثانوية أياما حتى أتحمّن

رسي ماسون رنجير أمام مقام الشهيد يتحسسه مرة أخرى ويهمس إليه:

- لقد عدت، سأفك اللغز أعذك

لمس الحائط وهو ينظر إلى أعلاه ويردد:

- دزيري... دزيري... سأفك اللغز، ضرب ضربة براحة يده على الحائط، ثم ذهب إلى متحف المجاهد يستقضي عن الثورة وبعض أعلامها، واغترف بصره بالصور والوثائق وطأ رأسه أمام الجرائم الفرنسية المرسومة والمكتوبة والمصنوعة بالتماثيل، التقى بالصحفي عبد القادر نفاطبه هذا الأخير:

- يا للصدفة، أنت هو السيد الأجنبي ذكرني باسمك فردّ عليه ماسون رنجير بوجه عابس:

- ماسون رنجير...

ثم قال له الصحفي بعد أن كتب له عنوان مكتبته في طرف ورقة:

- يبدو أنك مهتم بالجزائر وتاريخها، أنا في الخدمة إن احتجت للمساعدة

أمسك ماسون الورقة دون التلفظ بكلمة شكر أو غيرها، راح يشدُّ الأيام من ناصيتها فيستجيب للنداء الأول للآذان المعلن وقت السحر، يستبق الديكّة في بكورها وتودعه ظلمة الليل في لحظات ولادة النور، وينعكس لون الشفق الأحمر في عينيه وتنصب دقات الصباح لما يتنفس في مسامعه، وتصطدم به أشعة الشمس بين ثنايا شوارع العاصمة الجزائرية، يستكشف

جماليات العاصمة وتاريخها وحضارة أهلها العريق، مستمتعا بتفاصيل شهر
الرحمة الفضيل، ويستقضي في المساجد وبيوت الله عن رمضان الكريم،
ليعود بعد التروايح إلى غرفته ليستريح.

حفلة زفاف

خرج كعادته صبيحة يوم العيد يتمشى لاحظ اكتظاظا في المساجد، حام حوله مجموعة من الأطفال وهم فرحين متزيّنين بألبسة جديدة وتقليديّة، يحوم النحل على الثمار والأزهار المتفتحة، كانوا يتسابقون لتوزيع ما لاذ وطاب من الأكل والحلويات على الناس فناولوه بأيديهم البريئة والصغيرة ما أعدته أمهاتهم وجدّاتهم، في نسائم الفرح تفاعل ماسون رنجير مع الأطفال تحت سقف السماء الزرقاء الصافية ركض ماسون رنجير كطفل صغير لم يمسه الكبر، خلف الأطفال كسرب من طيور السنونو تتعالى من حناجرهم ضحكات شبيهة كرقزة العصافير المنبعثة من أقصى أفئدتهم المنشرحة بيوم العيد البهيج الذي هبّ فيه رياح التسامح والسرور.

أدخل يده في جيبه أحس بقطعة ورقة أخرجها كان عنوان الصحفي، تأمله مليا وهو في مخاض التفكير، أرجع الورقة إلى جيبه، وفي اليوم التالي قصد العنوان المكتوب على الورقة، طرق الباب تفاجئ به الصحفي عبد القادر الذي كان متزينا ببذلة كلاسيكية اعتذر منه هذا الأخير لأنه على موعد لحضور زفاف أحد أقربائه لكن الصحفي، اعتذر من ماسون:

- أنا آسف جدّا سيد ماسون رنجير عليّ الذهاب، لحضور عرس قريبي

ردّ عليه ماسون رنجير بصوت خافت جدًّا كالمغلوب على أمره:

- لا عليك كنت أودُّ أن أستعين بك على البحث عن شخص ما...

سكت هنيهة ثمّ قال:

- سأعود في وقت آخر

استدار ماسون رنجير وجعل يده على الباب، فأمسكه الصحفي عبد القادر وأقسم عليه أن يذهب معه إلى العرس، رفض ماسون رنجير الذهاب لكن إصرار عبد القادر كان أقوى من رفضه، حاول ماسون رنجير أن يفهم عبد القادر أنه من غير اللائق أن يذهب إلى حفل زفاف من غير دعوة لكن عبد القادر غلبه بالإحاحه واستطاع إقناعه فقال له:

- فلنكسر فنون الإيتيكيت، إنها حفلة قريب لي، سيسعدون بك، ثق بي، اليوم سترى وجهها من وجوه الجزائر وشعبها، سترى وجه الفتيان في أعراسها، كأنه وجه من الطبيعة التي تحتفل في ركن من أركان الأرض الطيبة باجتماع البروج ذات الأنوار، وستحدّث عن الشخص الذي تريد الاستقصاء عنه مسافة الطريق.

في حالة استسلام كاستسلام الرياح لصمود السنابل استسلم ماسون رنجير لإلحاح عبد القادر، ووافق على الذهاب معه مادام أن يومه سيكون فارغا من المشاغل ولا وجهة مبينة يركن إليها، فدعى أن تكون الأمور بخير:

- أملُّ أن لا أكون مصدر حرج، أخشى أن أكون من غير المرغوب بهم

ضحك عبد القادر ضحكات متقطعة خارجة من مناخير أنفه، لم يفلح ماسون
رنجير في تصنيفها ضحكات استهزاء وتهكم أو ضحكات اطمئنان فأردف عبد
القادر قائلاً وهو يغلق باب مكتبه:

- ستندم إن لم تأتي معي، سيضيع منك الكثير ويفوتك الفوت، من يسترجي
عدم تلبية عرس في مدينة الخضر باشا، فلتهدأ يا صاحبي، ستشكرني في
الأخير

ركن عبد القادر سيّارته، وطلب من ماسون رنجير النزول لأنهما وصلا إلى
الوجهة، وسيكملان السّير على الأقدام بضع خطوات، تاهت عيون ماسون
رنجير بين البيوت العتيقة المّوسّسة أبوابها والمزخرفة جدرانها والبديعة أشكالها،
في بيت مكتظ خارجه بالرجال والأطفال كاختضاظ خلية النخل

وقف عبد القادر يسلمّ معانقا الموجودين، والفرح مبين على وجوههم، وقال
عبد القادر موجهاً بنانه إلى ماسون رنجير الواقف على طرف الطريق:

- أتيت بمعيّة صديق أجنبي لي

تكلمّ الرجال من أهله في وقت واحد وأقبلوا عليه يرحبون به بحفاوة
وحرارة:

- أهلاً أهلاً مرحباً بضيوفنا الكرام، صديقك هو صديقنا

أدخلوه إلى بهو الدّار وأقعدوه على أفضل كرسي، وآثروه في الأكل
والمشرب فناولوه أجود طبق كسكسي وأنواع أخرى، تنحّى عن ماسون

رنجير الخجل والوجل بطريقة استقباله المميزة والتي لم يتوقع استقباله بها ناهيك عن كرم الناس، همس ماسون رنجير إلى أذن عبد القادر مستفسرا:

- إني أرى الرجال دون النسوة!

فردّ عليه عبد القادر الجالس أمامه وهو واضع رجله على أخرى ومتصفحاً مجموعة من الصحف وهو يرثف الشاي الساخن:

- أنت في بلد مسلم ومحافظ، الأفراح عندنا غير مختلطة لأننا رجال الجزائر الأحرار لا نرضى على حرائمنا بدسها بين رجال غرباء، النساء في البيت المقابل هذا بيت الجيران استعاره قريبي لضيافة الرجال والبيت المخصص للنساء هو ذلك البيت المقابل... هو بيت قريبي أين تُزفّ الزغاريد المتواصلة والأنغام

حمل ماسون نفسه للتفصح في أرجاء المحروسة، فراح يدخل ويخرج من أبوابها الخمسة، دقائق انسجام وتخاطر بينه وبين القصور المشيدة بأيادي آل صنجاج وغيرها والبيوت التي يتوسطه صحن الدار المفتوح ونوافير المياه، التي تجتمع حولها الأهالي، أسئلة تطرحها نفحات ماسون رنجير لحيطان مساجدها التي تروي حكايات بعيون الزمن الغابر وحقب السلاطين والدايات رحبّ به أحد التجار:

- أهلا بك في القصة يا سيد، تفضل إلى محليّ علّك يستهويك شيء

ردّ ماسون الترحيب بأحسنه ودخل المحل الذي كان يبيع الأشياء والآثار القديمة، راح ماسون رنجير يقلّب بين الأشياء لمح صور لرجال جزائريين

وصناع وصور للجزائر مكتوب عليها الجزائر المحمية بالله، نصح التاجر ماسون باقتناء أحد الصورة فهي من أفضل التذاكر التي يمكن الاحتفاظ بها، خرج ماسون من المحل بصورة قابله حرفي يصنع من النحاس لوحات فنية وقطع من مصابيح وفوانيس وصحون وقطع أخرى منقوشة عليها هم بالدخول فقال له الحرفي:

- باليني باليني

لم يفهم ماسون ما يقصده فقال:

- عفوا منك ماذا تقصد باليني باليني

- أدخل المحل بالرجل اليمنى، ورتل الدعاء المعلق في أعلى الباب "اللهم أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق"

ابتسم ماسون وعاد إلى الخلف خارجا ثم عاود دخول المحل برجله اليمنى وقال للحرفي

- أمسرور هكذا؟

فردّ عليه الحرفي الجالس على كرسي صغير وبين يديه قصعة نحاس كان في صدد نقشها وزخرفتها، وضع القصعة جانبا ووقف مهتما بماسون رنجير الغارق في تأمله الشديد للنقوش والزخارف، بجرأة وثقة بنفسه طلب من الحرفي أن يناوله قطعة صغيرة من النحاس، استغرب الحرفي ذلك فرفض التحاسبي لكن ماسون اشتراها في الأخير وجلس مكان الحرفي وأخذ ينقش

القطعة النحاسية بنقوش كلاسيكية فرنسية، وحينما فرغ منها أراها للحرفي طالبا رأيه:

- العلامة كاملة؟

فردّ عليه الحرفي لا بأس

فقال له ماسون:

- كنت طالب الفنون الجميلة في باريس لكن الأيدي الخبيثة أوادت موهبتي، لكن الفن دخلني لم يمت ولن يموت ما تعلمته، إن احتجت إلى عامل سأكون جاهزا، سأتعلم النقوش هذه في فترة وجيزة.

فقال له الحرفي:

نحن أهل الأرض والحرفة لنا متوارثة أبا عن جد

ثم رد عليه ماسون:

- تقولون، من عاشر قوما أربعين يوما أصبح منهم

فقال له الحرفي:

- هذا قول الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام

إن احتجت إلى عمل فاسأل عمي العربي في آخر الشارع

خرج الحرفي ينادي:

- عمي العربي، عمي العربي

خرج عمي العربي رجل في آخر كهولته سمين قصير القامة في وجهه نور يناهز بياض الشيب، خرج ببذلته الزرقاء وسرواله الأزرق مستفسرا عن سبب مناداة الحرفي له، فقال له هذا الأخير

- أنت تحتاج إلى عامل، وهذا السيد يريد عمل... يا عمي... اتهلا

اتفقا الاثنان على شروط العمل، التحق ماسون رانجير إلى العرس مرة أخرى وحين وصوله إلى بيت الفرح كان موكب العرس قدّام البيت، اشتد الاحتفال وتناغم الحضور على أنغام القارقالبو وفرقة بوسعدية وفرق التيتيش والزرناجية المتزينين بالجبادولي والشاشية، لاحظ مجموعة من النسوة يرتدين الحايك تتوسطها العروسة التي ترتدي هي الأخرى الكاراكو ولبست الحايك، مغطّاة رأسها بقطعة نحر من حرير، وعلى جبينها الزروف، خيط الروح المصنوع من الذهب بثلاث دمعات من الأحجار الكريمة دلالة على زواجها، ومزين بالجواهر النفيسة، والأطفال الصغار يناهزون النسوة في اللف حول العروسة عند عتبة الباب زغردت النسوة طويلا ولفظت أم العروسة تتغنى بابتها وأصلها الطيب كعادات الحرائر عند تفاخرهن ببناتهن:

- أنا بنتي جزايرية بنت القاع والباع والخلخال مربع والختام في الصبع كي يطيح فالأرض يقربع والهدرة والمشية بالطبع، بنت الحسب والنسب والشعر في السما مقلب واليد معمرة بالفضة والذهب بنت الشان والمرشان في لباسها يظهر البرهان، في كلامها تسمع الأوزان وزينها لجميع الناس بيان

أطلق الرجال البارود وعلت الزغاريد ثم هممن بإدخالها إلى البيت بعد أن استقبلتها حماتها بطبق نحاسي عليه تمر ولبن وأطعمت كبتها التمر والحليب.

اجتذب ماسون رنجير أطراف الحديث مع الحاضرين، ثم جلس أمام عبد القادر ليقص عليه فسحته في القصبة، وصل بشير أحد أقارب عبد القادر لتوه إلى العزيمة، لمح عبد القادر فناده وهو يلوح بيده من بعيد:

- يا الدزيري...

استجابت مسامع ماسون رنجير والتف كل إدراكه إلى كلمة النداء كأنما كان هو الشحص المنادى

تقدم بشير إلى عبد القادر وقف هذا الأخير يسلم عليه بحرارة تدفئ صقيع سنين الغياب، ثم أردف بشير قائلاً:

- خلاص نسيت الدشرة، ملي جيت للعاصمة وليت دزيري

ضحك عبد القادر تبسما وأجابه ويده تصافح يد بشير:

- دزيري، عاصمي، صحراوي، شاوي، ترقى، قبالي، نايلي... سميني كما حبيت أنا قروي من الجزائر وأنا الكل من الكل، لا أحس نفسي جزءاً من الكل فسفري بين الولايات زرع في ذاتي حب الانتماء إلى كل شبر من جزائري الحبيبة

عرّف عبد القادر بشير بصديقه ماسون رنجير، وقف الأخير ليُسلم على بشير، ثم جلس الثلاثة يتناوبون الكلام وفي كل خطاب يوجهه بشير لماسون

رنجير يلعبه بالرومي نسبة لجنسيته الفرنسية وكونه أجنبي عن الجزائر،
وماسون رنجير يطلب منه في كل مرة أن يناديه بالسيد ماسون رنجير.

مقهى عمي العربي

انتشر خبر توظيف عمي العربي لأجنبي في المقهى الذي يمتلكه في أرجاء القصبة وما جاورها كما تنتشر النار في الهشيم. وصار عدد المرتادين للمقهى يتضاعف فضولا من رؤية الأجنبي ماسون رنجير، ولم يستغرب الأهالي من توظيف عمي العربي لأجنبي ابن المستعمر لأنه كان صديق لبعض الأجانب الصالحين في الماضي من أصدقاء الثورة، طلب ماسون رنجير من عمي العربي أن يساعده في البحث عن بيت صغير للكراء في ضواحي القصبة التي ألفتها بسرعة البرق ليكون قريبا من المقهى ليستغني عن الفندق، وليقلص مسافات الطريق من الفندق إلى المقهى، فكّر عمي العربي ثم اقترح على ماسون رنجير المبيت داخل المقهى إن لم يجد في ذلك حرجا بما أن المقهى يحتوي على غرفة صغيرة بها سرير واحد وبلا مقابل، وافق ماسون رنجير وأحضر متاعه من الفندق وانتقل إلى المقهى.

في جلسة مسائية في فناء المقهى جمعت الطاولة عمي العربي بجيران عمله من التجار والحرفيين وكذلك أصدقاءه المتقاعدين، حدّروه من شر مرتقب فقال له صديقه بودالي الذي يقربه في العمر والذي تقاسم معه الصداقة في جل عمره وكلامه لوم وتحذير واستهجان وهو يرد عليه واثقا من نفسه:

- لم نصبت ذلك الرومي عاملا في المقهى؟

- لأنه يحتاج إلى عمل وأنا أحتاج إلى عامل يساعدي، فقد بدأت قواري
ثلاثي وثلاثين صديدا بفعل الزمان، لم نعد شبابا كما كنا لقد كبرنا وعلى
سكة الهرم

- وحتى لو لم تعد شابا قويا كما كنت، فلست مجبرا أن تدخل غريبا روميا
إلى حرم عمك، وتدخله إلى حرم القصة

- اسمه ماسون رنجير، أدعوه باسمه ماسون ولا تدعه بالرومي كي لا يحس
بالغربة

- ماسون رنجير! أنظر وتأمل الدرج والأحياء هنا، إياك أن تنسى ما فعله
(جاك ماسو) في حق القصة ما هو إلا وريث له

سكت بودالي من شدة الحيرة وبغضب دفين قديم قال لعمي العربي:

- الدماء لازالت تسيل في درج القصة، ومزالت الأرواح تسكن الآبار
والمخابئ، داخل هذه البيوت ولازالت الجراح تن من رحم أركان هذه
البيوت التي تراها بسبب المستعمر المستبد؟

وضع يديه على رأسه ثم أفلتها وأردف قائلا لعمي العربي:

- أنا لا أنسى وأنت لا تنسى وهذه الحيطان والتراب والماء والهواء والشجر
والحجر لا ينسى ولن ننسى الجرائم والدماء المنهمرة ها هنا وفي كل الجزائر،
أطرد الرومي أطرده لأن دخوله إلى الجزائر لا يختلف من دخول أجداده
من سيدي فرج

أيدّ الكَلَمَ بـودالي، وقالوا له:

- أطرده وكُفِّ عن نفسك وعنا الشر إننا لك ناصحون

فردّ عليهم عمي العربي:

- والله لا... والله لا أريد أن أكسر بخاطره كل مغترب في اغترابه حكمة وحاجة، ناهيك عن إتقانه العمل يشتغل بجهد دون تدمير ولا كسل وتطفيف، أشهدك بالله منذ أكثر من شهر لم أر فيه إلا تفانيا للعمل

قال له بودالي بضجر وسئم:

- فلتخلصنا منه بربك، أي حاجة تدفعه لترك بلده وأي حكمة تجلبه إلى وطن غريب وبعيد، ولنفترض أن له حاجة وحكمة، فهذه الحاجة والحكمة لن تختلف عن حاجة وحكمة آبائه وأجداده الذين سبقوه إلى هنا

طلب أحدهم الصلاة على النبي:

- يا جماعة صلوا على النبي المختار

صلى الجماعة على النبي المصطفى، وراح بودالي يعبر عن رفضه القاطع لوجود ماسون رنجير في القصة بل في كل الجزائر ويحاول إقناع عمي العربي عن فصله وإبعاده عن القصة وإخراجه من الجزائر كلها موظفا كل الحجج ليقنع البقية وجعلهم يصطفون في صفه:

- لطلما كنت رقيق القلب وأبيض النوايا... يا صديقي كنت ولازلت مسامحا وكریما، لكن الآن الأمر يتعلق بأمنك وأمن القصة وأهلها والأمر

خطير جدا، كيف سولت لك نفسك بإدخال غريب أجنبي، من حفدة الطغاة الذين أزهقوا أرواح آبائنا ونسائنا وبناتنا، نيته سوداء حالكة عاصفة هوجاء كسواد نية فرنسا التي دمرتنا ولازلنا نعاني من ويلات تدميرها.

احمر وجه عمي العربي نجلا وعاود تأكيده لبودالي ومن معه أنه لا يريد كسر خاطره فطلب بودالي أن يوليه الأمر:

- ماسون رنجير هو لغم متألغام فرنسا سينفجر علينا في أية لحظة، سيعطبنا، دعني أتصرف إن استحييت فأنا من أجل وطني ومن أجل أمنه وغيره على دماء الشهداء سأطرده في الحال

أقسم عمي العربي على بودالي أن لا يتصرف بما يسيء لماسون رنجير، وترجاه أن يتملك أعصابه، نخرج ماسون رنجير إلى فناء المقهى ومعهم صينية، قدم لهم القهوة والشاي ثم سألت عمي العربي إن احتاج إلى شيء آخر:

- عمي العربي هل تأمرني بشيء آخر؟

فرد عليه:

- تسلم يا ابني، عد إلى عمك

في غيظ شديد لم يستطع بودالي كضمه، أبعده فنجان القهوة وأبى أن يشربها بما أنها من عمل يدي ماسون رنجير حاول عمي العربي تهدئته بكلامه اللين:

- لا تحكم على الكّاب من غلافه، يا صديقي يا رفيق الحرب ويا رفيق التحرير أتذكر السيد لويس الملقب بفرس النهر وأصحابه الذين أسعفوك لما أصبتَ بجروح في الجبال كانوا هم من ساعدوك، كانوا أصدقاء الثورة وينددون بما فعلته بلادهم فينا وكانوا ضد المستعمر

- لا أنكر أنهم ساعدوني وكانوا أصدقاء الثورة ومثلهم من أبناء الفرنسيين القليلين ممن أيدونا واستطاعوا الفوز بثقتنا، لكن الأمر مختلف والأمر شتان بينهم وبين ماسون رنجير هذا، أصدقاتنا الفرنسيين إبان الثورة كما نعدهم على أصابع اليد الواحدة وكما حذرين منهم ، ربما أثبتوا قولاً وفعلاً نيّتهم، واختاروا أن يلبثوا هنا بعد خروج الاستعمار اللعين ومنهم من عاد وقلبه لازال ينبض بالعدل والإنسانية وكاره للظلم، أنا لا أنكر ولست بجاحد فضلهم عليّ، لكن ماسون رنجير هذا أي طينة بُني بها، وأي دليل يُثبت نيته الحسنة وأتى له أن يفوز بثقتنا؟ ربما له خطة لشر ما، لا يمكن أن ننسى أنّ الجزائر أفسدها من ليس لهم قيمة ولا ذرة إنسانية

- لعل الخير يكمن في الشر، لو أنك تتمعن في داخل عينيه البنيتين سترى لهيباً متأججا وعطشا شديدا لمعرفة شيء ما وفي روحه ثورة لفك سر ما، ذلك السر المدفون بين آثار الغابرين ممن ملك أمره، لو ترى نظراته المتأججة بالشغف نحو كل ما سقطت عليه عيناه ولو ترى لمساته لكل ما هو جزائري مادي ولو ترى كيفية إصغائه الحاد لكل ما هو لامادي ومروي سترى فيه شخصا غير عادي شخصا يريد أن يتجنس ويمتزج بهذا المكان، وإنه يتنفس بهواء الأسئلة والبحث المكثف عن تاريخ هذا البلد وأعلامه، إن داخل

هذا الشخص الأجنبي شخص جزائري، سكت عمي العربي قليلا ثم ضحك ببراءة وقال:

- والله إن هذا الشاب قد ألفت وجوده وارتحت له، ثم رفع كفيه أمام بودالي ولأصدقائه وتساءل:

- ما عساي أصنع؟

فرد عليه بودالي:

- أخشى أن تمسنا معرة من هذا الرومي، حتى النار والثعابين والعقارب السامة تألفها وترتاح لها

نهض بودالي منسجبا من الجماعة وهو ميئوس من صديقه عمي العربي وهو يردد:

- آمل أن لا نقع في مصيبة من تحت رأسك يا العربي، آمل أن لا تدفع الثمن غاليا بسبب عنادك هذا

ثم كثر بودالي وجهه وضرب على الطاولة بقوة الغضب:

- الفائدة والحاصل لخبر يجيبوه توالا

وراح يرفع يديه إلى السماء ويلوح بهما في وجه عمي بودالي والجالسين معه وهو ملفت نظر الذاهب والآتي ومن حولهم قائلا:

- مال ناس اليوم تُدخل غربيا إلى عقر الديار لا يُعرف أصله ولا فصله
 لن نسكت عن هذه المهزلة لن نسمح للمستعمر بوضع يده على الجزائر البيضاء
 مجددا، تَبَّأ...

ثم همّ بالمغادرة وهو يتكلّم بمفرده مسافة الدرج:

- قولولي يا سامعين ريحة البهجة وين؟ قولولي يا سامعين ولاد العاصمة وين؟
 قولولي يا سامعين هذا الأمر رايح لوين قولولي ياسامعين هذا منكر كبير،
 قولولي يا سامعين هذا الغريب عنا لازم يغيب الحذر منو لايجييلنا مرة
 وعيب.

في الليل اقترب المقهى من الفراغ من الزبائن جلس عمي العربي يُحدث
 ماسون رنجير في فناء المقهى وأثناء أحاديثهما تسلفت أحاديث من أعلى
 سطح أحد البيوت القريبة من المقهى وهي أحاديث من حناجر النسوة
 كانت الأولى تطلب من الثانية أن تبشرها بخبر عن زوجها المغترب وتُبصر
 لها عن أحداث مستقبلية طفقن يمارسن عاداتهن في قراءة الطالع و
 البوقالات:

- بخرت بالجاوي جيولي لخبار من لقهاوي، بخرت بالحنة جيولي لخبار
 من مزغنة²

سمع العربي قول المرأة فأسقط كأس القهوة على الأرض، سأله ماسون
 رنجير في تعجب ما السبب الذي دفعه لكسر الكأس على الأرض؟ أسكب

² - مزغنة هي اسم قديم لمدينة الجزائر

عمي العربي كأس شاي وارثشف ثلاث رشفات وهو ينصت تحاور النسوة
الجهري،

- سمعتي كان صوت زجاج

- إذن سوف يعود قريبا

ثم طلبت منها فتاة أخرى أن تنوي لها أن تختار لها بوقالة لترى حظها في
الأيام القادمة، حركت المرأة الجرة المملوءة بالبوقالات واختارت واحدة
جعلت الفتاة تقفز على السطح فرحا لم فيها من بشرى طيبة، قالت الفتاة
بأنها تريد أن تتزوج بأجنبي وتريد أن تسافر وترى ما خلق الله وأبدع

ضحك عمي العربي من قولها وقال لماسون رنجير مازحا له:

- يبدوا أننا سنضطر أن نزوجك بتلك الفتاة التي على السطح تتخى أن تتزوج
بأجنبي، ابتم ماسون من مزح عمي العربي، ثم طلب منه أن يشرح له ما
الذي يدور هناك ويفسر له معنى ودلالة البوقالة وكل ذلك....

فأجابه عمي العربي:

- إنها من الموروث الشعبي، وتقوم بها النسوة في سهراتها فأغلبها تكون في
سطوح البيوت... ما رأيك أن ننوي عليك؟

فقال له ماسون رنجير وهو يهز رأسه ويحرك كأس الشاي:

لا البوقالات هذه تُحدثني ولا غيرها إنها رؤيا تتكرر في منامي أرى رجلا
من نور له أجنحة كبيرة يدنوا إليّ ثم يمسح على لحيته ويقول لي:

- ستقف وسط بحر هائج يفصل ملكين غدار ومغدور به ظالم ومظلوم،
المجد متوارث في سلالتك، ستعود الثريا عالية ثلثلاً في السماء وترفع رأسها
شاحخة وعزا بها، سيعود الرضيع إلى ضرع أمه، وترجع الدماء إلى عروقها
بعد فصامها

- رؤية خير إن شاء الله يا بني، قل لي هل ستتزوج من الجزائر؟

سكت ماسون رنجير فقال له عمي العربي:

- السكوت علامة الرضا، يجب على النسوة أن يطلقن الزغاريد

- كفاك مزاحا عمي العربي، ما يشد انتباهي ما قاله والدي، كان دائماً ما
يقارن المرأة الجزائرية بالفرنسية حيث رأى في المرأة الجزائرية حفاظاً وصوناً
فهي تثير فضولهم

- إنا لنا عذارى بنات الصدف لم يلبهن إنس، حاملات للخير وناثرات للبر
والود، سأساعدك على إيجاد حمامة الحب، كثيراً ما يدخل الرجال حاملين
على آذانهم أوراق النعناع التي تدل على امتلاكهم بنات في سن الزواج،
سأقصدهم وأختار لك من تسرك وتحفظك

ابتسم ماسون ضاحكا من كلام عمي العربي، وفضل أن يصمت فقال له
عمي العربي:

- إنه أفضل العروض التي قد تصادفك، أم أن لك عصفورة في وطنك
تنتظر عودتك؟

ضحك ماسون وجمدت ابتسامته ورأسه مُنكس وعينه شاخصتان داخل كأس الشاي شاردا بذهنه، استفاق ذهنه الشارد على سؤال عمي العربي الذي كرره أربع مرات:

- ماسون رنجير يا ابني وددت لو حدثتني عن عائلتك، ولن أخفي عنك رغبتني في أن أعلم سبب مجيئك إلى هنا وسبب اعتراك عن وطنك، ليس من الهين فراق الأوطان والأهل، ليس حشرا فيما لا يعنيني إنما حبا في مساعدتك إن اقتضى الأمر وحبا في الإنصات لحكايات الناس، وإنني لمستمع جيد

نظر ماسون رنجير إلى عمي العربي والتمس منه نوعا من التعاطف معه، أحس ماسون رنجير أنه بحاجة إلى أن يكفكف عن نفسه ولو بالقليل من الفضفضة، بدأ في السرد:

- بصراحة لا أعرف كيف أقولها، كيف لي أن أقول أن والذي كان ضابطا في وزارة الحرب الفرنسية ضد الجزائر اسم والذي...

قاطعه بودالي بجيئه بمعية كبار الرجال من أهل القصبة، سلموا على عمي العربي وطلبوا منه التحدث على انفراد، حضر ماسون القهوة لهم ثم رجع إلى داخل المقهى يُقَلِّب في حقيته، أخرج الصور يتأملها جرفته مجاري الذكريات والتفكير، أعادها إلى حقيته وخلد إلى النوم

في اليوم التالي جاء عبد القادر الصحفي، دخل إلى المقهى وهو يصيح بالبشرى:

- ماسون، صديقي ماسون، أبشر، أبشر أتيتك بخبر يقين
ترك ماسون ما بيده وأسرع ليمسك بالملف الورقي الذي مده عبد القادر إلى
ماسون، لكن عبد القادر أبعد يده وطلب منه كأس قهوة حلوة:
- هذه المعلومات المدونة بهذا الملف تستحق كأس قهوة على طاولة نرد
فقال له ماسون:

- فلتجلس في الخارج سأتبعك بأفضل كأس قهوة في العالم
كان عمي العربي كالرقيب والعتيد يلتقط بعينه وآذانه كل حركة وكل كلمة
بينهما

جلس ماسون بجوار عبد القادر وشكره جزيل الشكر على المعلومات وراح
يقرأ ما في الملف ويبحث كالمجنون عن عنوان إريك موتانا، ألقى بنفسه ومدّ
يديه أرضاً وتنفس الصعداء، عاتق عبد القادر وأثنى عليه بالشكر الجزيل،
دخل إلى المقهى وتابع عمله بنشاط وهمة.

في مساء اليوم دخل طفل يبحث عن والده الجالس على الطاولة مع أصدقائه
الثلاثة في زاوية المقهى يلعبون النرد، يلح على أبيه أن يساعده في رسم أحد
الشخصيات التاريخية، فهره والده وقال له أنه لا يتقن الرسم وليبحث عن
شخص آخر لم يأبه لأمره رغم إلحاح الطفل وخوفه من عقاب معلمه، تقدم
ماسون إلى الطفل وعرض عليه المساعدة:

- ناولني الورقة والقلم سأعلمك أبجديات رسم البورتريه

فقال له الطفل:

- طلب منا المعلم شخصية تاريخية، فلنرسم الأمير عبد القادر أو الأمير خالد، مصطفى بن بولعيد، ديدوش مراد، كريم بلقاسم، رايح بيطات، عربي بن مهدي أو آخرون

طلب ماسون رنجير صوراً لهم:

فقال له الطفل مستغرباً:

- لا، عجباً ألا تعرف أبطال الجزائر؟

- ثم تكلم والده من زاوية المقهى وقال له:

- ها هو علي لابوانت أمامك

تاه ماسون بين الصور الكثيرة للمجاهدين والشهداء التي غطت والتصقت على حيطان المقهى، تدخل عمي العربي وأشار بيده إلى صورة علي لابوانت، بدأ ماسون ينخت تفاصيل الوجه وطلب منه الطفل الصغير أن يساعده في كتابة لمحة عن حياته الثورية، من الزاوية صاح والده

- وا علي باعوها أعلي

فردد كل من في المقهى:

- وا علي باعوها علي

لم يفهم ماسون رنجير شيئاً مما يحدث، توقف عن الرسم وراح ينظر يمينا وشمالا عليه يفهم ما ينطق به الرجال في المقهى، وما المقصود من ذلك؟ وفي خضم الأصوات المتعالية أكل ماسون رسم بورترية علي لابوانت غاصت عيون ماسون في عيون علي لابوانت المرسومة وشقت ذاكرة ماسون ملفاته الدفينة وبعث الطفل الذي بداخله ذكرى والده وهو يضربه بكل ما أوتي من قوة وهو يصرخ في غضب:

- هذا دم علي، أعدك أن دم علي سينهار ما دمت حيا

ثم توافدت الذكريات ترسل أخواتها، فرسمت ذاكرته صورة ليست ببعيدة صوراً لأبيه في آخر سنوات عمره لما اشتد عليه الخرف والهرم وأقعده العجز والكبر وانهارت صحته، يهذي:

- امسح دم علي عني، لم قاعة المتشفى مملوءة بالدم، علي يريد أن يقتلني، أين العساكر احموني منه، أرجوك أعتقني منه

وتذكر أن والده في آخر أيامه يأمر أبناءه الكبار:

- أرجعوا الأمانة إلى علي

هزه الطفل طالبا منه أن يتم رسمته، قال أحد الرجال كم اشتقنا إلى فيلم الدار الكبيرة الحريق لمحمد ديب وفيلم معركة الجزائر، ونصح عمي العربي ماسون رنجير قائلاً:

- يجب أن تذهب للسينما وتطلع على الأفلام التاريخية الجزائرية، هز ماسون رنجير رأسه وقال:

- سأفعل ذلك

خطف الطفل الرسم من ماسون رنجير وهو مسرور يجري نحو والده مبدياً إعجابه الشديد بها، وأراها لكل من كان هناك ينظرون إليها وقال:

- أبي أبي أنظر إلى الرسم إن هذا الشخص فنان بحق، سأعلقها في قسمي أعلى الصبورة وأدعو تلاميذ الأقسام الأخرى لرؤيتها، أنا سعيد جداً، طلب من ووالده أن يحكي قصة علي لابوات التاريخية والثورية، ناداه عجوز طاعن في السن:

- تعال يا ولدي، كنت شاهداً يوم اغتيال علي لابوات ومن معه دماهم سالت هنا في القصبة، سرد العجوز قصة علي لابوات تحت مسامح ماسون رانجير الذي تأثر بالقصة.

حل الليل واشتد سواده وانقضى الزبائن إلى ديارهم وأتى ماسون باب المقهى ليغلقه، وقف قدامه عمي العربي تلثم في كلامه وتردد ثم طلب من ماسون رنجير أن يترك العمل:

- يا إبنني إني لك عمل جديد غير هذا في مكان غير هذا، يا إبنني إنه يعز على نفسي فصلك من العمل لكن مغلوب على أمري أنا مضطر

انقبضت عضلات وجه ماسون رنجير وشحب لونه، ونسي أمر غلق الباب، وسأل عمي العربي:

- أقصرت في شيء أم لم أكن كفوفاً في هذا العمل؟

- لا والله يا بُني، في الرحيل شفاء وفي الرحيل حماية لك ولنا

هزّ ماسون رنجير رأسه وخاطب عمي العربي:

- الرومي، الرومي السبب، لأني غريب وأجنبي وفي نظر غيري أنا قنبلة
ستنفجر في أية لحظة

ردّ عليه عمي العربي في أسف شديد:

- الرحيل لصالحك يا بني، جرح الوطن غزير، وجرح شعبها أعمق كلما مر
الوقت كلما ازدادت الآلام ولن تندمل جراحه ولو انطبقت السماء على
الأرض

- ما ذنبي؟

- ذنبك أنك فرنسي ابن المستعمر المدمر لهذا الوطن، ابن الجارح وأنت
الآن تدوس على أرض المجروح وجودك هنا كمن يضع يده على الجرح،
هذا المقهى يرتاده المجاهدون وأبناء الشهداء كلما حطوا أعينهم عليك رأوا
فيك ظلم المستعمر المستبد، رأوا فيك القاتل رأوا فيك 132 سنة من التدمير
والاستغلال والحرق والتخويف والتجويع والنهب والجهربوت والتجهيل

دخل ماسون وجمع أمتعته، جلس على السرير فتح قفل قيصره لينفض
بعض الضيق عنه، اتباه شعور غريب جدا، شعور الفقد والفراق وشعور
النبد والغير المرغوب به وشعور عدم الانتماء لمس السرير وودع المقهى
وحيطانه بنظراته الحزينة، أمسك الوسادة بشدة وقام بحضنها ووضع رأسه
عليها امتصت الوسادة دمع عينيه، حمل حقيبتها وهم بالخروج ودع عمي

العربي الذي لم يكن بخيلا معه قدم له ظرفا بداخله مستحقاته وتعويضاً له، رفض ماسون الظرف لكن أصرّ عمي العربي وجعل الظرف في جيب ماسون، وطلب منه أن يغادر في الصباح فاختار ماسون أن يغادر في الحين:

- سأغادر الآن ما الفرق بين الليل والنهار إذا ما كان الأمر يخص الرحيل، سأجعل أهل القصة يستيقظون على خبر جميل "الرومي غادر القصة"

قال له عمي العربي:

ستجد عنوان العمل الجديد فلتذهب إلى البويرة إن لي صديقاً لي سيوفر لك عملاً ولن يمكّن نسيم الصباح بسوء، صديقي صاحب مزارع ستساعده في نقل البضائع وتصديرها إلى ولايات أخرى. خرج ماسون وتبعه عمي العربي رافقه بعينيه حتى غاب عن ناظره، جلس عمي العربي على كرسي وأخرج المنديل من جيبه يمسح دموعه التي تسيل بغزارة كغزارة الوديان في لحظة الطوفان، لم يستطع تملك نفسه ولم يستطع كبح إحساسه بالأسى على ماسون رنجير ولم يستطع قلبه اللين الذي يشبه قلب الطير في الرقة أن لا يأسى عليه.

سار ماسون بخطى المنهزم زاحفاً وجدانه بأحاسيس الطرد والرفض، وراح يجلد حظه العاثر والدمع يواسي عزاءه في كبد الليل، أقعده الأسى على الدرج وغشاه الحزن والكرب على نفسه كما يغشي العمى على نور العيون وضع حقيقته على جانبه يعاتب حظه ويلعن نصيبه وانصهر ألمه الروحي في يريق عيونه المتلاذبتين من انعكاس ضوء إنارة مصابيح القصة:

- تبّالم طاقة النفور قرينة بي، أيتها الطبيعة بربك رفقا بي حملتني من الطرد
ما يكفي في صغري فارحميني في شبابي

داهمته أحزانه العتيقة فزادت على حزنه أحزانا وراح يترجي عقله بأن يتوقف
عن التذكر ويسد ثغرة تدفق ذكرياته الأليمة، لكن الذكريات كانت قوية
والآلام أقوى فتذكر والده الذي حرمه من التعليم:

- ماسون الطفل فلتودع المعهد أنت بالنسبة لي لست صبيا، سأرسل بك
إلى المناجم مع العمال

- وإخوتي؟

- إخوتك مكانهم المدارس والمعاهد أزينهم بالعلم والقلم

- لماذا ترسل بي إلى المناجم وإخوتي ترسل بهم إلى المدارس

- اسمع أيها الحنطي الوخ، لا تناقشني، لن تعيش من العدم يجب أن تدفع
فواتيرك، ستعمل في المنجم أو في الحجيم لا يهمني ما يهمني أنك ستكسب
المال من عرق جبينك ولا يهمني طفلا كنت أو رضيعا ستعمل بمعدل
سنة أيام في الأسبوع وستدرس يوما واحدا

- بابا أرجوك...

- اللعنة، لا تناديني بابا، أنا الضابط ميشل فرونسوا ضابط الحربية، لا تثر
غضبي وإلا أنذرتك أشكال الحرب والعقاب

- سيدي لا تحرميني من الدراسة أريد أن أرتاد معهد العلوم وكذا الفنون الجميلة أحلم أن أكون عالما في الفيزياء، وأكون فنانا تشكليا أرجوك أبي، عفوا سيد .. أرجوك لا تحرميني من إخوتي ولا تبعديني عنهم

- أنت تدفعيني لأكرر كلامي، ألا تفهم أيها البغل، لن تصبح عالم فيزياء ولا عالم كيمياء ستصبح كما أريد أنا لا كما تريد أنت، ستصبح فنانا تشكليا ترسم على أترية المناجم ، لدي فكرة سأرسل بك إلى معهد الفنون تدرس سويغات حين عودتك من المنجم آخر الأسبوع، ألن تسألني لم؟... ألن تسألني لم أيها الغبي؟

- لم؟

- لأنني في صدد بناء قصر نغم وأنت ستنقش وتزين ذلك القصر، سأصنع منك فنانا لنفسي هاهها، والآن أغرب عن وجهي أيها المزج، رؤيتك تثير في نفسي الغبطة والغيرة والقهر.

أمسك ماسون يده اليسرى بيده اليمنى ومسح أصابعه ودلكها وحدّث نفسه:

- كلامك يا والدي أو بالأحرى يا سيد ميشل فرونسوا ضابط الجيش الحربية كالجرس يدق في أذني ويهلك عقلي، بالتفكير المستمر، بل هو كالرصاص المذاب عليّ، لم بعثت بي لأعمل في المناجم بذريعة كسب المال رغم أنك ميسور الحال وبإمكانيتك توفير احتياجات حي كامل بباريس، كسب المال والإنفاق على نفسي كان ذريعة فقط ما خفي أكبر وأعظم، إنه الحقد الذي بداخلك نحوي، لم نفرتني عنك وعن كل من بسط حضنه

لي؟ نفرنتي من كل الوسع والرحب حتى صار النفور يجري معي مجرى
الدم وينفرتني عن الناس والديار ويلازمني كالظل العنيد

بسط ماسون رانجير يديه وقلبهما مخاطبا روح والده:

- لم لا تنفر عني الذكريات، ذكريات الطفل الصغير الذي بداخلي ذلك
الطفل الذي لم يكبر، ولن يكبر أبداً، ذلك الطفل الذي خشنت يده من
مشقة العمل في المناجم الصعبة، وكبر جسده وأصبح طويلاً داخل غيابه
المظلمة دون أن يحس، ذلك الطفل الصغير الذي صاحب الكهول صادق
الشباب حتى الشيوخ دون الصغار من أترابه وأبناء عمره. ذلك الطفل الذي
سرق وسلبت منه طفولته بذريعة العمل وكسب المال من أجل البقاء
حياً.

في ليلة اليوم التالي أسند عمي لعربي جسمه المهق على السرير الموجود
في المقهى بعد يوم متعب في العمل، بالكاد استطاع تلبية طلايات زبائنه
وخدمتهم باحترافية وسرعة إذ كان هرمة وعجزه بسبب كبره في السن يحول
بينه وبين السرعة في خدمتهم، وفصل ماسون عن العمل أبان مدى أهمية
وجوده في المقهى إذ قال عمي العربي لأحد زبائنه بأن ماسون رنجير هو
العمود الفقري للمقهى وغيابه اليوم كان بمثابة إصابة العمود الفقري في
جسم الإنسان، فرغ المقهى من الزبائن بحلول الليل فجلس عمي العربي في
غرفة المقهى على السرير ليرتاح لمح عمي العربي صورة قديمة بالأبيض
والأسود كان نصفها قد دهسها برجله، أمسكها بيده وتلون وجهه من
الصدمة، كانت صورة لرجل طويل ببذلة جيش يحمل بيده غيوانا وبأخرى
يمسك رضيعاً من رجليه مقلوب الرأس، من تحت الرضيع حوض ماء

وتفاصيل وجهه تنفلق منه ضحكة شر وبجانبه رجلان وآخر رجل دين،
تأمل فيها كثيرا وتواصل بصور من ذاكرته عله يسترجع تفاصيل الوجه
صاحب الضحكة الشريرة والغيوان، لبس حقيبه وخرج مسرعا قصد بيت
صديقه بودالي دق الباب بقوة وهو يناديه خرج عليه بودالي يقول:

- ما أكره التعاري من النوم، ما الأمر يا العربي؟ الوقت متأخر، خير إن
شاء الله

- تفضل

- ما هذا؟

- الأجل صورة توقظني في عز الليل

- ليست صورة باقي الصور، انظر إليها وخلصني

ألقى بودالي بصره إلى الصورة كاد أن يصعق وتجمدت الدماء في عروقه
وكادت أن تُشَلَّ تفاصيل وجهه وخاطب عمي العربي بحزم:

- من أين لك بهذه الصورة

- بربك لا تكن سخيفا، من ماسون رنجير من أين لي بها؟ يبدو أن الصورة
سقطت منه حين جمع متاعه

ألقى بودالي بصره من جديد على الصورة وقال له عمي العربي:

- أتفكر بما أفكر، هل هو...

قاطعته بودالي وقال:

- ميشل فرونسوا... نعم هو

- والرضيع؟

- يبدو أن الرضيع كان يُحمم بماء المعمودية أتذكر هذا القس

في طاقة مشحونة بالتعجب والصدمة ونفس معبئة بالارتباك وشيء يشبه
الإعجاز قال عمي العربي لبودالي:

- أيعقل أن القدر ساق ماسون رنجير إلينا

- يا ترى من أين له بهذه الصورة؟

- هو يحمل الجنسية الفرنسية، وقد سألته الليلة الفائتة عن أهله...

ضرب عمي العربي جبهة رأسه بيده وقال:

- تبا لقد قال لي ماسون أن والده كان ضابطا في جيش الحرية الفرنسية
ضد الجزائر، كاد أن يقول لي اسمه لكن...

نظرا الاثنان في وجه بعضهما البعض وقالوا في آن واحد:

- أيعقل أن ماسون هو نفسه الرضيع

هبت في نفسيهما رياح تأنيب الضمير وقال عمي العربي لبودالي وهو في
حرقه من أمره مأخذا له:

- يا ليتني لم أسمع منك، كنت أنا الركن الذي آوى إليه ماسون رنجير في وحدته وغربته، فطردته إرضاءً لك ولقومي، يا ليتني لم أستعجل وتأيت لما عصفت بنا لجج الندم

دافع بودالي عن نفسه فقال:

- كان من المفروض أن يفتح أبواب قلبه الحديدية وأن يعترف بسر مجيئه... شاب بعمر الزهور أجنبي ترك بلاده وأهله وأراد الاستقرار في القصة البيت العتيق للجزائر

سكت بودالي أسفا ثم نكس على رأسه وقال:

- ماسون قد أوجس في نفوسنا خيفة، فلم نجد سبيلا لإبعاده غير الطرد، كان كالبركان الخامد الذي لا يؤتمن، والذي يُنتظر أن تدفع حممه الغاضبة في أية لحظة كان... كان ماسون صامتا وهادئا ويُخيل إلينا أنه غريب الأطوار... على كل حال يجب أن نجده، ألم تجد غير هذه الصورة أبحث جيدا؟

رد عليه عمي العربي في رجفة:

- التقطت هذه الصورة من الأرض وأسرعت مهرولا إليك، هيا فلنبحث

ببحث عمي العربي وبودالي ولم يقتنيا من أثر ماسون حاشا تلك الصورة ومصباحا من نحاس اشتراه من الحرفي النحاسي تيمنا بأن تضيء له الحياة أيامه، ووجدا أمام المصباح النحاسي كتاب الغريب رواية لألبير كامو مطوية إحدى صفحاتها، فقد كان ماسون رنجير من هواة المطالعة، اتفقا على السفر

إلى البويرة حيث أين بعث عمي العربي إليها ماسون للعمل مع صديقه، لما وصلا ارتطما بحجرة الخبية فقد أكد صديقه لهما أنه لم يقصده شخص بهذا الاسم ولم يزره أحد بغية العمل عاد أدراجهما إلى العاصمة بعد أن وصّى صديقه:

- إن جاء ماسون رنجير قل له إن عمي العربي يبلغك السلام، قل له يحبيك بتحية ليست بتحية إريك موتانا ولا تحية ميشل فرونسا يحبيك بتحية علي يُحبيك بتحية التحرير والمقاومة

بدا على بودالي التأثر وقال:

- قل لماسون أن يعود بسرعة الجياد الصافنات إلى القصبية ويسأل عنا فإننا بحوزتنا مفاتيح فك الرقبة، وفي جيدنا مفاتيح أبواب الحديد، قل له إنا نحن الجزائريين كالزئبق مهما قطعنا نُجتمع لا محالة ومهما شُتتنا لا تتفرق وكلمتنا لا تتفرق أبدا، نللم بعضنا البعض ونتحذد مهما كان العدو أشرس فخبنا لوطننا وهويتنا أشرس.

بحث عمي العربي عن الصحفي عبد القادر وراح يرتاد مكتبه يوميا كارتياح الشمس للنهار إلا أن أرجل الإحباط تسوقه بمرارة إلى العودة إلى القصبية خالي من معرفة مكان ماسون، فقد وجد مكتب الصحفي عبد القادر مغلقا، واستفسر عن الصحفي فقيل له أن عبد القادر لم يظهر له أثر منذ مدة وقال لبودالي يلومه من جديد:

- كنت تقول لي خاف سلم، أي سلامات هذه يا بودالي، والله لم يغمض لي جفن من شدة التفكير، كان لا بد أن نقدم لماسون فرصة

- أنا الوجيف والرجيف، لست بخير منذ أن أريتني الصورة
 - ماسون قد تجر، والصحفي عبد القادر خُسف به الأرض أو عرجت به
 السماء لا أدري أين هو، ولم تتلقى خبراً من صديقي بالبويرة أنى إلى ماسون
 رنجير سيلاً؟

بثقة تامة قال بودالي مستشهداً بمثل مصري:

- اللي يبسأل ميتش، الذي يسأل لن يضيع. سيعود، ماسون سيعود ستطاً
 رجلاه القصبية من جديد، أنا متأكد فكل ضال الطريق سيهتدي مهما كان
 الشوك مغروساً في السبل إلا أن الشوك سيزهر ويفوح عطراً، لما يسلكها
 الفارس الباحث عن ذاته وكينوته، وسيجد نفسه لا محالة، وسيجمع أول
 قطرات دمعه من حياته الأولى على الأرض.

من الجزائر اليضاء إلى وهران الباهية

خرج ماسون من خدمة الهاتف بعد محاولات عدة بالاتصال خارج الوطن، سار ماسون ملتفا حول نفسه يتنزه في أرجاء المدينة التي تنبعث من شوارعها حنجرة أحمد وهي بأغنيته وهران وهران رحتي خسارة هجروا منك ناس كجارة، أرسى بجسده أرضا وأخرج مفكرته وكعادته شرع يُوثق فيها كل ما صادفه وعاشه:

- سانتا كروز عروس وهران، قلعة كأنه الطاوس بين الطيور، إنه لمكان في غاية السحر والجمال توسع العيون لتلتقط أكبر منظر جميل تمتع جفونها من الرمش تأملا في هذا الكم من الحسن الأخاذ، سافرت من العاصمة الجزائرية إلى وهران، حملت حقيقتي وسافرت على متن قطار عتيق في الليل البهيم إلى وجهة علي أنتشل نفسي من كل هذا الخراب، جلست أمام النافذة المنكسرة من زمن بعيد يلج من ثنايا الزجاج المتبقي من انكسارها على حدود النافذة الدخان الداكن للقطار حاملا معه صوته الغاضب الذي يبدو عليه التعب ومختلطا بتنهيدات المسافرين، كأنّ هذا القطار يستغيث من خلال صوته واسوداد دخانه يريد أن يستقيل من سيره، فهو مرهق من طول تنقله بين المدن البعيدة وسيره بن الطرق الطويلة حاملا في رحمة البؤساء، ومرهق من كم الوجوه البائسة التي تقطن أحشائه، ومستنزف من

مخاض القصص التّعيسة التي تُروى في جوف بطنه كلّ يوم وليلة، لولا بعض الضحكات من أفواه مُستبشرة بمستقبل أفضل وبعض الأخبار السارة التي تهمس في آذانه لاعتزل القطار الخدمة وأركن محركه إلى التقاعد، كان هذا القطار شاهدا على هروب أناس من ذويهم ومن قراهم ومدنهم بسبب تقلّبات الحياة القاسية، وكم هو شاهد على خصومات فيه وكم هو شاهد على أحداث مؤسفة للغاية، يجول الدخان بطن القطار بسرعة وأحيانا ببطء شديد مروراً بمن فيه من المسافرين فيعلق بعضه على وجوههم المرهقة وملابسهم المختلفة في اللون والقصّ، وإنّ عقولهم المستنزفة من شدة التفكير والحيرة لا تجد لهم انعكاساً ولا حتى تأقفاً ولا انزعاجاً من الدخان الخائق ولو حركة باليد لتبعده عن وجوها، ولا هم ينتبهون إلى الجداول والحقول الخضراء، ولا إلى السماء الزرقاء الصافية، ولا إلى الأنهار المتدفقة بالمياه، ولا إلى جمال الطبيعة كلّها، كأنّهم هياكل بأرواح خاوية، إلا القليل منهم ثمّ يطلع الدخان على سقف القطار المسودّ من أثره القديم ويرسو بعضه على المصابيح التي تكاد لا يرى نورها من طبقات الدخان والغبار التي عسّشت عليها، ولا حتى الكهل رُبّان القطار يشتكي من الضجيج والفوضى، بل يلبث في صمته الطويل كأنه اعتاد على الأمر فجعل الطريق صوب عينيه، آه ما أشبه هذا القطار المرهق بالإنسان العجوز في أرذل العمر، الذي أرهقته أدغال الحياة فأصبح أسيراً في أوحالها خيم سواد الأيام عليه ولطّخ دخان الليالي بريقه وصفاء روحه، إنّه ليس ذلك القطار الذي يتلطف إليه الطفل الصّغير الذي يسافر به أوّل مرّة، وليس ذلك القطار الذي يسافر فيه العروسان لقضاء شهر العسل، وليس ذلك القطار الذي يسافر فيه فرقة الأصدقاء لقضاء عطلة الأسبوع، وليس ذلك القطار الذي يسافر على متنه

فرقة موسيقية يزهو من به بأصواتهم العذبة وبقيثارتهم الرثانة وزقزقة الناي، وليس ذلك القطار الذي ترتاده الفتيات الجميلات لحضور حفلة الفنان الكبير، وليس ذلك القطار الذي يرتاده الشباب والرياضي لحضور دوري الأبطال للألعاب الرياضية وكأس العالم، إنه ذلك القطار الجندي المغوار كأنه مقاوم للاستعمار الغاشم، بل إنه يكاد يفقد قوته وتحمله، كذلك هو الإنسان الذي يتحمل فوق طاقته حتى ولو كان صغير السن...

آه ما أشبه هذه النافذة بي، من يطلّ على الخارج يرى مناظر ساحرة تؤسر العين من شدة جمال خلقها وإتقان صنعها، لكن من تأمل فيها فيرى بقايا زجاج منكسر وروح مجروحة من أثر الواقعة التي حطمت زجاجها، والمطل عبر فتحتها يرى ما بداخلها العذاب وسوء السبيل، مقاعد متهرئة ممزقة، حيطان بلون الفحم مسبوغة تفوح من المكان رائحة المنهمك والمستسلم واللامبالاة واليأس والقنوط، بل إنها المأساة بحد ذاتها، وجه شبه بيني وبين القطار هذا، من يلحني من الخارج يراني منظرًا بديع الجمال ومن يتأملني من الداخل يرى الرماد داخلي.

كان البرد قارصا يفرض نفسه بيننا ويتدفق علانية وبقوة من النوافذ المنكسرة ومن حدود الباب المغلق بإحكام، شرعت بأخذ وشاح من الحقيبة أسترّ به من البرد فإذا بنفس الرسالة تعلو فوق ملابسي:

- إلى صامويل لم أخسر الحرب بل كسبت غنيمة بشرية تخدمني أنا ميشل فرونسوا وآل العم سام وأتلذذ بتعذيبها

ازدادت صفارة القطار حدة في صوته، وكأنه يحتج وهو في ذروة غضبه، في وسط القطار جلست أم وابنتها التي أسندت رأسها على صدرها تحفف عنها ثقل الأيام، وتكفكف عنها وطأة الآلام الروحية فراحت تواسيها في مصابها وتحاورها:

- أنا عمدت على اصطحابك إلى عيادة نفسية وعمدت على اصطحابك إلى مقرّ التلفزيون الذي كنت تعملين فيه، آسفة لأنني صرخت في وجهك بنيتي، كنت نجمة المديعات في زمانك أين أنت اليوم بينهن، آسفة بنيتي لأنني أرغمتك على الذهاب إلى النادي الرياضي وصرخت في وجهك ثانية، كنت سباحة محترفة تسابقين أمواج البحر فتنهزم أمامك أين أنت اليوم بين نجحات البحر، ثم اصطحبتك إلى المكتبة العمومية وصرخت عليك، ثالثة مكانك مازال ينتظرك ورفوف الكتب مشتاقة للمسات يديك، والكتب متشبهة لأناملك وعقلك محتاج لأن تديره مجددا بالعلم بنيتي ثم اصطحبتك إلى المطاعم المفضلة لديك وإلى مرافق التسلية التي تحبين قضاء أيام عطلتك فيها، لم... لم الاكثاب بنيتي.

أمسكت الأم رأس ابنتها وقبلتها على جبهتها بجمرة وجعلت عينيها في أعين ابنتها وخاطبتها وفؤادها مذبوح بسيف الحسرة:

- كل الأماكن سعيدة على حالها تبث الحياة فيها لم أنت ميتة؟ لم اخترت الموت وأنت على قيد الحياة؟ أين أنت بين الأحياء؟ كل شيء على حاله إلا أنت ملوثة حياتك ونفسك بلون الكآبة الدليلة المزمنة

ضمّتها إلى صدرها وترجّتها وتوسّلت إليها بصوت خافت يقطعه الدموع:

- عندما بدأت المشي تعثرت مرارا وتكراراً، وكما أنك سقطت مرّات عدّة وكانت سبباً في إصابتك بجروح وندوب كثيرة، بكيت حينها لكن أصررت على المشي مرّة أخرى ولم تعيري للسقوط وجروحه اهتماماً، بل في كلّ مرّة تسقطين فيها تكون عزيمتك في النهوض والسير أكثر، فأصبحت بمدة وجيزة تجرين، بنيتي العيب ليس في الفشل والسقوط العيب في قبول السقوط وعدم النهوض، هيّا فكّي عنك القيود وارم بالحنن إلى الحميم و حلّقي بأجنحتك إلى أعالي جنان الحياة وغرّدي بلحن النّجاح والتفوّق ولا ترضين بما دون النّجوم...

فقلت لها نادين في ابتسامة مصطنعة:

- هذا حلم جميل، ألم تسمعي ماذا قال الطيب؟ يستحيل شفائي، ألمي كبير وجرحي عميق والحياة أكبر مني، ألفتني إلى أيادي الغدر ففتنت في تدميري، الحياة لا تحبني ولا الموت يحبني أيضاً، كلاهما ينبذني فلا الحياة أبهجتنني وأسعدتنني، ولا الموت أخذني إليه حينما حاولت الانتحار مرارا وتكراراً، حتى الموت فشلت في الانتحار كيف لي أن أنجح في الحياة، ربّما صحيح أنّ الحياة لم تكتب للجميع، ربما قدرني أنّ الحياة لم تكتب لي، متى نصل إلى المنزل فأجواء الخارج تزيد من تعاسي وتذكّرني بالآمي

أمسكتها والدتها من كتفها قائلة لها:

- لا، لا فراشتي الجميلة، بلى الحياة كتبت لك، البطولة في الحياة ليست أن يعيش المرء بأوراقها الجيدة، إنّما البطولة في الحياة أن يُحسن المرء عيش الحياة بأوراقها السيئة، وجعل من مأساتها بطولة حقيقية تستحقّ الذكر، ماذا

عساك تروين لأولادك عندما يسألونك عن إنجازاتك في الحياة؟ هل تكتفين بالقول أنك كنت فتاة مدللة والحياة مستقيمة وذات حظ عظيم، أم أنك ستروين لهم كيف ربحت الحرب على تقلبات الحياة وكيف خلصت نفسك من براثنها القذرة؟

التاريخ حبيبي يكتب بمداد المقاومات والحروب والصبر والعزيمة والتخطيط والقوة، التاريخ حبيبي لا يكتب بمداد الحظ والسهولة واليسر والدلال، أنت من تصنعين نفسك وأنت من تصنعين تاريخك إما يكون حافلا بالمقاومات والانتصارات، إما يكون حافلا بالانتكاسات والهزائم والخسران والهوان، أنت حبيبي خسرت المعركة لم تخسري الحرب، اعلمي جاهدة لأن تنتصري وتربجي حربك على الحياة، أثلجي صدرك بالنجاح انتقمي من كل من آذاك بالقول وبالفعل بالازدهار والتطور، اشتغلي على تنمية ذاتك، الناس تحب من هي دونها لا تحب من هي فوقها، انتقمي من أشباه الأصدقاء والأحباب الذين آذك وكوني فوقهم، وانتقمي من كل من شمت فيك وما أكثرهم حبيبي، أنت اليوم وحيدة متروكة لا أحد يسأل عنك، ومن فعل ذلك ليس اطمئنانا عليك إنما اطمئنانا على أنك مازلت في وحل المأساة والمعانات والهوان والخسران، أسكتي هذا الوجد في قلبك وأحمدي نار الحسرة على ماضيك، خططي لأن تفوزي بحرب الحياة، تطلقي من الموت الذي فيك وعودي إلى الحياة بأقصى قواك يد الله معك تحفظك وتصونك، يد الله معك تنصرك ما دمت على الحق وأنت على الحق، حان الوقت لأن تأخذي حَقَّك في الحياة بيدك، لا تنتظري أن يُقدِّم لك على طبق من ذهب، إن لم تجدي الفرص اصنعها بنفسك، افرضي نفسك بعملك واجتهادك واحرصي على ما دون النجوم كوني كبيرة بين

الجمار، انتصري وذوق متعة الانتصار والنجاح والفوز بالحرب، هكذا يكون الشفاء حبيبي، أنت قوية غاليتي فلتكن لديك إرادة الحياة وقولي كما قال الشابي أبو القاسم

إذا الشعب يوما أراد الحياة
ولا بد لليل أن ينجلي
ومن لم يعانقه شوق الحياة
تجر في جوها واندر

تلك الكلمات النابعة من فؤاد الأم لابنتها صبت علي كالماء المنهمر على الأرض وأحياها وأبنت كالأهأ، بعثت في روجي التفاؤل وشدت أزري، تأثرت جدا بموقف الأم وحرصها الشديد على ابنتها، كنت أسمع عن حضن الأم وأرى الأمهات يحضن أولادهن، تمنيت لو حظيت بواحد في حياتي، أشعر أنني بحاجة إلى حضن قوي من أمي لله يمدي ببعض الطاقة للمضي قدما. أمامي كان يجلس رجل في أواخر كهولته، كان متوسط القامة ولا بسمين ولا بنحيف، طفق يحكي للراكبين أمامه رحلاته من العاصمة إلى وهران مشيا على الأقدام إبان الثورة، وفي كل منطقة يمر عليها القطار يسرد قصة وحادثته، كان ممتعا ومشوقا، كان مجتهدا انظم إلى صفوف جبهة التحرير الوطني، وصلنا إلى منطقة قروية سكت قليلا ورفع يديه للسماء وطلب من الركاب أن يتلوا فاتحة الكتاب ترحا على شهداء الوطن، وقال بأنه كان حاضرا حينما استشهد أصدقاءه المجاهدين واضطروا لأن يدفونهم هنا، كانت حرارة السرد متأججة من كلامه، رغم مرور السنوات على تحرير الجزائر لكن لهفة الثورة ومجدها مبينة على كلام المجاهد، وراح الركاب

يصغون إليه بكل حواسهم وشرعوا في سرد قصص آبائهم وأجدادهم وأحيوا
الذاكرة الجماعية عن الثورة المجيدة.

أنا الآن على الأرض في ساحة سانتا كروز، أستمتع بشعر الجوال سابت رايح
المدعو بمحمد أويذير ينشدنا شعرا ويقص علينا أجمل القصص التراثية
الجزائرية التي توارثها عن جده وتعلمها من سي محمد أومحمد ومن إبداعه
الشخصي، هذا الشاعر الجوال يجول أقطار الجزائر ويلقي من بطن شعبها
التراثيات وحوله الناس يستمعون إليه، ها قد تقدم نحوه رجل وطلب منه
أن ينشده قصيدة بلغة فصحي وإلا سيرحل، أوقفه الجوال وأنشده قصيدة
بالفصحي وأخرى بالعامية التي طلبها وزاد عليه أسفروا بالأمازيغية يبدو أنه
من أمازيغ الجزائر، وضرب أمثالا وحكا بالغة الفرنسية كان يبدو عليه
القبول وحب الناس له للطفه وتفانيه في الإلقاء، ومعرفته الواسعة بالموروث
الشعبي، ولما همّ الشاعر الجوال محمد أويذير بالانصراف أوصى الناس حوله
وجمهوره كعادته قائلا:

- ادفوني أينما تمت فكل مكان على أرض بلادي سأشعر بالمنزل

وراح يكتب ماسون رنجير في مفكرته:

- كم هو غني هذا البلد بشعبه وبثورته وبتراثه، إنه عظيم هذا البلد

حان الوقت لألتقي بناصر ومخلوف وسعد هو صديق عبد القادر، سأزور
الآن المناطق السياحية، أنا متحمس كثيرا أمل أن تردوا على اتصلاقي
انشغل بالي.

أقفل ماسون مفكرته بعد أن كتب تاريخ ذلك اليوم والساعة من عام 1983
 بدا على ماسون التعود على أصدقائه الجزائريين، كان يقضي معهم أوقاتا
 ممتعة، واستطاع أن يبني صداقة بينهم كانوا ثلاثة وهو رابعهم يتقاسمون
 البيت سكا وإيجارا، وكان ماسون ينهض في البكور قبل أن تترك الطيور
 أعشاشها لتتأمل حواصلها، ينكب في العمل في مزرعة فلاحية، ليؤمن المال،
 وفي يوم عطلته دفعه الفضول الذي بداخله إلى البحث عن إريك موتتانا،
 قصد العنوان المكتوب على الملف الذي قدّمه له الصحفي عبد القادر،
 وصل إلى المكان المزعوم، كانت صفارات سيارات الإسعاف صادحة
 دخل بين الداخلين وطلب من المضيفة أن يرى إريك موتتانا، واعتذرت
 منه المضيفة:

- المستشفى لا يستقبل الزوار إلا في الساعة الواحدة زوالا أو في السادسة
 مساء، عليك العودة في الساعتين هاتين

فقال لها ماسون في رجفة ووجفة:

- هل إريك هنا؟

- نعم ومن مدة ليست بالقليلة

خرج ماسون وراح يفكر كيف يبادر إريك أسئلته اللامتناهية وهل هذا
 الشخص كفيل بأن يفك الغموض عنه، بقي ستة ساعات أمام المستشفى
 ينتظر الساعة الواحدة، وما إن بدأ توافد الزوار إلى المستشفى خلف نفسه
 وجزعت روحه وقال في نفسه:

- ماسون ما الذي أتى بك

وتذكر قول أخيه باتريك فرونسوا:

- كفك أسئلة غبية أسئلة كيفية، كيف لك ترك الحاضر وطول الحياة وعرضها وتريد أن تبش القبور؟

توتر كبير لبس بماسون رنجير، تنهد وتغلب على ارتبائه ودخل سائلا عن غرفة إريك موتانا، صعد الدرج ونفسه بين لوامة ومطمئنة رجل واحدة تقوده بسرعة وتحديثه نفسه المطمئنة اركض برجله واكشف الغطاء عن المستور، ورجل تبطئه وتعود بخطواته المهتزة إلى الورا وتقول له نفسه اللوامة ادفن شكوكك في مقبرة النسيان وعد إلى بلدك وأهلك، لكن رجله الراكض كان السباق والراح وصل إلى الغرفة كان باب الغرفة مفتوحا ألقى نضرة فرأى عجوزا كسيحا غطى جلده المنكش الشاحب عظامه النخرة، وروحه تكاد تخرج من قطرات المصل الموصول له، لم يدق ماسون الباب واقترب إلى إريك موتانا حمل صورة إريك التي تجعه بوالده وراح يقارن بين إريك الذي في الصورة وإريك القعيد في سرير المستشفى، تلثم هذا الأخير وقال له وهو يتلثم:

- ماذا تريد من أنت؟

أراه ماسون رنجير الصورة وقال له:

- أنا ابن صديقك ميشل فرونسوا أتذكر؟

في ثبات وعزم قال له إريك موتانا متلثما:

- ماسون رنجير حارس الغابة وبناء ميشل

فقال له إريك مونتانا:

- ماذا تريد؟ ما الذي جاء بك؟

- جئت لأستعيد الغابة ولأسترجع الحكم والكرسي على القلعة المبنية

دخل الطبيب ليتفقد صحة إريك، تفاجأ من وجود ماسون رنجير فأردف قائلاً:

- غريب منذ زمن كان إريك مونتانا مقعدا هنا في المستشفى لم نرى زائرا عنده، أنت ابنه:

فقال إريك بصوت متلعثم يتخلله الضحك المتهمك

- هو غنيمة بشرية ابن صديقي ميشل وابنا بحضرة الرب والقسيس هاهاها

ناقش ماسون الطبيب عن حالة إريك الصحية في خضم المناقشة سعل إريك سعالا حادا، وبدأ يهذي في الكلام مشيرا بيده إلى السقف:

- هناك في الأعلى صورة ميشل فرونسا وموريس، وشارل، وسنتياغو والكثير من الجنود وهناك صورتي

شرح الطبيب لماسون حالة إريك وقال له أنه يعاني من الزهايمر، ذاكرته في الفترة الآتية ضعيفة ويتذكر ما عاشه في القديم، غادر الطبيب الغرفة وترك إريك بمعية ماسون، راح يسأله عن الفترة التي عاشها مع والده إبان الحرب كونه زميل لوالده في وزارة الحربية وكان نقيبا على إحدى الثكنات الحربية

بالعاصمة، وما كان من إيريك إلا الجواب بسؤال ماذا؟ ماذا؟ ماذا؟ ثم غفي نوما، غادر ماسون رنجير المستشفى والغضب نال منه لأنه لم يتلقى الأجوبة من إريك موتانا التي تسدل الستار عن تساؤلاته، التقى بزميله الجديد في السكن محمد طالب علم، سميات الصلاح والتسامح والإحسان بادية في وجهه، قصدا شاطئ البحر وقصّ عليه قصّته، هوّن عليه ونصحه بالترتيب وإعادة ترتيب تفكيره:

- أتغضب من كلام عجوز في الغابرين، كيف لك أن تسأل عجوزا أكل عليه الدهر وشرب، عجوز هرم وخرق لا يعرف أي أرض تحمله أيامه معدودة ويلتحق بالسماء عليه وعلى أصحابه غضب الله ممن أساء وتجر وطمس وهتك الجزائر

تهند ماسون تنهيدة طويلة تكاد تحترق أمواج البحر العالية ودعا:

- أيها الرب كن معي، سأفقد صوابي

ثم قال له محمد:

- هون عليك، فلتعش حياتك ببساطة

جالت قريحة ماسون من قول محمد وقال له:

- إنّ امرئ لا يعرف تاريخه الحقيقي وتاريخ والده الحقيقي واكتفى بما يلفقه قومه من تحريف وتكذيب سيكرر مآسيه وسينخدع كل مرة لأنه بذاكرة مزيفة

سكت وعبس وجهه وأردف القول:

- إن والدي نقيب جبار أكثر في هذه الأرض الفساد لم يبتلع خروجه من الجزائر، أراه وإخوتي يكيدون للتاريخ بقذارة ويعكرون أحداثه ويدنسونه أعلامه أشم رائحة الفحم المحترق، كان والدي شريرا يلومني على خسارته الحرب، ويزعم أنني وجه نحس كان دائما يقوا لي:

- أنت وجه نحس منذ خلقك اشتدت الحرب وتوالت الخسائر على فرنسا حتى منيت بالهزيمة النكراء الكبرى، وأمي تنصت مني كانت ترمقني بنظرات الاحتقار وترفض وجودي بينهم، أقسم لك أنها لم تحاورني قط وتخشى وجودها أمامي، أي أم هذه... لقد فرقوني عن إخوتي، حتى إخوتي لا يطيقون رؤيتي كانوا أكبر مني بأعوام كثيرة

كانت صخور الشاطئ تصدّ أمواج البحر العاتية التي ترتطم بها فامتزج صوت الأمواج وصوت ارتطامها بالصخور بصوت الذكريات الغابرة في عقل ماسون رنجير، كان صوت التمر على ماسون كان والده يضحك عائلته وأقاربه به ويقول له والحسرة والحقد تتأبجان منه:

- انظروا إليه ألا يشبه أبناء الفلاحة ضحك عمه ليونير وقال:

- أخي هناك أربعين شبا للإنسان في بقاع الأرض، وماسون هذا يشبه أربعين جزائريا، إنه يشبه علي هاهاها، كان يجب أن تسميه اسما يوافق ملامحه، اسما جزائريا

قهقهه ميشل فرونسوا ضحكا حتى سقط أرضا من شدة الضحك ونادى
ماسون رنجير:

- دزيري، اسمك من الآن وصاعدا (دزيري)

ضحك الجميع حد الإهلاس، وأنته أخته الصغرى تحمل في قلبها الصغير شفقة
الطفولة، نهرتها والدتها وأبعدتها عنه.

طلب محمد من ماسون أن يعودا إلى المنزل وناداه بالرومي:

- أيها الرومي ارم تفكيرك وذكرياتك في هذا البحر ودع الأمواج تغرقها في
باطن البحر، ودعك من القلق عش تفاصيل أيامك واجعل الحاضر نصب
عينيك، فنعد للهزل الجو بارد هنا ستمطر في أي لحظة

ابتسم ماسون تهكما في حاله:

- في ديارى وقومي ينعونى بالدزيرى، وهنا تنعونى بالرومي، أي حظ
هذا؟ من يسمع بألقابى هذه سيتساءل ابن من أكون وسيصعب على الشرح
له

قاطعته محمد قائلا:

- لست مضطرا لشرح أي شيء، أنت ابن الحياة أنت هبة الله وخليفته في
الأرض، أنت ابن الإنسان

بصوت خافت رد عليه ماسون رنجير:

- يا ليت شكوكي التي تُعشش في أعماقي لا تُجبر عقلي على الشرح لنفسى

زيارة إلى الحبس

عاد ماسون رنجير ومحمد إلى المنزل وجدا ناصر جالسا على عتبة المنزل
منكسر الخاطر سألاه مستغربين:

- لماذا عدت بهذه السرعة من العاصمة؟ كان يجدر بك أن تلبث عدة أيام
ما الذي غير رأيك

فأجابهم بصوت خافت منهزم:

- صديقي عبد القادر

فقال له محمد:

- ماله عبد القادر؟

فرد عليه ناصر بشق الأنف:

- كنت أتساءل دائما ترى أين هو الصحفي عبد القادر؟ لقد اختفى في
نفس اليوم الذي مات فيه الفنان سليمان عازم في 28 يناير 1983، كان
ذلك اليوم الأخير الذي تواصلت معه، كان يدوا عليه الحزن والتأثر، لأنه

كان من أحب الفنانين إليه، قال لي سأكتب مقالا طويلا عن هذا الفنان أخذ مسيرته الفنية وأنشرها في كل الجرائد، بعدها تبخر عبد القادر ولم يُعثر عليه أثر، ولم أقرأ مقاله حول مسيرة سليمان عازم، لم ينشر المقال لأنه اختفى قبل كتابته للهقال، وقد اختفى اسمه من كل الجرائد، كنت جدُّ قلق عليه، ما يعز في نفسي أنني لم أكلف نفسي في البحث والتحري عنه كل هذه الشهور الماضية...

فقال له ماسون ومحمد بذعر:

- هل مات؟

فقال لهما:

- إنه في السَّجن

تنفس الصعداء ماسون رنجير ومحمد وحمدا الله، فقال لهما ناصر:

- أعلى السجن تحمدان الله

- السجن أقل شرا من الموت

نظر إليهما ناصر واستنكر قولهما:

- السجن بئس التزل، وشر مكانا وأكل قوله، سقسوا المحرب ولا تسقسوا الطيب

في فترة وجيزة اتجه ماسون رنجير نحو الجزائر العاصمة، قصد السجن الذي سجن به عبد القادر قابله وناقشا سبب سجنه:

- لم أكن أنتظر زيارتك لي

- ما كان عليك أن تُقحم نفسك بقضية حساسة كهذه؟

- أنا صحفي جريء، أنا صوت الأمة أنا صوت الشعب، أنا صوت الهوية والانتماء، أنا صوت الثقافة والسياسة أنا صوت الحياة

- أحيانا الجرأة تنقلب على صاحبها بما لا يُحمد عقباه، أنظر إلى ما ألت إليه، لقد وضعت نفسك بين المجرمين والسارقين وأصحاب الجنایات

- أنا معتقل رأي، شتان بين صحفي ومجرم، أنا شريف ما فعلته أنني حررت مقالات حول أحداث 1982 كتبت مقالات صحفية عن مطالبة أمازيغ الجزائر بالاعتراف بلغتهم تفاجأت بأصابع الاتهام تهمني بإثارة الفوضى والتحريض على الشعب والمساس بالوحدة الوطنية، أنا أؤمن بأن الجزائر واحدة وأعتز بإسلامها وعروبتهما وأفتخر بالأمازيغ والشاوية والترغية والصحراوية، لن أسعى يوما لتفريق هذا الشعب العظيم باختلاف لغته ولهجاته الذي وضع يدا واحدة وأقسم على كلمة واحدة "تحيا الجزائر" وعقدوا العزم على التحرير والاستقلال، كيف لي أن أسعى للإثارة البلبلة وزرع الشقاق في أبناء الشعب الواحد اختلافنا هو ثراء لهوياتنا هو ثراء لعاداتنا وتقاليدنا هو ثراء لثقافتنا المختلفة.

انتهى وقت الزيارة وخرج ماسون من السجن وقلبه متقطع على حال الصحفي عبد القادر، واتباه الأسي والقلق مما يجري في البلاد، ابتعد عن السجن قليلا ثم تناول مفكرته يُوثق فيها يومه كعادته نَحَطَّ فيها تجربته لزيارة السجن وقاطنيها:

- في صباح اليوم كل اهتدى إلى وجهة يرسي على منصتها ما يخدم صلاحه ومشاغله، وكذلك كان الحال بي فأسريت بنفسي وعرجت بها إلى مكان هو أكثر البقاع شرا، يتعوذ منه الأنام، ويهابه الجبابرة والطغاة، ويغص بصره المار بجواره من شدة رهبته فتراه كالصافات الجياد سرعة لاجتياز حدوده ويحذر من السير على ظله الطويل، ولا يقترب من حدوده، ويحرص المرء أيما حرص أن لا يكون من المغضوب عليهم كي لا يُزج في برائته الوعرة، حيث الفجر يرفع جفونه أين تلوّح الشمس برموشها الطويلة سوادا بدل الضياء في عيون قاطنيه، كيف لا وهم من صُفدوا بأغلال العقاب عليهم آثاما وأوزارا جُنُونا من سوء السبيل حنظل الجنایات وأصبح بنان الشبهات يُشار إليهم، ومنهم من الصّحايا كباش فداء.

ولأنّ لسان قلبي ينطق بكل ما مررت به خيرا كان أو شرا على مفكرتي لا بد أن أسمع قارئ مفكرتي صوت اليوم، ولأنّ القدر ساقني لأكون ضيفا لهذا المكان أزور صديقا لي.

ما إن دست عتبة السجن المصنّف من أكبر سجون الوطن، سرق ناظري أسطول السيّارات المركونة أمامه منتظرين وقت الزيارة بلهفة وحرقة آتين من كلّ فج عميق، قاطعين آلاف الأميال. أسوار ضخمة عالية من بعدها أسوار تعلوها أغلفة سياج من حديد ملفوفة مدبّبة بأسلاك ودُسُر فيها بأس شديد، وإنّ لمفاتيح أبوابه الموصدة لتنوء بالعصبة أولى القوّة، حراسة مشدّدة وجنود مجنّدة تطوف حول المكان ذهابا وجيئة، جيئة وذهابا، أعين كاميرات المراقبة لا ترمش أبدا، فهي تلفّ كامل السجن لقا داخلا وخارجا، وإنّها لتلتقط نسمات الهواء الساقطة على كلّ رقعة فيه، وإنّ الزائر

له ولو لثواني معدودات لتختنق روحه وتضيق به الأرض بما رحبت كأنما يصعد في السماء.

وفي خضم الحديث مع إدارة السجن واستجوابها المطول لي عن سبب زيارة الصحفي عبد القادر صبّ في أذني صوت قويّ لدقّ الجرس، كان لي حظ في سماع أصوات أناس لعلهم التّزلاء تعلوا وتخفض الأصوات المختلطة والمتناثرة كأنما هي أصوات الطّير التي تصدرها عند الإفراج عنها من قفص الشّتاء القارص، ترحيبا وتهليلا بالرّبيع وما يحمله من حرّية وخضرة، يبدوا أنّها المتنفّس فترة استراحة وخروج لهم لفناء المؤسّسة، كانت نفسي تُحدّثني آنذاك فتقول:

- لاشكّ أنّ لكل صوت ها هنا قصّة تُحكى ورواية تُروى، لاشكّ أنّ الكثير نذر صوما عن الكلام فلا يُسمع له سرد ولا صوت بين الأصوات ولا هو يأذن لصدى صوته بالسّفَر والعثق من الكتم، لاشكّ أنّ فناء المؤسّسة لم تكتمل بعدد التّزلاء ففهم في أوكار الزّنازين والمنفردة قابعون، لا بدّ أنّ الأيام ها هنا تُحسب بالدّقائِق استعدادا للخروج لمن تبقى له شهورا أو أقلّ فيرجع الأمل يصبّ إليه كما يصبّ الغيث في الفيافي القاحلات، وترى ذاك الذي تبقى مدته السّنون الطّوال يقاسي وطأة الليالي، وذاك الذي حكم عليه بالمؤبّد يتقلّب من فقد الأمل ولقيد الحياة لم يعد يبالي.

وسرعان ما هممت بالخروج من السجن بعد رؤيتي لصديقي، اتّضحت لي صورا كثيرة لوجوه الأطياف المكتظّة من وراء جدرِ السّجن التي آنتها قبلا من بعيد في طريق مجيئي، يا لها من وجوه تعيسة لم تستطع إضمار الحزن والبتّ الشّديدين اللّذين يقطران من تلك الوجوه الشّاحبة قطرا، أنفاسهم

متعبة من شدة قسوة الفراق وغياب أحببهم، أفقدتهم صارت فارغة أرواحهم تتلوى ألماً.

طيف صغير واقف على قارعة الباب يبكي كثير الحركة وشديد الإلحاح في طلبه، إنه طفل لم يبلغ الخامسة من عمره بعد، يشدّ طيفاً آخر من طرفه كان هذا والدته حاملة بيدها طفلة ذات ثلاث سنوات يبكي ويقول لأمّه:

- أن أرى والدي اليوم؟ هل ستتركونني هنا في الخارج؟

فتردّ عليه المغلوبة على أمرها فتقول:

- أنت رأيت منذ عام ونصف، الآن دور أختك فهي لم ترى والدها قطّ ولا هو رآها، لما دخل السجن لم تولد بعد...

ومثل حالها الكثير هناك، لاحظت طيف آخر هزيل الجسم متقوس الظهر وهنّ العظم منه بلغ من الكبر عتياً حاملاً قفة تقليدية يبدو أنّ ما فيها بعضاً من الأكل الذي اشتهاه طالبه، بالكاد استطاع حملها مناشدا الأطياف الأخرى أن تساعده في حملها، بشق الأنف تسحره رجلاه بوضع خطوات مائلة من أثر الكبر والعجز، وفي يده عصاه يتوكأ عليها ومعونة لرجله المتعرجة، تأملت ملياً في الطيف وكلما اقترب يتبين لي ملامحه أكثر، كان ذلك والدة أحد النزلاء تنفجر الحسرة من شعاب تجاعيد وجهها التي حفر عليها الزمان أحداثه، مستشهدا بثيابها البالية ولحاف رأسها العتيق المنتوف، ويدها الضعيفتان من الرقة والعلّة تحدّدت فيها خيوط الشرايين الخضراء تحت جلدها المنكمش واللّتان تهتران لا إرادياً بفعل المرض، باسطة نفسها على أرضية خارج السجن من عدم تجلّ الوقوف ورأسها يلتفت يمينا وشمالا

باحثا عن شيء مفقود، تعيش آخر عمرها موجوعة على فلذة كبدها القابع خلف قبضان السجن...

أطياف كثيرة من مختلف الأعمار ومن كلا الجنسين منها من بلغ عمره أياما وسنين ومنهم من أشعل الدهر في رأسه شيبا، وجوهها أفل عنها التبسم من زمن، قلوبها مكروبة وأبصارها شاخصة بأذان خاشعة نحو أبواب السجن تترقب سماع حكم الإغفاء أو لحظة الإفراج...

طيف بعيد جدا عزل نفسه عن بقية الأطياف يظهر تارة ويختفي تارة أخرى، يرتفع مرة إلى السماء وينخفض إلى الأرض مرة أخرى، سار به العمر إلى أرذله، كان على فراش الاحتضار، فلوح أحد الأطياف إليه:

- انظروا قد عاد الشيخ الكبير يتحسس من روح ابنه

فردّ عليه آخر:

- ذاك الشيخ قد مات منذ سنين غابرة أقعده المرض والكبر وحل أجله دون أن يمرق وجه ابنه، فعادت روحه التي تنتظر لحظة اللقاء بولدها.

ورأيت أطيافا في موكب طويل لا يبدا عليهم البهجة والسرور، تعجبت لحضور الموكب إلى السجن، دنت قليلا إليه فاتضح لي أن هذا موكب عرس، تلتطخت زينة السيارات بأمطار السنين ووحل الشتاء وغبار الفصول المتعاقبة عليه، في مقدمته طيف بأقدام حافية وفتان ليس بأبيض ويرح أنه فقد نضاعة بياضه إثر عوامل عدة، كأنه يشبه العروس، شعرها ملقى على أكفائها بشكل عشوائي بعد أن فسدت تسريحتها، أكل الصدا التاج على

رأسها، وتناثرت أوراق الأزهار الذابلة من الباقة القديمة التي تمسكها بكتلتا يديها، كانت هي العروس ليس شبهها، نصبت وجهها الذابل الذي لم يبدو عليه فرحة العمر نحو الأرض مغمضة العينين تأبى أن تفتحهما قبل خروج خطيبها من السجن وتستكمل فرحتها وتم زواجها.

ترأى لي طيف ذو وجه مألوف لا أتذكر أين رأيته، لكنني متأكدة من أنني أعرفه، همس الناس هناك وراح يشار إليه فلان بن فلان، إنه الفكاهي المشهور على التلفاز وأكثر متابعة، ماذا يفعل هذا هنا؟ ربما أتى ليزيل بعض الغم عن السجناء بفكاهته؟ حتى ولو كان كذلك أيعقل أن يصطف في صفوف الزوار وينتظر في الخارج؟ ستكون له البطاقة الخضراء للمرور لتأدية مهامه، لكن ما بال هذا السيد واقف على الزاوية والقلق يتملكه ويعيد كلاما متقطعا من أثر التوتّر وهو الذي يُلقى محاضرات في فن الإلقاء وطلاقة اللسان، ويلقي الفكاهة ويوزع الضحكات، لم يأبه لمن حوله من ناس وكلام. لم يقصد السيد المشهور السجن اليوم لتأدية مهامه، إنما كان زائرا لأحد أقربائه دما ولحما فتلعم الحديث بين ثنايا خطابه.

وذاك طيف أجنبيّ خرج لتوّه من بوابة السجن المظلم كان في عمر الزهور لم يطق تدفقّ النور إلى عينيه فطفق يرمش بكثرة، فيغلق عينيه هنيهة حاطاً يده عليهما ويعيد فتحهما فداهمه صداع في الرأس بالكاد استطاع تداركه، كان توقعه في محله لم يحظر أحد لاستقباله، فراح يسأل المارة بعضا من المال لشراء تذكرة عودة إلى دياره البعيدة، مثبتا عدم حوزته على المال بوثيقة خروجه للتو من السجن ومبيناً أثر الأحمر العالق على بصمات أصابع يديه. شتان بين استجابة المارة فمنهم من هرول مسرعا هروبا وتعوّذا منه، ومنهم

من بلغ بهم أعلى مراتب الإنسانية فصالحه بقوة أيدي الترحيب إلى عهد جديد من الصّلاح والفلاح، فكان الكرم له وصاحب جود... كان ذلك نزילה في أوّل شبابه انقضت مدّة عقابه، حيرة كبيرة تملكته وأسئلة تغلي في ذهنه أنّى له الخوض في الحياة مجدداً؟ وأيّ منارة آمنة يرسي عليها سفن دربه؟ وانقبضت روحه يتساءل ما حال المجتمع؟ أيعيد إدماجه ويتقبّله القبول الحسن بعد الصّلاح ويغمره في أحضانه؟... وكمدت عيناه لما أرست في عقله مشكلة تتبعه إلى آخريوم من حياته أنّى له أن يوارى سوء عمله إذ ما ذكره غيره بها؟ أخرج يده من نافذة القطار الذي يقلّه يتحسّس من عبق الحرّية مداعبا بأطراف أصابعه الهواء تغزلا بالطبيعة والسّماء من جديد.

في الوقت الذي كسر صوت الإنذار لسيّارة الحماية المدنية وصوت سيارة الإسعاف والدرك الوطني اللّائي اصطفين دخولا إلى السّجن تحتّمها سيارات الشّرطة وسط ذهول الأطياف ما الذي حدث يا ترى ما الذي حصل هناك بالداخل؟ وصور الرّعب وملكة الخيال في أوجها تفترض أحداثا كثيرة في العقول، مرّ وقت لا بأس به إذ بالسيّارات تعلوا بصوت الإنذار من جديد فتخرج وحوها رجال السّجن من العمّال عرجت الأطياف تبعد نفسها إلى حافتي السّاحة الخارجيّة ليتسنى للسيّارات المرور، وفضول المعرفة بالحدث في أوجه، تسرّب إلى أذن أحد الأطياف بالحادثة فانتشرت بينهم كما تنتشر السنّة النّار في المهشم، واقشعرت أبدانهم من هول ما حدث، فراحت وجدان الشّفقة ومشاعر الحزن تحظر في نفوسهم والوجل والخوف من مصير ذويهم في الدّاخل باد عليهم. مرّت السيّارات تبين داخل سيّارة الإسعاف طيف ملفوف بقماش أبيض داخل نعشه كان

ذلك أحد النزلاء لم تسعه الحياة ليقضي كامل عقوبته لقي نجبه وسرقته المنية وأدخلته أرض الفناء إلى مأواه الأخير قبل أن يخرج إلى أرض الحرية، ولم يكتفي النزلاء في داخل السجن بدقيقة صمت بل كان الوقت كله صمتا وحزنا على زميلهم، يبدو أنهم لم يستوعبوا ما حدث، وكانت الرهبة تملّكهم في أن ينالوا نفس المصير، فسدت أفواههم عن الكلم ونفوسهم عن التعبير ولازمهم التهد الطويل.

في رصيف غرف السجن لجأ فريق من النزلاء يستغيثون ربّ السجن:

- أخرجنا منه فإن عدنا فإننا ظالمون

وفريق آخر يدّ عليهم:

- اخرجوا أتم فإننا ها هنا قاعدون، ولحيم السجن هذا اخترناه وفضلناه على جنة الحرية ما دامت دوائر الشر متربّصة بنا ها هناك في الخارج

لم يغادر ماسون رنجير العاصمة إلا بعد أن تم الإفراج عن عبد القادر بعد محاكمته والذي اكتفى بطلب جريء من وكيل الجمهورية بتلاوة ما جادت به قريحته ورغبته في طرح المواضيع الصحفية بكل حرّيته دون أغلال في حق التعبير:

- دعني أتركني أمر، في من الحديث ما فاضت به قريحتي ولي من الكلام ما بلغ التراق دعني أكتب أتركني أمر، دع كلماتي تجوب المعمورة وأركانها، دع الحروف والمصطلحات تنثر على الوجود مدلولاتها، دعني أكتب لكل البلدان ، أتركني أمر على كل الأوطان، دعني أبلغ سلامي

للأنام وأنقل أصواتها من عيونها وأترجم الوجدان من وجوه شعوبها وأنحت كل رموزها.

ولم يفوت ماسون رنجير التنزه في أحياء العاصمة وشواطئها خلال تواجده هناك، ووقف على مسافة ليست ببعيدة عن القصبة يستذكر فترة عمله في المقهى مشتاقا إلى معارفه هناك، وحنّ إليها وحنّ إلى المطاعم الشعبية والمقاهي التي يُسمع فيها أغاني دحمان الحراشي ومحمد الشيخ العنتي وغيره من الأغاني من مختلف الطبوع في ذات الوقت خرج عمي العربي صاحب المقهى جلس أمام صديقه بودالي فقال له:

- إني أشم ريح ماسون رنجير، يا ترى أين هو الآن؟ إني أحس أنه ليس ببعيد من هنا

فقال له بودالي:

- الدماء ذات العرق الواحد ترتجف وأبناء الرحم الواحد سيجمعهم القدر مرة أخرى، والأحباب سيجتمعون على طاولة القهوة والشاي لا محالة

ثم خلا ماسون بمقام الشهيد في يوم ماطر يهمس في أذنه من جديد:

- سأفك اللغز أيها المقام الجليل، لا أعرف أنت كاره لي وحاقد لي بذنوب آبائي وأوزار أجدادي لكن لا خيار لي، إلا الوقوف أمامك فأنا وأنت بيننا عداوة التاريخ ولكن شربنا من كأس التعذيب والتنكيل، أنت تفهمني أيها المقام لأن الكثير من دماء الشهداء وأبناء الوطن عذبوا بمباركة الحركي والخطئين وبمباركة أبناء جلدتهم وأبناء الوطن المزيفين والخطئين، كذلك أنا

نُكَلت حياتي ممن كان من دمي، ربما أيها المقام السبب واضح للحركي والخونة
على فعلتهم، يبقى السبب مبهما لدي أنا أتساءل في كل لحظة يطلقها الوجود
ما الدافع على عداوة أهلي لي ورفضهم التام لي؟

قَبَل ماسون رنجير مقام الشهيد، وهمس له:

- أنت وأرضك الطيبة ستساعداني على فك اللغز، أليس كذلك؟

من ذاكرة إيريك مونتانا

همّ ماسون رنجير وأصدقاءه بالخروج فقدفه جيرانه بكلام مستفز:

- إنه يوم الأحد، الصلاة في الكنيسة

- الرومي حزين على تحويل كاتدرائية وهران إلى مكتبة، كان من أمنياته أن تبقى معبدا يقصده

- هاهاها الرومي حزين... حزين لأنه خيب ظنه، فقد حُوت أغلب الكنائس إلى مساجد ومدارس

- الرومي حزين ومخيب أمره أتى ليقتنى آثار أسلافه هنا تحت شعار "الجزائر فرنسية"، في أحلامكم لم يحدث ولن يحدث هذا أبدا، فلتعلم أيها الرومي الجزائر للجزائريين، والجزائر جزائرية، وأفريقيا للأفارقة.

- حنا ولاد البهجة، نبغو بلادنا ومانبغوش عديانا

ردّ عليهم سعد:

- أتركوا السيد في حاله

ثار الجيران ودخلوا في سجال مع سعد قائلين:

- الحركي برك هو الي يرضى يعيش مع الرومي

فرد عليهم سعد:

- التمسوا لأخيكم العذر

- هذا ليس أخونا ولن يكون، هذا الرومي ابن فرنسا التي قتلت آباءنا وأجدادنا وشردت عائلاتنا ويقت أبنائنا، واغتصبت أراضينا ونهبتها باسم الحضارة

- نحن نخدرك إن لم تغادر الحي سنضربك بالمروحة ونوصلك إلى وطنك

طلب ماسون رنجير من سعد وأصدقائه أن يكفوا عن محاورتهم

- دعك منهم لا تدعهم يعكروا مزاجنا، نحن في طريقنا إلى عطلة في ولايات غرب الجزائر، لا داع لكل هذا الجدل

فقال له سعد متعجبا من برودة أعصابه:

- لا أفهم كيف لا يتحرك فيك ساكن أمام كل هذا الاستفزاز المتكرر في سائر الأيام

فأردف ناصر قائلا:

- ليس العجب من برودة أعصابه أمام هذا الاستفزاز، العجب والعجاب من أمر ماسون رنجير هو مكوته خمس سنوات بالتمام والكمال يهتم بالقعيد

إريك موتانا صديق والده الظالم، كيف آثرت وقتك يا ماسون وجندت صبرك مدة خمس سنوات ووهبتها من عمرك للاهتمام بهذا السيد القعيد

رد عليه ماسون رنجير:

- إريك موتانا يُذكرني بوالدي، إريك هو إنسان وحيد تركه أولاده ولم يسألوا عنه بعد مغادرتهم الجزائر، هو كان زميل والدي ويده اليمنى في القوات العسكرية، لم يغادر الجزائر نجلا من ولوج فرنسا دون الظفر بالحرب، ورفضاً من قبول فكرة تحرير الجزائر واستقلالها التام، كان يشبه والدي أيم تشابه، كان كالمرآة التي تعكس تصرفاته وطغيانه وجبروته، لكن الكبر والعجز كانا له بالمرصاد، ومقصلة الوحدة تقطع رأس الطمأنينة من روحه في كل ثانية من حياته وحاز الخوف والرهبة على قلبه، كان يُمسك يدي بقواه الضعيفة ويتوسل لي أن أجلس أمامه، كان يتوسل لي أن لا أتركه ويقول كما يقول لي والدي:

- لم يعد لي أحد في الحياة، لما كنت صنديدا ولواء الكل كان تحت طاعتي حتى الذباب لا يجراً على اعتلاء ساحة وجودي، ولا يجراً حتى على إزعاج جنودي الكل يرتعب عند قدومي، وتهتز ركبهم خوفاً مني، لكن اليوم بعد أن خانتني صحته وأقعدني الزمن والكبر حتى الأرض اشتمأزت منه، وأصبحت نسياً منسياً، ويضرب بي المثل بالسقوط المدوي

جعل ماسون رنجير رأسه على الأرض نجلا من قصص الطغيان والفساد في الجزائر التي قصها والده ميشل وإريك:

- كانت قصصا مشتركة بلسانيهما يشيب منها الغراب من بشاعتها وشدة جرمها، مهما نالا من عقاب السماء لن تنسى الجزائر ولن تجف الصحف وتبقى الذاكرة الجماعية تخلد ذلك.

عمدت على كسر وعد إريك مونتانا لنفسه، فقد وعد نفسه ألا يعود إلى فرنسا بعد الهزيمة الشنعاء التي منت بها، وقد عمد على أن يُدفن هنا في الجزائر، لكن كنت محايدا رغم فرنسيتي، وتركت صفة الإنسان والآدمية تقولان كلمتهما:

- اللازم أن لا يدفن إريك مونتانا هنا في الجزائر، لن أسمح لعدو الجزائر أن يضمه ترابه العطر النقي المرتوي من دماء الشهداء، فتواصلت مع أهله كي يتم نقل جثمانه إلى فرنسا كسرا لكلمته ونصرا للحق، نعم كسرا لكلمته وكسرا لجبروته وأن يحمل أوزاره إلى قبره

- فقال محمد وسعد وناصر ومخلوف مفتخرين بموقف ماسون رنجير:

- نراك متشعبا بالروح الجزائرية، نقسم لك لو أننا لا نعرفك بأنك فرنسي الجنسية ما كنا لنصدقك

واصل ماسون كلامه:

- كان والدي واريك يقولان عن أبناء الجزائر في غبطة هم أولاد بارين فلم يريان في فترة وجودهما ابنا رمي والديه المسنين إلى دور العجزة، والدي ألقوه إخواني إلى دار العجزة بعد أن أصيب بالكبر والخرف، فأخرجته واهتممت به، كان يقول لي مناديا بكينيتي التي ألقاها لي في الصغر دزيري:

- الدزيري لا يترك والده المسن، أنت لست كإخوتك ناكري الجميل

ثم تعود به الذاكرة إلى فترة الحرب في الجزائر:

- أبناء الجزائر بارين، لم أبنائي ليسوا كأبنائهم؟ لم يرفضون رؤيتي ويتحججون بالعمل وضيق الوقت؟ ماسون رنجير ناد إخوتك، ماسون...

ثم يعاود مناداتي مجددا:

- دزيري ناد إخوتك

أسأله أحيانا لم يناديني بالدزيري فيسكت، وأحيانا أجب نفسي بتكهنتي، ربما كوني الوحيد الذي لا يقول لا لوالدي ولا أرفض لهم طلب بل كنت كالخادم المطيع لسيده، والوحيد الذي اهتم به في كبره، لهذا أشبه الجزائري البار بوالده المسن، ولا أشبه ذلك الذي يلقي والده في دار المسنين... لا أفهم موقف يتكرر معي عند والدي وعند إريك، في كثير من المرات أمد يدي لمساعدة والدي على النهوض ينهني ويقول لي في خوف ووجهه تصيبه عزة:

- علي ابتعد عني، تريد أن تقتلني، أنا أحمل البندقية سأفرغ الرصاص عليك... أيها العساكر لا تقتلوا علي سأوسعه ضربا

وأحيانا يتخيل نسوة يضربنه بمقامع من حديد ويبيكي ويتألم بشدة، ولما يهدأ أسأله من كُنَّ تلك النسوة فيقول لي هن النسوة التي تجرأت محاولا واغتصابهن أتين لينتقمن مني

غمض إريك موتانا عينيه وبدأ يروي حدثا محرجا لوالدي أمام أحد الجزائريين إبان الحرب:

- علي استنفز والدك وقال له:

- الرجال ليست بالبنادق والمدافع، الرجل لا يوجه سلاحا يُقاتل به رجلا أعزلا، إن كنت رجلا فلتقاتلني بقوة جسدك، تملك ميشل بعض النخوة وأراد الانتقام من رجولته، وطلب من العساكر أن يبعدوا البنادق والأسلحة، لكن علي كان أكثر قوة وقام بتحطيم عظامه كسر رباعيته وسبب له بعاهة مستديمة وندوب على وجهه وسائر جسده، كان ميشل كالفريسة في يد النمر، وكان علي يُمزق لحم ميشل تمزيقا أوسع ضربا كاد ميشل يفقد روحه لو لم يتدخل عساكره وأنقذوا ميشل من موت محقق، ولكن ميشل حذر العساكر من قتل علي وتوعده قاتلا:

- سيكون موعدا قريبا بيننا وسأحشر الناس والدواب وسأقتلع فؤادك وأشرب من دمك وأكل من كبذك وأجعلك مأدبة عشاء لعساكري بيدي هاتين، انكب ميشل على التدريب المكثف، وعاد بعد أن أحس بالقوة لينتقم من كرامته ورجولته، فكان ذلك اليوم مروعا جدا تكاد السموات يقعن وينفطرن من أحداثه وتكاد الأرض تحسف بنفسها ومن فيها

قاطعته وسئلت إريك من يكون علي هذا؟

- أيكون رمزا للمقاومة الجزائرية أو أنه حقد دفين بين رجلين الأول فرنسي والثاني جزائري؟

فأجاب:

- كلاهما وأكثر

- بربك اشرح لي أكثر ما عدت أفهم شيئاً

كل المحاربين الجزائريين كانوا بقوة علي وأكثر، لا يخشون الموت، بل كانوا سابقون إليه من أجل وطنهم، كنا نحن من نعمل الخشية في قلوبنا رغم حملنا للعتاد الحربي

- هل علي هو من فقأ عين والدي ميشل، أكيد هو من فقأ عينه اليمنى وأصبح أعمى بها، سيد إريك أريد مقابلة علي هذا أين هو:

- علي قبض عليه في سفح جبل شاهق بالاستعانة بمروحيات ومظلية مدججة بعساكر كثيرين حاملين الأسلحة، أقتيد إلى ساحة القرية

- إلى القرية؟

- نعم إلى بهو القرية قدام المسجد أين نحشر أهلها في دوراتنا التفتيشية، وعند عمليات التمشيط العسكرية والاستجواب

- أي قرية، وأين هي؟

- قرية من قرى الجزائر النائية، قرية هي قطعة من الجنة من حيث الجمال والسكون، تتوسط سلسلة من جبال البابور الشاخات العالية، تركز الشمس فوقها وتطل بوجهها المبتسم كل يوم وتندفق الأنهار بين البيوت والنسوة يغسلن الثياب في الينابيع الطبيعية، وتنفجر عيون الماء من باطن

أرضها الطيبة ماء شديد العذوبة بارد صيفا ودافئ شتاء، وينحت ماء العيون طرقا وسبلا ومسلكا بين ضفاف الأنهار وبين شجر الصنوبر وشجر الصفصاف الناطح للسحب، وتسقي بهائم القرية ودوابها وغنمها، ويسقى به الزرع فيحيا وينمو المحصول بشكل يعجب الزراع يوم حصاده، وتزين القرية بالثلج الكثيف في أيام الشتاء الباردة ثم تأسر الأنفاس بدرجات خضرتها في الربيع وتأمل بياض الثلج العالق على قمم الجبال العالية التي تحد القرية وترمقها القرى المجاورة كما ترمق الفتيات العروس التي تتوسطهن من شدة جمالها وحسنها، إنها قرية (البير إوهرايان) يسكنها أهالي بسطاء ومتقاربون في الطبقات الاجتماعية منازلهم مبنية من صخور وتراب، سقفهم القش، مأكلهم الشعير والزيت والفول وبعض المحاصيل الزراعية التي يزرعونها بأنفسهم، كما نتهكم عليهم بنعتهم بالفلاحة لأنها قرية ثورية وأحيانا نعت جنودهم بالكافي³ لنحاربهم نفسيا، كما نستعلي عليهم فنحن أبناء المدن والحضارة وهم أبناء البدو والرحالة، كما نستقوي عليهم وكل الجزائريين ونسلمهم مالهم وأنعامهم وممتلكاتهم هاهاها

- وأين تقع هذه القرية؟

- هي قرية يُقال عنهم أنهم من مهاجري هذه المدينة الكبيرة، أصلهم من وهران، يُقال أنهم هاجرو بسبب الحملات الاستعمارية قبل مئات السنين

³ - مصطلح أطلقه المستعمر الفرنسي على الجزائريين ممن يقطنون الكهوف ممن هرب من المدينة إلى القرى واستوطن الجبال

قبل الغزو الفرنسي حتى، وجدوا في هذه القرية الأيمن والأمان والماء فسكنوها وورثوها، وحملوا أصلهم وفصلهم في اسمها (البير إوهرايان)

- تعني أن إوهرايان نسبة إلى مدينة وهران

- تماما، سكانها الأوائل من أصل وهران أطلقوا تسمية البير كون المنطقة تفيض بالماء، فتسنى لهم حفر وتشيد آبار ماء والبئر باللغة العربية والبير بلغة المنطقة لغة الأمازيغ ونصبوا كلمة إوهرايان على اسم المنطقة نسبة لأصلهم ونسبهم الذي يعود إلى مدينة وهران

- وما مصير علي؟

- ما الذي يهكم بعلي؟

- هل قرية البير إوهرايان قريبة من هنا؟ من أي مدينة يا ترى؟

- ما الفائدة التي ستجنيها من معرفتك موقع القرية؟ ماسون ابني أنا أتعذب من الماضي ولم أذق السلام منذ فترة بعيدة أريد أن أغادر من هذا العالم بسلام، الماضي اللعين وذكرياته يلاحقاني كالكلبوس، أو أشد، ماسون ابني اترك السلام يسير في روحك عش الحاضر ودعك من الماضي الأليم، لا تهدر حاضرك ومستقبلك عد إلى بلدك وتمم حياتك بما قدرته السماء لك ارض بقدرك ولا تنبش القبور، لا تنبش القبور بني ستألم كثيرا وستجرح روحك وستكره من حولك وسيشفح قلبك ويصبح كالجمر البارد بعد أن أفلت النار منها، وستدهسه الذاكرة الأليمة وترده كالرماد الأسود المنتشر وستصبح جسدا بلا روح بعدها تفكر في الانتقام والثأر وتحول إلى وحش

كاسر وتحول إلى نار هوجاء تُحرق اليباس والأخضر، وتُصبح عاصفة هوجاء فيها إعصار تدمر المدينة والبرية انس يا ولدي انس الماضي وعش حاضرِك وأنقذ ما تبقى من نفسك ولا تدع براثن الذاكرة تفتك بك

- أنا لا أنسى ولن أنسى، وأريد أن أتذكر وأتحرى عن التاريخ الذي يخص والدي وأعرفه وأعرف الذاكرة التي أرخت لوالدي ميشل فرونسوا وأرخ لكل من صادف، أريد الذاكرة المنسية التي أرخت لي بدون أن أذكر، أريد الذاكرة المدفونة في قبر منسي سألحيتها وسأسكت النار التي أوقد الزمان ألسنتها في روجي منذ زمن بعيد

- اسمع مني يا بني وخذ بنصيحة رجل طاعن في السن ونادم على ذاكرته

- رجاء قل لي أين تقع قرية البير إوهرايان؟

- تقع في مدينة ساحرة الجمال تحرسها بما قورايا، إنها من قرى بجاية بديعة الجمال على الحدود مع مدينة سطيف تبعد من وهران مئات الكيلومترات

- علي ما مآله؟

- وما المهم بعلي؟

- هو خصم أبي ميشل أريد مقابله، أريد أن أعرف لم يكن والدي الحقد الفظيع له ولم لم يسقط من لسانه؟ ولم يبلغ في ترديده في أواخر مماته؟ ولم ينتابه الخوف منه أحيانا؟

- يستحيل أن تقابله

- لم يستحيل، لا يوجد مستحيل في قاموسي؟

- علي قُتل رميا بالرصاص الحي في نفس اليوم الذي قبض عليه، ربطوا أيديه وأرجله وسيق زحفا إلى قريته، كان والدك ميشل فرونسوا يحذر جنوده من أن يقتلوه، ويصرخ عليهم لا تقتلوه لا تقتلوه أيها الأوغاد الأغبياء، كنت أنا حاملا لسلاحي وحزام الرصاص يلف خصري، أضرب هذا وأبصق على ذاك وأستقوي على النساء لما كان والدك يجلس على كرسي حديدي وضع رجله على رجله يدخن من غيوانه، خاطب ميشل علي باستحار وقال له أنه التقطه كما يلتقط الفأر ونعته بالفلاقة والمجرم وكل نعوت السب والشتم، وعلي لم يتأثر بانتزاع جلدة جسمه وخدشه الشديد وتبلله بدمائه كأنه فقد حاسة الشعور بالألم، بصق علي على وجه ميشل واستفزه مجددا بقوله لو كنت رجلا لكنت التقطني كما يلتقط الرجل الحر وكما يلتقط النسر سمكه في عرض البحر وكما يلتقط الأسد غزاله، دون الاستعانة بكلابك المدبجة والكثيرة، أنت مجرد خنزير وسخ، أنت تصلح أن تكون ضابطا لقنوات صرف المياه في بلدك، أحس ميشل بالذل والإهانة واثارت ثأثرته فتوجه إلى زوجة علي يريد أن يغتصبها أمامه...

- ثم، ثم ماذا؟ سيد إريك ما الذي حصل؟ أرجوك أكل ما الذي حصل بعدها؟

نظر إريك إليّ... فتقطعت أنفاسه وتضاربت دقات قلبه فهدأت من روعه واستدعيتُ الطبيب على عجالة، اتابته نوبة عصبية حادة أدخلته في غيبوبة كانت البوابة التي مر منها إلى العالم الآخر فأعلن الطبيب خبر وفاته.

طلب أصدقائه أن يُكمل ما الذي حدث لوالده ليشل وعلّي وزوجته فتأسف
ماسون رنجير في حسرة:

- أسفي شديد وحسرتي كبيرة لأن إريك موتانا مات قبل أن يُكمل لي
الحادثة

فطلب منه صديقيه أن ينسى الأمر خلال عطلتهما في ولايات الغرب، بعد
أن قضوا أوقات ممتعة في شواطئ البحر عادوا إلى وهران، تلقى ماسون
طردا من محامي يطلب رؤيته بسرعة، ذهب ماسون إلى مكتب المحامي،
فقال له المحامي:

- أنت ذو حظ عظيم

تعجب ماسون وأنته الضحكة وشكك في حظه قائلاً للمحامي

- إذا كنت تبحث عن شخص صاحب حظ عظيم فأنت من المؤكد بعثت
وراء الشخص الخطأ

فقرأ المحامي اسم الشخص:

- ماسون رنجير، ووثائق تدل أنك أنت هو ماسون رنجير بشحمه ولحمه،
مبارك لك هذه الثروة الكبيرة الشقة المطلة على البحر

فقال له ماسون متعجبا:

- لحظة من فظلك، أنت تهذي أم ماذا صاحب حظ عظيم، ثروة وشقة لم
أفهم شيئا

فقال له المحامي:

- إريك موتانا كتب كل أملاكه التي يمتلكها هنا في الجزائر باسمك عرفانا
وشكرا لك وردا بجميلك، مبارك لك سيد ماسون رنجير

بين عائلتين

دعا ماسون أصدقائه للعيش معه في الشقة التي ورثها من إريك مونتانا، سأله أصدقائه عن عدم توفقه في العمل في المزرعة رغم أنه يمتلك ثروة فقال لهما:

- تلك المزرعة جعلتني أنشئت بهذه الأرض الطيبة ومن خلالها سافرت إلى عدة ولايات تنقل البضائع وتتاجر بالغنم، مكنتني المزرعة من استكشاف الكثير من تقاليد الولايات والتعرف على الجزائر، من خلال هذه الرحلات أدركت سبب تشبث فرنسا بالجزائر وغيرها من قبل، أنا مدين لسي راجح إنسان طيب صاحب المزرعة إنه إنسان يعيش على ذكرى زوجته فقد عائلته في الأصنام في الشلف تزوج من شلف كانت زوجته وأولاده في زيارة إلى المدينة فشاءت الأقدار أن يموتوا في الزلزال المدمر، وقتها بقي وفيها لزوجته وأولاده ولم يتزوج بعدها واستثمر حياته في العمل وفي مزرعته، قُرب شهر أكتوبر على الأرجح هو الآن يتهباً لصدقات مُدتها شهر كامل، يطبخ أشهى وألذ الأكلات التي كانت تُحبها زوجته ويُحبها أولاده ويتصدق بما طابت به مزرعته من زرع وغنم على روح عائلته التي فقدها في العاشر

من أكتوبر 1980 في زلزال الأبنام، سي راج رجل حزين جدا يحكي
بتأنيب ضمير ويجلد نفسه في كل لحظة ويقول لنفسه لأثما:

- لو لم أسمح لزوجتي وأولادي بالذهاب إلى الشلف لنجو من الزلزال، لو
وصلت مبكرا بعد الزلزال المدمر لكنت ربما أخرجتهم من تحت الأنقاض
قبل أن يسرقهم الموت.

فقال له سعد:

- كان زلزالا مدمرا أيقظ الجزائر على فاجعة لطخت الذاكرة بدماء القتلى،
عليه بالصبر، يا ترى كيف سيكون أكتوبر هذا العام

قال مخلوف وناصر مازحين:

- إذن سيكون مأكلنا ومشربنا مدفوع الأجر من السيد كيف اسمه صاحب
المزرعة هذا

فقال له ماسون:

- اسمه سي راج

- فردّ سعد عليهما مأخذا بمثل قائلا:

- مصائب قوم عند قوم فوائد، ألا تستحيان من الاستهزاء والجري نحو
منفعتك الخاصة باستغلال مآسي الناس وتقفي الغنائم من مصيبتهم

حاول ناصر أن يشرح لسعد الأمر فقال:

- لا تُسئ فهمي، لم نقصد الاستهزاء بمأساته إنما قلت أن السيد سيتصدق خلال كامل الشهر، ولا حرج إن أخذنا بعضاً من الصدقات لنا عمّ الصمت بين الأصدقاء أردف مخلوف قائلاً:

- هيا افركوا جباهكم وأطلقوا ابتساماتكم، لسنا بمأتم لم كل الغضب هذا؟
ولسنا بحاجة إلى صدقات السيد راجح، لأنني سأخذكإ إلى المدية أواخر هذا الشهر حيث مسقط رأسي، سأتزوج أخيراً بحبيبتني التي اختارها قلبي، آه أنا جد فرح ومنتحمس وأتتظر أواخر سبتمبر على أحر من جمر لأجتمع أخيراً برفيقة

لبي ماسون وسعد دعوة مخلوف لحضور حفل زفافه، كانت أجواء الاحتفالات خرافية وأطلق البارود دويه إعلاناً بوصول العروسة التي أهدت المدعويين بجماها وحليها ولباسها التقليدي الفخم، قبل أن تفاجئوا بصراخ وتبادل للاتهام وتنازع بالألقاب بين أهل العريس والعروس، حظر جد العروسة إلى العرس بقشايته البنية وعمامته الصفراء يتوكأ على عكازه الخشبي، طفق يصرخ في وجه العريس وأهله رافضاً لهذا الزواج مسك حفيدته العروسة وأرغمها على المغادرة قائلاً لها ولوالدها:

- ابني، حفيدتي كيف لكما أن تكسران كلمتي، ابني كيف لك أن تُزف ابنتك الوحيدة لأسرة خائنة كهذه، وتستر على يوم الزفاف
فرد عليه ابنه في أسف:

- أغلاط الماضي لا يجب أن يتحملها أبنائنا، هي أصرت عليه وهو أصر على الزواج منها، ما الذي سأفعله، كنت مجبورا على إخفاء موعد زواجها عنك تفاديا من أي مشكل

ضرب جد العروسة الأرض بعكازه وقال:

- الزواج بين اثنين ذكر وأنثى، لكن النسب والصر بين عائلتين، وأنا لا يشرفني أن أتاسب مع خونة، لا يشرفني أن يختلط دمي التنظيف بدم قدر، لا يشرفني أن أزوج حفيدتي إلى عائلة باعوا وطنهم بئس بخس

لم يهضم مخلوف قول الجد وقف في وجهه معارضا:

- أنت في بيتي، احترم وجودك هنا، إن لم توافق أنت فوالد رقية موافق، ألف عائلة وما يزيد تشرف بي، وألف امرأة وما يزيد تتمنى أن تحضي بي ازداد غضب الجد واسود وجهه، نصحه الجد أن يسأل عن ماهية جده وجدته:

- اسمع أيها الولد، قبل أن تفتخر بنفسك وماهيتك يجب عليك أن تسأل عن ماهية جدك

لوح بعكازه على وجه مخلوف قائلا:

- أنت حفيد حركي، وحفيدة حركية، أنت حفيد لزوجين خائنين كادت القرية تنقرض بسببهما، أسأل عن تاريخك جدك

قاطعته والدة ناصر قائلة:

- ابني أسد الغابة، لن أسمح لك بإهانتته وإهانة عائلته

ناشدت زوجها الصامت بأن يقول كلمة دفاع، لكن انصرف إلى شأنه وغادر المكان، فواصلت بالكلام:

- لنا الفضل لقصد ابنتكم للزواج من ابني، كان عليكم أن تسجدوا لله وتقبلوا الأرض ليلاً ونهاراً لأن ابنتكم ستدوس على الذهب والفضة في بيتنا هذا

ثارت ثائرة الجد وقال لها:

- حفيدتي ستُعذب مثلها عذبتُ أنا والمجاهدين هنا، هذه الساحة التي تقف عليها حفيدتي كنت أقف أنا والمجاهدين نُعذب، أو بالأحرى يستوقفنا جدك وجدتك اللئيمين ويعذبوننا بالصعقات الكهربائية والجلد والربط والتجوع ويُشربوننا الصابون وغيره من تلك المواد الخطيرة، كيف لي أن أزوج حفيدتي لحفيد الحركي الذي كان يُرهيني والذي مارس كل أشكال التهريب على رجال ونساء القرية، أسأل عن جدتك التي غيرت اسمها إلى ميمي كانت السبب بطلاق الكثير من النساء وكادت بالميكال لفتياتهن وغدرت بالعداري ووصل بها الشر بأن تهب للجنود الفرنسيين القذرين العذاري وتم اغتصابهن بسبب جدتك الله يلعنها ويلعنكم، ثم لَوِّح بعكازه إلى فناء المنزل يحكي له كيف أقدمت جدته ميمي على بتر سلاسل الأشجار المحيطة بالقرية سأحدثك عن ذلك الصباح:

- في صباح ينذر هدوءه بغرابة اجتماع رهط من الرجال يحملون مناشيرهم المصنوعة من خشب الأشجار، يلفون حول الأشجار المعمرة الكبيرة ذات

الورق الكثيف الأخضر تؤنس الليل البهيم وتنفس بين ثناياه المظلمة ويحلوا لها السمر تحت نور القمر وتزف خبر طلوع الشمس بأوراقها المتأرجحة والمتداخلة في الرياح الطيبة، قُطعت الأشجار من جذورها بدأت بالاهتزاز كمن ينذر لخطر يحدق حولهما وبدأ سكانها العصافير بالتغريد لكن ليس كتغريد كل الأيام إنما كان تغريد جزع على خطر يُحدق بموطنها الأشجار، وهلع على فلذات أجدادها وتغريد قوي يطلب النجدة يطلب المعونة ويستغيث أن لا تُقتلع مساكنهم كانت أجنحتهم صافات تضرب الهواء وهي في مكانها وكأنها تسبح في الفضاء من غير تبديل للمكان، ترجوا الخطابة أصحاب المنشار قاطعي الأشجار وأعدائها من خونة الوطن أن يعدلوا عن فعلتهم ويتضرعون بأجنتهم التي ستفقس قريبا. بين شظايا الحطب والغبار المتناثر في الأرجاء الذي علا إلى السماء ولطّخ به العصافير المسكينة علت معهم لعنات المرأة العجوز الجبارة ميمي

- فلترحلوا أيها العصافير الحقيمة المزججة سنرى اليوم كيف ستغادرون فلتذهبوا إلى الحجيم اذهبوا هيا وكفاكم إزعاجا بصراخكم.

اعوجت الأشجار ومالت وغربت قمم الجبال المثلجة الشاهدة على عملية اغتيالها عن عيون الأشجار التي ودعتها إلى الأبد وبدأت الأرض تجذبانها بدفع الخطابة صارخات ألما شديدا من شرخ كصرخة أخيرة ونفس أخير والأشجار في سكرات الموت بدأت أعشاش الطيور تتهاوى أرضا وألقت بما حملت وعمدوا على إسقاطها وفصلها عن جذورها المتينة والمملتصقة بها سقطت بيض العصافير وارتطمت بالأرض فاختلط الأح بالبح في عملية وأد جماعية لصغار العصافير وأبناء الطيور، وتبعها سقوط أجساد الأشجار،

ووقع رؤوسها على النهر المتدفق بالماء العذب فراح الماء يمر بين أوراقها وأغصانها ويعلق، فازداد تدفق الماء فبكت الأرض والسماء عليها، فاهتزت طبقات الأرض كما تهتز لزلاها وفي عملية تنكيل لجثت الأشجار اجتثت الأغصان منهما في حينها وقطعت جذوعهما إربا إربا وأحرقت في مدافئ حطبية وتم تصدير حشيشها طعاما للبقر والمعز والضأن، في جنازة مهيبة شيعتها الطيور من فوق السماء لازال صوت أنين الأشجار يواسي شظاياها المنتشر الذي تدهسه المرأة العجوز في ذهابها وإيابها، ولازالت الطيور في حدادها رغم أنها غيرت المساكن والملاجئ، ومن جزعها وبثها فقدت العنادل صوتها الجميل المنبعث من حناجرها التي لا تنعب، ولازال جذعا الشجرتين يبكيانها من عيونها التي فقأها الخطابون، وإن لسقوط تلك الأشجار ليشبه سقوط حضارة صمدت وعرّشت لقرون مديدة فباغتها العدو من ورائها ومن أمامها وأحاطت بها مدافع الموت والفناء وأخذت تقاوم إلى آخر نفس حتى أغمضت الرمق الأخير بسقوط آخر عمد يعلي سقفها ورايتها، وضع الخطابون مناشيرهم المصنوعة من الحطب على الأرض فوق شظايا الشجرة المغطاة بأشلائها المبعثرة فكان جرح الأشجار أكبر لأن أيادي المناشير مصنوعة من معدنها الخشب الذي خانها.

وجه مخلوف بصره نحو أمه يسألها:

- أهذا صحيح؟ ألم تقول لي أن كل هذا مجرد افتراء علينا، لم؟ كنت أعود من المدرسة في طفولتي وأشكي لكما عدم رغبة أترابي بالحديث معي وعدم رغبة أطفال الجيران مرافقتي، أنا أحب وطني ومستعد لأفديها بروحي

قال له الجد:

توسلت رقية والدها وجدها أن يطووا صفحة التاريخ فقالت:

- كثير من الجزائريين وعلى رأسهم المجاهدين غادروا بلاد الجزائر، واتجهوا للعيش في بلاد المستعمر متناسين أحقاد الماضي فما ذنبنا نحن

فقال مخلوف:

- إنه لمن العجيب أن أدفع ثمن وزر اقترفه أولونا، إنه عين الباطل والظلم لنا، لم تحطني ورقية على الأمر الواقع؟ لم تُرغمنا على الانفصال؟

قالت رقية لمخلوف:

- آسفة يا مخلوف حبنا كان خطأ، سأفدي بحبي لك من أجل عائلتي لن أسمح بوالدي أن يتبرؤوا مني، لكن أقسم لك أنني سأتبرأ من الزواج بعدك غادرت رقية رفقة والدها وجدها، ونزع مخلوف ربطة عنقه ورمى بذلته أرضاً وهم بالخروج وأمه تُمسكه من يده تترجاه أن لا يرحل أفلت يدها منه قائلًا:

- هذه المدينة محرومة علي إلى يوم يُبعثون، سأهجر إلى الأبد وسأهجركم وسأهجر ذاكرتكم هذه لن أعود، لا داع للحاق بي

بين نجل وخرج غادر مخلوف وهو يجر وزر أجداده تحت ذهول المدعويين الذين كانوا يتفرجون على كل ما حدث، نظرت إليهم والدته وبدأت تطردهم وهي تصرخ:

- إلى ماذا أنتم تنظرون؟ هيّا ارحلوا، ارحلوا واغربوا عن وجهي، ماذا
تنتظرون تحركوا ليس فيلها سينمائيا، ارحلوا

العاصفة، أكتوبر 1988م

في مطلع أكتوبر 1988م قرّر ماسون رنجير استكمال رحلة بحثه عن ذاكرة والده المفقودة وحلقة التاريخ المدفونة، قصد العاصمة الجزائر وزار صديقه الصحفي عبد القادر، الذي كانت شقته مملوءة عن آخرها بالشباب وأصدقائه، فسأل عبد القادر الشباب إن هم أطلعوا على آخر كتاباته في الجريدة فأثنه الخيبة من الشباب لعدم قراءة نصه القصصي في آخر عدد له في الصحيفة فطلب منهم أن يُنصتوا جميعا لما كتبه - اسمعوا يا شباب هذه قصة مؤثرة جدا لفتاة جزائرية طموحة راحت ضحية التقاليد البالية، إنها قصة ذات نهاية شبيهة بالخيال، اسمعوني يا شباب

وقبل أن يبدأ عبد القادر بسرد قصته من صفحات الجريدة تنهدّ وهو يقول:

- آه يا محمد لم يستوص البعض بالنساء خيرا ولم يُرفق البعض بالقوارير، عنونت القصة بالكنة:

- اعتلا عميد الثانوية في آخر السنة الدراسية المنبر مخاطبا التلاميذ وأولياءهم في حفل تكريم النجباء قائلا: «إنّ هذا اليوم يصادف يوم النصر والاستقلال ويوم استعادة السيادة الوطنية منذ أكثر من عقدين من الزمن، والسيادة تكتمل بنشر العلم وتشجيع الطلاب على ارتياد مقاعد الدراسة لإعادة بناء

هوئبتنا وقوميتنا وثقافتنا، بعد أن عمل الاستعمار جاهدا على محو هوئبتنا وتجهيل أبنائنا، أدعو الطالبة حسنة للتفضل إلى المنبر لتكريمها واستلام جائزتها المتمثلة في منحة مجانية للدراسة في معهد خاص من أفضل معاهد العالم، لتحصلها على المرتبة الأولى في شهادة البكالوريا»

أقلت كلمتها تحت تصفيق وتبجيل أساتذتها والحضور: « أعبّر عن شكري الخالص لوطني الذي فتح مدارسنا، وأخص بالشكر والدي، وعمي الذي فتح لي بيته للكوث فيه طول مسيرتي الدراسية، وأنا أهدي هذا النجاح لروح أمي التي تراقبني في السماء، وأهديه لبنات البادية، فأنا بنت البادية مثلهنّ، وأقول لمنّ من هذا المنبر عليكنّ أن تأخذنّ حثكنّ في التعليم، وتحاربنّ الجهل من أجلكنّ ومن أجل مستقبلكنّ»

عادت حسنة إلى البادية حاملة معها وسام النجاح، وسارحة بفكرها عن مرحلتها الدراسية الجديدة، فاجأها والدها بقرار تزويجها من جارها صالح بذريعة أنّها في سن الزواج وأنّ المرأة مكانها البيت وملجأها الوحيد زوجها، وأنّ قريناتها من بنات البادية اللاتي في سنّها تزوجن وأنجن ماعدا حسنة، وتفاديا لكلام الناس عليه فنن العيب للبنات أن يخرجن ويدرسن ويتنقلن في باديتهم على عكس الرجل الذي تُرخص له كلّ الحقوق، رضخت حسنة لأمر أبيها رغم اعتراضها الشديد، فأوقفوها من الدراسة والعلم وأصبحت زوجة حزينة وكنت مطيعة لحمايتها القاسية صبيحة، التي تكلفها من الأعمال ما فوق طاقتها، في يوم زهري تمزقت السماء مطرا، أمرتها صبيحة بتجميع الحطب من الغابة وتقطيعه للتدفئة به في الشتاء، رفضت حسنة ذلك وقالت لها سأقوم به لما يتحسنّ الجو، لم تهضم صبيحة غضبها ورفض كنتها

لأمرها فضربتها بججر كبير على صدرها فكسرت قفصها الصدريّ، غادرت حسنة المنزل تشكيها لوالدها، وفي طريقها وقفت على قبر والدتها قرأت لها السّلام، وشكت لها حالها، ثمّ نظرت في الجبل الشّاخ الذي يعلو البادية المتسترة تحته بعادته البالية وأفكاره التي أكل الدهر عليها وشرب تخاطبه: «آه يا جبل، يا شاخ الذّراع، يا واسع القاع، لطالما أقف هذه الوقفة أمامك أخاطبك كلّ مرّة، وأظهر تفوّقي ونجاحي، وانتصاري عليك في كلّ معاركي، وأعدك أنّي سأصبح شامخة عليك وأعلو عليك، لطالما إنّي أريد أن أكون كطير مهاجر أعلو وأعلو وأعلو، وأنت دائماً تلهمني بنظرات غريبة صامتة، وكأنّك ترى آخرتي بين ذراعيك، كأنّك تعلم أنّي سأتيك يوماً ما زوجة بأسة خاسرة الحرب أمامك، وأرفع راية استسلامي، كنت تعرف ذلك؟ أليس كذلك؟ هيّا تكلمّ؟ أرجوك أسدي لي خدمة وأطبق نفسك عليّ وأرحني من كل هذه الفوضى.»

أطلق صالح يمين الطّلاق على حسنة غير مكترث بجملها منه، بذريعة عدم احترام أمّه ولخروجها من البيت دون إذنه.

تزوّج صالح سمرا قريبة حسنة زكاة فيها، مرّ موكب العرس أمام بيت حسنة فتعالت الزّغاريد التي صبّت في أذن حسنة التي كانت تواجه الآلام تكسر قفصها الصدريّ، والآلام الإجهاض، فقد قدّمت لها زوجة أبيها مشروباً لبعض الأعشاب لتقوم بإجهاضها كي تتخلص من جنينها، لتتمكّن من الزّواج مرّة أخرى، ذهبت زوجة أبيها لحضور عرس صالح، وتركت حسنة تصارع الآلام والنزيف الذي أودى بحياتها وأرسلها إلى أمّها.

لم تكن معاملة صبيحة لكتتها الجديدة سمرا تختلف عن معاملتها لحسنة، فكانت تمارس عليها العبودية والاستغلال والأوامر اللامتناهية، حيث كان أقل ما تكلفها به الزرع والحصاد في الليل والنهار رغم صغر سنّها، لم تستطع سمرا التحمل كثيرا أنك التعب جسدها والضجر روحها فسرقها المنية إليها في أحد الليالي الصيفيّة الحارّة فنومها على السنايل الكثيفة بين الحقول الشاسعة.

مرّت أيام الحداد على سمرا، أقدمت صبيحة إلى خطبة ليلي شقراء البادية من أهلها لابنها صالح، رفضت ليلي جملة وتفصيلا الأمر لأنها صغيرة وحلق بها الطموح لارتياح المدارس ونيل الشهادات، لكن والدها أصرّ على تزويجها من صالح، نصحتها أختها أن لا تقبل الزواج من صالح فقالت لها: «أهربي ليلي، أهربي إن هذا الرجل وأمّه بهما لعنة، قد ماتت كنتان في ذمته، أنصحك بالهروب بعيدا»

هربت ليلي في جوف الليل لوجهة مجهولة، اكتشف والدها هروبها تبعها وهو يناديها ويطلب منها العودة، سمعت ليلي صوت والدها وأدركت أنّها أكتشف أمر هربها أسرع في الجري بين ثنايا الشّعب والمسالك الوعرة والأشواك، انزلت قدمها وسقطت في جبّ منسي عميق مليء بالأشواك والأججار، ارتطم رأسها بالأججار فلفظت أنفاسها الأخيرة هناك.

ذهب والد ليلي إلى بيت صالح وأمّه ليعلمهم بوفاة ابنته، فصدّم بوفاة صالح فقد كان يعاني من مرض عضال

فاستفسروا الشباب من أنها قصة حقيقية أم خيالية فقال لهم عبد القادر:

- ومتى أتخيل في مثل هذه الأمور المسكينة حسنة كانت تدرس بالجزائر العاصمة... هذه هي الحياة تأثرت بقصتها ونقلت صوتها لكل الآباء لتكون عبرة لهم

ثم سأله الشباب عن ما هيأه ليوم غد، فوقف متحمسا غدا سيكون يوما جديدا، ستطلع شمس الجزائر ولن تغيب، عرض عليهم عبد القادر رسالة خطها مجموعة من الشباب وأوصوه أن يوصلها لأصحاب القرار وصناع المصير ومن لهم يد الأمر في البلاد، وقد وزعها على المقاهي ولصقتها في حيطان المباني وجالت كل الأحياء وسمع بها القاصي والداني وكرر تلاوتها الشاب جليليب مهندس دولة بطل ينحدر من قرية حلية من قرى سطيف النائية من مناطق الظل، وكتب وصحفي هاوي يستغيث بعالي المقام في الدولة، يستغيث به ويشكوا له هم الشباب وينقل صوت الشعوب والمواطن فرددها مرارا وتكرارا دون ملل ولا كلل وقال اسمعوني إن هذه الرسالة مخطوطة بماء عيون الشعوب ودماء قلوبها:

إلى عالي المقام...

«سلام على عالي المقام جليل المهام، والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد رسولا وخاتما أما بعد:

أنا باعث إليك بكل الأخبار علني أجد فيك الشافع المختار ذو الانتصار

فأنت الذي في العيين سام عالي المقام، وأنا الذي في السافلين منحطا لا مقام

أنت الذي هو كلّ معرفة يُذكر، وأنا الذي هو جله نكرة لا شيء يُذكر.
أنت الذي هو صاحب السّلطة والنّفوذ، وأنا الذي هو صاحب المسكنة
والقعود.

وأنت الذي بيده عصى الحقّ والعقيد، وما أنا إلا الرّقّ والعبيد.
وأنت الذي هو في القمّة تباهي وتعالى، وأنا الذي هو في القاع أقاسي
وأعاني، علك يا عالي المقام بجالي تبالي.

فأنت الذي هو كبير الشّان لا تعلوه كلمة، وأنا الذي هو حقير الشّان لا
يُسمع له كلمة.

أنت الذي هو حاله الزّلفى وحسن مآب، وأنا الذي هو حاله الخزي
والعذاب.

أنت الذي هو صاحب المهابة والاحترام، وأنا الذي يلقى عليه الإهانة بلا
احترام.

أنت الذي هو بالمزايا حافل، وأنا الذي هو للرزايا كافل.

أنت الذي هو صاحب الكمال والمال، وأنا الذي هو صاحب الحاجة لا
مال.

أنت الذي هو صاحب اليسر والأعمال، وأنا الذي هو صاحب العسر
والأقفال.

أنت الذي يتنعم في الترف مرحا، وأنا الذي يتخبّط في الفقر قرحا.

أنت الذي لياليه سمر وسهر وأنا الذي لياليه كّر وفرّ ومدّ وجزر.
أنت الذي هو صاحب المؤتمرات في سلك القمم فاصل، وأنا الذي هو
صاحب الكفاءات والشهادات العليا في سلك الوظيفة عاطل
أنت الذي للعالم برجلك جلته، وأنا الذي لمسقط رأسي ما برحته.
أنت الذي تركب أنخم الطائرات بتأشيرة جواز السفر الأحمر
وأنا الذي أركب زورق الموت، فلك المطاط أملا في العيش الأفضل
قاصدا الضفة الأخرى، التي نحسبها الجنة الكبرى
إن لم تُغرقي أمواج البحر الأخطر، وأكون طعاما الحوت الأكبر.
أنت الذي اختارته الحياة للمدائن والبروج، وأنا الذي اختارته الحياة لقفار
البواد والمروج.
أنت الذي هو صاحب المهور سكن بُراح القصور، وأنا الذي هو صاحب
النُفور سكن أشباه القبور.
أنت الذي ناطح رأسه السحاب، وأنا الذي قطع رأسه وعمر الهضاب.
أنت الذي ألبسته الحياة اللؤلؤ والحير، وأنا الذي ألبسته الحياة السمّ
والحصير.
أنت الذي مُنت عليه الدنيا بالحسنات والمسرات، وأنا الذي انقلبت عليه
الدنيا بالعكوسات والحسرات.

أنت الذي نصبتك الأيام مخملياً عزيزاً سيّد الأقسام، وأنا الذي نصبتني
الأيام دونياً ذليلاً سيّد الأحلام قيد الأوهام.

أنت الذي أهدته السماء وسام السعادة والهناء، وأنا الذي ألقته السماء إلى
واسع التعاسة والشقاء.

أنت الذي يطاف عليه بصحاف الذهب والأكواب، وأنا الذي يطاف
عليه بصحاف الرّيب والعقاب.

أنت الذي هو صاحب الأمر والنهي، وأنا الذي هو صاحب التنفيذ بلا
نفي.

أنت الذي يقف لحضوره تبيحاً ومرحباً، وأنا الذي يقف لحضوره تأففاً
احتجاجاً لا مرحباً.

أنت يا عالي المقام صاحب الحظّ العظيم، وأنا صغير المقام صاحب الحظّ
الضّنين.

أنت الذي هو ابن الملوك الحاكمة، وأنا الذي هو ابن الشعوب الكادحة.

أنت الذي بيده السلطان تُملّى عليّ القرار، وأنا الذي ما بيده وسع الفرار.

أنت الذي هو الحيّ بين الأموات، وأنا الذي هو الميت بين الأحياء.

يا عالي المقام أنت الإنسان وأنا الإنسان بيننا اختلف الميزان، الفرق كبير
وما زال من الكلام الكثير.

يا عالي المقام ترى أنّي تداركتني الخطوب وجلدتني الكروب، منها لم أفلح بالهروب، أتعبتني غابات أحلامي، وأرهقتني أدغال أفكاري، ولعبت بي مسارح أقداري، ومزقتني ظروف حياتي، كثرت همومي وقلت حلولي.

في وقت مضى صعدت أدراج الأجداد بطلا أصرخ للنجاح، نحسّف بي الأرض وأسقط عليّ أرضا غدرا من أحبابي، نصبت نجمي ساطعا في السماء أنثر بروج نجاحي ومصايح تألّقي، فأتبعني شهاب العداة ثاقبا يقذفني من كلّ جانب من حياتي، حاولت مرارا وتكرارا إلاّ أنّ زبانية القاع تأبى علوي وترفض نجاحي.

يا عالي المقام إنّ الدهر البسني ثياب الفقر معوزا بلا أثير، وانقطع يدي وانكسر جناحي وشلّ رجلي ولا زال تدفقّ رغبتني للنجاح لعنان السماء يزيد، صغر شأنني وتأزّم وضعي وتفاقت عليّ وتآكلتني كآبتي، ضعّف قلبي وسقم جسدي وجفّ ماء عيني من كثرة البكاء، اختلّ عقلي وتاه فكري وانهار عصبي، فشمت منّي عدوي وفرح حاسدي، هجرني أهلي لا أحد يساندني.

يا عالي المقام قد تساقط منّي الأمل كما تساقطت أوراق الشجر في الخريف، غدت حطاما تدهسني أقدام الظالمين وتثرتني رياح العابثين، وثتقذفني أهواء المترفين ويضربني طغيان المجرمين، ترى قد طال خريفني واشتدّ عليّ الشتاء الغضوب بين الأراذل ولعنة الأشرار، لا وجود للأخيار في غُرف لظّي أسفل سافلين يُسمع لها حديث المنافقين بعيداً عن المتّقين.

يا عالي المقام في أيام نحسات طلعتها من أصل الحجيم، ترميني بشرر ذرتني كالمشمم، أشربتني الحياة حنظلا كؤوس المرارة والمهانة حدّ الثمالة،

فأذاقتني هول المقيم في العذاب الأليم، غلبني الرجال وقهرني جور الدار،
خان بري المعتد الأثيم المناع للخير المشاء بنميم، الأفك العتلّ الزنيم.

أيا عالي المقام مسني التصب والعذاب من أقدر الناس، أصحاب
الوسواس وانحناس، زارني اليأس والبأس، فشل هدفي وهوى طموحي
وحقرت مكاني وسقطت قيمتي وقلت حيلتي، فعدت سكبيرا بالأم روجي
وجراح قلبي وانهار منظومتي، وحيدا متروكا هائما بلا معاني، سخطت على
سقم ظروفني وعلة حالي، صعلوكا ماردا متسكعا ضائعا بين القرى، منبوذا
نازحا من واد لواد أسير أحزاني، مطأطأ الرأس ومنهزل الجسم والرج
يغطني، والهزيمة نالت مني، زاحفا خفي كسمفونية حزينة لقيد الحياة لا
أبالي.

يا عالي المقام أفسحر هذا؟!!

أفسحر هذا الذي أصابني؟!!

أم رجس من عمل شياطين الإنس والجان؟!!

أم مسني شرّ النفّاثات في العقد؟!!

يا عالي المقام إبنني لي صرحا أطلع عليك، وارفعني إلى مقامك الكريم
حيث أنت

يا عالي المقام يا صاحب الجود والكرم يا أهل الوفاء امح عني البلاء،
واجعل لي عندك حسن اللقاء وهيئ لي عندك المكان المتين المكين واجعلني
من المقربين، فأنت القوي والأمان فما عدت أتجمل الهوان.

يا عالي المقام اذكرني عند ربك دعاءاً في ثنايا صلاتك جوف سجودك،
 لعل لك خيرا وعملا صالحا يُتقبل منك، ولعل عليّ ذنبا ووزرا أعتب عليه،
 عسى الله يحيني ويجعل لي نورا أمشي به في الناس، وينير لي ظلماتي بنوره
 المنير ويكشف عني السوء والعذاب، ويطهرني من أسقامي ومن نجس
 العباد، ويؤتني مكانا يعليني ويرفع ذكري ومقامي ويصنع احترامي ويذهب
 أحزاني ويأخذ بثأري من أعدائي بالقصاص، ويُرل عني المعيشة الضنكى
 والحال الأعمى.

يا عالي المقام أرني أنظر إليك واجعلني خليلا لك في مقامك،

يا عالي المقام دلني على عين الشفاء تفور، منها المغتسل والشراب البارد.

يا علي المقام هذه رسالتي إليك أضعها بين يديك، تحمل الشكوى والبلوى
 من حالي، عساك ترسل لي رسلا بأجنحة السرعة، تحمل لي البشرى
 واليسرى، أنزل الله عليك المنّ والسّلوى، سلام عليك وسلام على كلام
 تبقى...»

تمّس الشباب لليوم الموعد وكلهم أمل لتغيير جذري في نظام الدولة
 شعارهم التطور والتحسين من أوضاع المواطن والنهوض بالوطن

في صبيحة اليوم الخامس من أكتوبر من عام 1988 خرج عبد القادر
 وأصدقاه برفقة ماسون وجلييب ومجموعة من زملائه وأصدقائه ومعارفه
 ليشاركوا في الانتفاضة، جُفِعوا من من مقابلة الشعب الأعزل بالرصاص
 الحي لفق انتفاضتهم هذه، تحول يوم الأمل إلى يوم دماء غابت شمس ذلك
 اليوم حاملة معها أرواح شعب لتشيّعها إلى مأواها الأخير، فأعلن الليل

الحداد عن ما يزيد عن خمسمائة ضحية، بينهم سقط الصحفي عبد القادر في ضحى اليوم برصاصة اخترقت جمجمة رأسه، وقبل أن تحل به مصيبة الموت نصحه أصدقاءه أن ينسحبوا لكن عزمه على تغيير شيء وإيمانه بالقضية التي كانت القطرة التي أفاضت الكأس والتي أخرجتهم كانت أقوى وذكرهم بصفته الشجاعة والجريئة:

- إن انسحبت اليوم فكأنما أفر من الزحف، أنا لست جباناً، وإن مت اليوم فإنني أموت شجاعاً وأموت بشرف، وموتي سيكون كموت الشهداء

فوهب عبد القادر نفسه ودمه من أجلها، في جنازة مهيبة انطلقت من العاصمة الجزائر إلى مسقط رأسه شبيحة أهله ورفاقه ومعارفه الذين أتوا من كل حوب وصوب إلى مأواه الأخير، حمل أصدقاءه نعشه المغطى بعلم الجزائر، وضعوه وسط منزلهم جلست على رأس النعش والدته المسنة مرتدية فستاناً أصفراً وشحت رأسها بخمار تُرثيه وتبكي قهراً وألما وتندب على فلذة كبدها وتقول:

- آه يا عبد القادر كيف ترحل عني وجرح أخيك لم يندمل بعد، آه يا التاير مديتك عبد اللطيف وليد العشرين عام شهيد الخدمة الوطنية، مات بالرصاص، وعبد القادر تاني يموت بالرصاص يا ناس وجع الكبددة واعر، يا ناس زوج رجال قد الجبال راحوا عني، يا ناس بيتي خوا

أبكت كل من معها، وطلبن النسوة اللائي كُنَّ يُحطن بها أن تكبر الله، وتستغفره فقامت والدة عبد القادر بالتشهد:

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله

ثم رفعت يديها إلى السماء وهي تقول:

- يا رب نت هديتني عبد القادر وعبد اللطيف وأنا هديتهملك يا الجزائر
الغالية

ساروا به نحو المقبرة راجلين، مارين على قبر أخيه عبد اللطيف الذي قُتل
رميا بالرصاص أثناء أدائه الخدمة الوطنية، وقفوا ليلقوا التحية عليه وقرؤوا
الفاحة على روحه، ضمّ والده البسيط الذي يبدوا عليه الفقر والغلبة قبر عبد
اللطيف وهو يكلمه بقلب مجوع:

- يا عبد اللطيف راني جيتك وجبتك خوك تونسوا يا عبد اللطيف جرحك
ما براش وزاد جرح عبد القادر، يا ناس حَسَنَ عاونوني يا ناس ماقديتش،
يا ناس حَسَنَ عاونوني

أمسكه الرجال من يديه وأكفاه وساعده على النهوض، وأكلوا مسيرتهم
حيث قبر عبد القادر، أخرجوه من نعشه ووضعوه في القبر، مفرشا التراب،
وغطوه به، سقط والده مغشيا عليه

كان ماسون رانجير يُشعل الشموع على قبر عبد القادر كل ليلة ويصلي من
أجله وقرأ سرا عظة القُدَّاس و الراقدين وفقرات من الإنجيل، ثار ناصر
من تصرف ماسون رانجير، دهس ناصر على الشموع ورفضها بأرجلها
وأطفأها وأمر ماسون أن يغادر في الحين:

- الذي مات هو رجل مسلم طقوسك هذه اتركها في بلدك، ولا ترأى
حزنك على عبد القادر أمامنا، أنت مجرد رومي ابن فرنسا التي فعلت فينا ما
لم تفعله الزبانية

رفض ماسون المغادرة وأعاد إشعال الشموع، فأمسكه ناصر من رقبته وكاد
أن يخنقه لولا تدخل جليبيب وأصدقائه وقال له ناصر:

- أنت مجرد رومي لا علاقة لك بالجزائر ولن تكون جزائريا، فلتجمع
شموعك ولتغادر لأن فرنسا وأبنائها لن يحزنوا على مصاب ألم بالجزائر
أجابه ماسون:

- أنا الدزيري، هكذا لقبني والدي، أنا الدزيري الذي حمل صفات المشابهة
بالجزائري الذي وصفه وحلله وتدارسه والدي، أنا الدزيري الذي ينادونني
به هناك في موطني وبين عائلتي، وأنا الرومي الذي يلقبوني به هنا، أنا ذلك
الجزائري الذي انصهر في شخصية ماسون رنجير، أو بالأحرى الابن الذي
اعتبره والده ميشل جزائريا، أنا ماسون رنجير الذي غير والده اسمه إلى
دزيري وراح يذكر صفات الجزائري أمامي ويشبهني به حتى تبينت تلك
الصفات، أنا ماسون رنجير الذي أتى ليبحث عن الدزيري الذي كان والده
يناديه به

تدخل جليبيب ليفض الخلاف بين ناصر وماسون، وقال لهما:

- أنا الذي سيغادر

فسأله ناصر عن الوجهة التي سيغادر إليها:

- أتغادر قبل أربعينية عبد القادر؟ إلى أين ستغادر؟ هل ستعود إلى حلية؟
فقال له جليبيب:

- سأغادر إلى ما وراء البحر ، لا خيار لي سأغادر في أقرب وقت ممكن،
أليس الحزن على الفقييد ثلاث أيام، لكن والله الحزن على عبد القادر
يتعدى الثلاث أيام والأربعين يوماً، فقدته يجعل الحزن ملازماً لي، لكن
سأغادر حاملاً هذا الحزن فوق أحزاني

اتجه الأصدقاء نحو العاصمة عبر الحافلة جلس ناصر في الأمام قدام السائق
أخذته سنة النوم ثم غفي مسافة الطريق، وجلس ماسون رنجير في المقاعد
الخلفية أمام جليبيب فراح هذا الأخير يسأله ويستفسر عن حادثة الشموع
وطقوسه في الصلاة على عبد القادر:

- ماسون أين كنت صباح أمس؟

- كنت في الكنيسة المهجورة

- لم تأخرت على العودة كما وأهل عبد القادر ننتظرك على الغذاء ونتساءل
أين أنت؟

- كنت أصلي في الكنيسة وأطلب من الرب الغفران لعبد القادر من أجل
خلافه من خطايا

- إنها كنيسة مهجورة بناها الفرنسيون إبان الاحتلال، من أجل تنصير
الجزائريين أتت بالآباء البيض والراهبات والرهبان والقساوسة راحوا يبشرون

سموهم في أبناء الجزائر بذريعة التعليم والمساعدات الاجتماعية والصحية و غيرها، أظنها كانت زاوية لتعليم القرآن والتدريس، فحولتها فرنسا إلى كنيسة بالغضب، لكن اليوم أصبحت مجرد أطلال تشهد على سياسات فرنسا التي انتهجتها لمحو الهوية الجزائرية، واليوم هي خاوية على عروشها ومثلها الكثير في أنحاء الوطن، الكثير من الكنائس دمرت وحولت إلى مساجد بعد الاستقلال المجيد

هز ماسون رنجير رأسه ثم نظر خارجا نحو النافذة، استرسل جلييب الكلام:

- رائحة الحنين إلى الكنائس وطقوسها تنبعث منك يا ماسون

- أنا لا أنكر أن فرنسا عمدت على تنصيركم وتبديل لغتكم ومحو هويتكم بكل ما أوتيت من قوة، لكن ذهابي البارحة إلى الكنيسة كوني مسيحي وأنا أصلي بطريقتي وأدعو بالطريقة التي يملها ديني

- لكن عبد القادر مسلم، مسلم يا ماسون، أليس من الأجدر أن تُرتل فاتحة القرآن عليه بدل من إنارة الشموع، صلي عليه بالطريقة التي ينص عليه دين عبد القادر، ادعوا له بالغفران والرحمات على طريقة المسلمين على دين الإسلام الذي يؤمن ويتدين به عبد القادر

- لا فرق بين اليهودي والنصراني والمسلم وغيرهم فالله يفيض بغفرانه وعطائه وخيره على كل من يدعوه

- لا تأخذني يا ماسون لكن كان من الأجدر أن تُسرّ مسيحتك وأن تُخفي طقوسك في الصلاة على عبد القادر، لأن الجزائري عان من ويلات فرنسا وعملياتها التنصيرية فأصبح الجزائري متحسسا جدا ويستذكر معاناته مع فرنسا

- الجزائري مسامح جدا، كل هذه السنوات التي قضيتها هنا لمست التسامح الديني من الجزائريين

- لأن رسولنا الكريم وديننا الحنيف أوصانا بالتسامح الديني

- أنا لم أستطع أن أكنم طقوسي، ولم أستطع أن أكنم حزني على عبد القادر، أنا مدين لصديقي الوفي عبد القادر أقل ما يمكن أن أقدمه له أن أصلي من أجل أن ترقد روحه بسلام صلاة تليق بمقامه ووفائه ورجولته، أنا متدين وأمارس ديني بشكل كامل وتام وليس من اللائق أن أطفف في هذا الطقس

سكت جلييب قليلا وهو يتأمل في تفاصيل وجه ماسون الذي كان جادا في كلامه ثم قال له:

- يبدو أنك متدين حد النخاع يا صديقي ماسون

تنهد ماسون رنجير تنهيدة طويلة وتنفس طويلا وضع رأسه على رأس المقعد وقال:

- كنت قديسا أدرس وأحفظ الكلام المذكور في الإنجيل عند القبلة المقدسة، أغترف من ماء المعمودية، كنت صغيرا لما ارتدت الكنيسة والدير أتعلم أصول المسيحية على أيدي أساقفة الكأس ورهبانها كانوا يبشرونني

أني سوف أكون راهبا كبيرا ومشهورا كنت أمتلك إيمانا عظيما واستجابة كبيرة وملفتة لأوامر الإنجيل وأساقفة الكنائس

- عجيب! هل كانت رغبتك في أن تصبح راهبا

- لا

- كيف لا؟

- كانت رغبة أمي، أتذكر أنني عدت من المدرسة وجدت العائلة في اجتماع، كان والدي واقفا أمام والديتي الجالسة على الأريكة وكعادتها تضع رجلا على رجل، وعمي إلى جانب والدي وإخوتي جالسون كالصنف أمام أمي، قال لي والدي مهتئا لي، كانت أول مرة أسمع التهاني من والدي:

- تهاني يا ماسون، آه نسيت تهانيا يا الدزيري لا يمكن أن ننسى مدى شبك بالجزائريين حتى في تفوقك تشبه أبناء الجزائريين في تفوقهم وذكائهم، أنت الأول في القسم، بل أنت الأول في كل المدرسة، كيف تفوقت على إخوتك رغم أنك تدرس يوما في الأسبوع، وتعمل في المنجم إلا أنك أثبتت جدارتك أيها الحنطي، اقترب، اقترب يا الدزيري ولا تخف،

أنا كنت في وجل وخوف شديدين من والدي ومن ضربه المتكرر لي، كنت أتحاشى الاقتراب منه، لكنه قال لي:

- دزيري أنا أمرك أن تقترب، لقد أعددنا لك مكافأة على نيلك المرتبة الأولى والنتائج المشرفة، لقد اقترحت علي والدتك أنطوانيت أن نبعثك إلى

الكنيسة بدلا من المدرسة كونك تتمتع بطاقات غير عادية وكونك متفوق على أترابك الكنيسة تحتاج أمثالك أليس كذلك أنطونيت؟

أجابته وكأنها مجبورة على الإجابة فقد كان الكلام يخرج من مناخير أنفها الطويل، كانت هي لا تختلف عن والدي في معاملتي:

- بلي، بلي هو كذلك

التزمت أنا بالصمت ولم أستطع أن أتفرض ولا أن أرفض رغم أنني لست راضيا بهذا القرار، كيف لهما أن يحرماني من التعليم ويدسا بي إلى الكنيسة بهذا العمر الصغير وفوق إرادتي، لم يمهلاني بعض من الثواني لتوديع إخوتي، كنت حزينا جدا لأنني كنت الوحيد بين إخوتي الذي يُعامل معاملة سيئة، والديّ يرمون اللوم عليّ على خسائهم وإذ ما حل بهم سوء، لطالما والديّ تتحاشى وجودي في المنزل ولا تكثر لي أبدا بل تنزع انزعاجا شديدا عند رؤيتي وتأمر والدي بالتخلص مني، وكأني طاعون معد، أو وباء قاتل، وما زاد انفطار قلبي لما هممت بالرحيل سمعت عمي يقول لوالدي:

- استمتع بآرك من علي ومن الفلاحة

كان والدي فرحا، أخذته العزة وقال لوالدي:

- أنطوانيت كيف خطرت لك هذه الفكرة المروعة، أنت تستحقين الشاء

فأجابته أمي بكل ثقته:

- لو كنت تسمع لي لتخلصنا منه منذ زمن بعيد، أنا تبرأت منه يومه الأول
معنا، إنه نذير شؤم كان علي أن أتخلص منه مهما كلفني الأمر، لن نراه
مجددا، وإن رأيناه مستقبلا لن نتعرف عليه سيكون بقميص أسود حاملا
الصليب

لم أستطع كتم دموعي، كنت أحاور نفسي:

- لم أنا؟ لم أنا؟ أيها الرب ارحمني، أريد أن أعود إلى المدرسة، أريد التعلم
أريد أن أكون فنانا تشكليا أو عالما أو مدرسا

قال لي السائق بنية المواسة:

- ستتعلم هناك في الكنيسة، ستصبح هرما بارزا في الكنيسة ستصبح قسيسا
أو راهبا بل ستكون من أساقفة الكنيسة، وسيأتي والديك يعترفون لك
بخطاياهم، امسح دموعك بني

توقف ماسون عن سرد تفاصيل ولوجه للكنيسة، فكان فضول جليبيب
كبيراً، فراح يسأله وماسون يجيبه:

- ثم بعد ذلك هل أصبحت قديسا أو قسيسا؟

- كدت أن أصبح، أو أصبحت لا أدري، أخرجني والدي بعد ثلاث
سنوات وبعث بي إلى مهمة تخدم مصالحه خارج الأراضي الفرنسية، وهناك
تبدأ قصة أخرى من حياتي التي سطرها والدي كما يحلوا له

- تقصد أنك لست من يختار قراراته؟ ولست أنت من يقرر مصيرك؟

- بل كل قراراتي من صنع والدي
- أفهم من كلامك هذا أن كل قراراتك من يوم خلقت ولحت النور لم تصنع قرارا لنفسك
- أول قرار اتخذته لنفسى هو قرار مجيئي وزيارة الجزائر
- عظيم، عظيم أن يكون أول قرار اتخذته لنفسك هو قرار مجيئك للجزائر
- أحسست أنني كطائر ولد داخل القفص، وعاش داخل القفص يحمله صاحبه على هواه أينما أراد، ولما فُتح له باب القفص طار عاليا يختار من الأشجار والأوطان ما يشاء منهن وراح يلف هنا وهناك ويغرد بصوت الحرية ويتمتع ويتمسك الطبيعة التي خلق من أجلها، هكذا كان إحساسي لما اتخذت قرارا بنفسى كان يوما شبيها بيوم الاستقلال
- غريب، غريب جدا، من المعروف عن الأجانب والغرب الحرية المطلقة للأبناء في صنع حياتهم، لكن أنت... أنت مسلوب الإرادة، أي والد هذا
- والدي كان صاحب مال ونفوذ وسلطة في الدولة الفرنسية، وكان قاسيا جبارا نحوي، لا أرفض له كلمة ولا أسترجي على التبسم حتى عند حضرته وإن فعلت سوف أنال العقاب الأليم، وما إن تصورت لن تصدق كيف كان يعاملني بسوء شديد
- لا أظنه والدك، هذا عدو لك خصوصا أنه يعامل إخوتك برفق سواك أنت

- ميشل رنجير هو والدي للأسف، هي الحقيقة البشعة، أنا نذير شؤم لتلك العائلة كما تقول والدتي منذ أن ولدت لمت بهم الخسائر وأكبرها خروجهم من الجزائر وخسارتهم للحرب، حقدهم الدفين لكل ما هو جزائري شبيه بحقدهم الدفين لي، يذهب بي التفكير إلى أنهما ليسا والدي الحقيقيين ثم أقول إنهما والدي للأسف وهناك الكثير من الأبناء يعانون من أوليائهم كما أعاني لما كنت في الكنيسة يزوروننا الكثير من الآباء يعترفون بظلمهم لأولادهم وتفرقتهم المينة بين فلذات أجدادهم، على القليل هم نادمون ويلتمسون الغفران من الرب، لكن والدي لم يعترف ولم يزوراني مدة مكوثي في الكنيسة، بل ازدادا حقدًا عليَّ

- أنا لا أفهم، يريك قل لي كيف سكتت عن كل هذا الظلم؟ لمَ لم تهرب بجذبتك، لمَ لم تشك به للسلطات؟

- قلت لك أن أبي صاحب نفوذ وسلطة، كيف أشكي به سيزج بي إلى السجن، ويسلط علي زبانية السجن وجبروته، أو سيعدمني بكلتا يديه

تلعم ماسون في ذكره لطفولته وقال:

- لمَ يعطوني الطفولة، كنت أريد بعضًا من الطفولة، كنت مجرد دمية بشرية يتصرف بها ميشل فرونسوا وغيره كما يشاء

- لمَ لم تهرب إذن؟

- الكنيسة كانت وجهة الهروب من والدي الذي كان صخرة السقوط لي، كنت أخدم الرب، رغم صغري سني كنت أستمع لخطايا واعترافات الناس

كنت الوسيط بينهم وبين الرب لمغفرة ذنوبهم وخلصهم، وجدت عزائي
في الكنيسة، كنت مستمتعا بمساعدة الناس والاستماع لهم، وأطرد
الأرواح الشريرة عنهم

- ماذا؟ أعد ماذا قلت؟ ماذا كنت تفعل، كنت تطرد الأرواح الشريرة
أم أنني لم أسمع جيدا؟

- نعم كنت أطرد الأرواح الشريرة

سمعها مجموعة من الرجال الجالسين قريبا منهما فطلبوا مازحين من ماسون
رنجير أن يطردوا عنهم الشر:

- إن تكلمت أيها السيد هلا طردتنا عنا الأرواح الشريرة المتربصة بنا

ضحك الجميع بهستيريا، وقال جليبيب لماسون طالبا:

- أنا لي طريق طويلة عليك أن تطرد عني كل شر وروح شريرة تريد أن
تفسد علي الرحلة

قال له ماسون رنجير:

- يجب عليك أولا أن تعترف بخطاياك وأطلب من الرب المغفرة كي تسهل
علي المهمة

ضحك جليبيب وقال له:

- لقد أعدت عن طليبي: يجب أن أعترف بخطاياي لا لن يحدث هذا

فسأله ماسون:

- أخطاياك كثيرة، لهذا لا تريد أن تعترف

- لا ليس كذلك إنما أخطأت، وأخطأ الكثير في حقي، لكن جلسات الاعتراف هذه لا أحبها فهي تذكرني بطاولة الاعتراف في أقسام الشرطة، لكن بيني وبينك الاعتراف لك أيها البابا أفضل وأهون من الاعتراف على طاولة السيد الشرطي والمحقق

ضرب جليبيب يده على يد ماسون رنجير وضحكا مجددا ثم تذكر عبد القادر:

- الله يرحمك ويوسع عليك يا عبد القادر

طلب جليبيب من ماسون أن يكمل له قصة حياته بعد تركه الكنيسة فقال له ماسون:

- تلك حياة أخرى مختلفة كلياً عن الأولى حياة يُندي لها الجبين، رغم كل الشوك الجراح إلا أنني قطفت ثلاث ورود بعقب الجنة، تلك قصة تحتاج إلى ألف ليلة وليلة لسردها

- حياتك هذه مستفزة تجعل سامعها يريد أن يطالع على نهايتها

- وهي كذلك مستفزة إلى درجة أنني وجدت نفسي في بلد سار فيه والدي بالظلم أقتني من أثره علي أجد النهاية التي تُثلج صدري وعسى أجد الأجوبة لتراكمات الأسئلة والشك الذي يخنقني ويأرق ليلي.

في أواخر ديسمبر اتجه جليبيب إلى المطار بغية السفر إلى سويسرا، دخل المطار وأمسك بيده جواز سفره ينتظر رحلته بشغف، سمع أصوات شباب تعلوا وتقترب رويدا رويدا كانا رجلين أمن أمسكوا شابا رهن البحث كجلا يديه وجروه للتحقيق وتبعهم رجلين أمن آخرين مكبلين يدي شاب آخر كان هو الآخر رهن البحث، تسلل جليبيب من المطار وخرج مسرعا وهو يحدث نفسه:

- لا أريد أن أعود إلى ذلك السجن اللعين، أنا لست مجرما كي أعتقل أنا مجرد مواطن عبر عن رغبته في العيش والانتماء، ومارس حق التعبير، أنا لن أعود إلى غياهب السجن، الموت أهون من ذلك السجن

اجتمع جليبيب رفقة أصدقائه بعد منتصف الليل أمام الشاطئ امتطوا قارب الصيد متوجهين إلى الضفة الأخرى وهم يرددون:

- يا بلادي راني محقور، يا بلادي راني محقور

رحلة البربل إلى بلاد القبائل

في صباح جديد يتدفق بالنور يبعث في ضوئه نسيمات شتاء باردة لم تستطع شمس ذلك اليوم تدفئتها وصل إلى أعلى بحيرة على سطح الماء في الجزائر بحيرة ثامدا أوقلهم آسرتة جمال الجبال الشاخنة ولونها المختلط بين خضرة الأشجار وبياض الثلوج، من ثم اتجه ماسون رنجير إلى مدينة كان أول مرة يزورها منذ تواجده في الجزائر، وصل إلى مقصده ابتهج لمنظر المدينة وسكانها، أسرت ناظره تلك الثقافة الجديدة واللغة التي لم يعهد سماعها في العاصمة وسائر المدن، راح يتأمل لباس سكانها، البرنوس الأبيض المصنوع من الصوف الناعم والناصع تزين أجساد الرجال، أما النساء لبسن فساتين بيضاء من حرير ومن كل درجات الألوان مزينة بحاشيات مختلفة الألوان لففن خصورهن بقطعة قماش برتقالي اللون يدعى أمنديل لقبائل وعلى رؤوسهن قطعة قماش تشبه الخمار تسمى بلغتهم (ثافونارث) واضعات على رؤوسهن حلي من الفضة، ومتزينات بخواتم وأساور وقلائد من فضة، دنى رجل إلى ماسون وحياه وهو يصالحه بحرارة:

- أنسوف يساك غرثيزي وزو

فابتسم له ماسون وسأله بلغته الأم:

- ماذا تقصد بكلامك هذا؟ لم أفهم أنا فرنسي

فردّ عليه الرجل:

- أزول فلاك أرغورنغ

فقال له ماسون:

- يبدووا أنني سأحتاج إلى مترجم

ضحك الرجل وقال له:

- لا داع لمترجم سأكلّمك بلغتك الأم

استوقفه ماسون وقال له أنه يتقن اللغة العربية أيضا:

- أنا أتقن العربية أيضا، بدأت تعلمها في وطني ثم أتقنتها عند انغماسي في المجتمع الجزائري، الحق الحق أقول أنها لغة أحببتها وأدهشتني تراكيها وفتنني ثراء معجمها

فقال له الرجل:

- سأكلّمك باللغة العربية أعرف أنني سأخرجك بكلامي، لكن هذه هي الحقيقة مانقدروش نخبيو الشمس بالغربال أيها السيد، أنا معترب في فرنسا ولي تعاملات مع شعبه بحكم أنني أعيش هناك لكن التاريخ لن تُمحيه السنون والدماء لن تزيلها المياه ولن تتحول إلى ماء لهذا لا يمكن أن ننسى ما فعلته بلدك فينا

هم ماسون بالمغادرة ليسأل شخصا غيره أمسكه الرجل من اليد وحلف أن لا يغادر قبل أن يصطحبه إلى دار الثقافة ليريه أجود المأكولات الشعبية

وأهم الصناعات التقليدية لسكان تيزي وزو المعروضة بمناسبة يناير السنة الفلاحية التي توافق الثاني عشر من شهر جانفي من كل عام، لبي ماسون الدعوة واستمتع بأجواء المعرض تحت أنغام أفافا ينوفا للفنان إدير وراح يستكشف ثقافة هذه المدينة، توجه إلى قرية ميشلي مارا بالقرى المجاورة في أعالي الجبال التي تغزوها الأشجار الخضراء المختلفة في النوع والطول، كان مجموعة من الأطفال يلتفون بحمار فوق هذا الحمار فتاة صغيرة بلباس أمازغي مغطى رأسها جلست بالمقلوب على ظهر الحمار، لف الأطفال على الحمار وقادوه إلى منازل المداشر يتبعون الخضر و الفواكه و السميد أو الكسكسي، وهو ينشدون أغنية أنزار، وكلها قدّمت لهم العائلة مما جادت به من الخضر وغيره، يقومون بتليل الفتاة وصب الماء عليها تيمنا بنزول الغيث وأن تكون السنة سنة خير وغيث، ولما يُنهي الأطفال من جمع الخضر من العائلات تجتمع نسوة القرية لطبخن الكسكسي ويقمن بدعوة أهل القرية لتناول العشاء والتصدق به على المساكين والمحتاجين.

وصل ماسون رنجير إلى مدخل قرية ميشلي وجد عجوزا لا يختلف لباسها عن لباس نسوة المنطقة، على جبهة وجهها وخديها وذقنها ويديها أو شاما، كانت ترعى الأبقار، لمحتة من بعيد وتقدمت نحوه وبين ثناياها الهيبة تسأله:

- ماذا تريد أيها الغريب؟

تلعم ماسون وأجابها:

- أنا أبحث عن شخص

رفعت رأسها شاخنا ثم رفعت حاجبها:

- ومن هو هذا الشخص؟

تبعها ابنها الكهل وقال لأمه:

- سأتولى أمره يا أمي، من أنت؟ وما الذي جاء بك؟

أخرج ماسون البطاقة البيضاء من جيبه وأراها له:

- أريد أن أقابل هذا الشخص الذي في هذه البطاقة

- جاثوم، جاثوم البوم، أتريد أن تقابل هذا الحركي، اسمع جيدا خبي هذه

البطاقة جيدا وعد أدراجك، نحن لا نتعامل مع الحركي والخونة

- أرجوك مقابلي له أمر ضروري بالنسبة لي

- النجوا بروحك، هذه المدينة محرمة عليه وعلى أمثاله، هو رجل بلا أصل

ولا فصل، كان ملازما لضباط فرنسا اللعينة، أطلق على نفسه هذا الاسم

لما فيه من شر، لا نعرف من أي مدينة جزائرية ينتمي إليها، عذب الكثير

من المجاهدين كان الكلب المطيع والمفضل لفرنسا، أترى كل تلك الأشجار

المخضرة التي تغطي الجبال وتزين أبواب بيوتنا لم نصدق أنها ستعود خضراء

بسببه هو من أوقد النار فيها بأمر من فرنسا وهو وأمثاله من أحرق بيوتنا،

وبيوت الكثير من الجزائريين، كان ينتقل مع ضباط فرنسا في كل ربوع

الوطن لأنه من أخطر الخونة حركي سفيه نذل، هناك أخبار متداولة أنه

استقر في أحد مدن الشمال، امرأته خائنة الوطن والأحباب تأكل الغلة

وتسب الملة، هي من توشى بزوجات المجاهدين وتوشى بالمجاهدات وتقوم

باستدراجهن ووضع لهن نخا وكميننا كي يقبض عليهن عساكر فرنسا ويسجن

ويُقتلن ويُعذبن، وقد شاركت في تعذيبهن وأمرت عساكر فرنسا بتركيب أسلاك الكهرباء على حلقات صدورهن ويشدهن من شعورهن إنه عمل غير صالح، نحن قوم مجاهدون وذاكرتنا معبئة بالثورة فلا أنسي ولا ننسى ما حدث وما قاسيناه من أجل أن نتنعم بالحرية وننال الاستقلال، كل نساء القرية ثوريات جارتني حملت السلاح وجالت الجبال والغابات كانت امرأة تجمع مشاركات القرية لتمويل الثورة حفرت حفرة أمام عتبة بيتها وأدخلت المال وغطتهم بالتراب أوصت جارتها قائلة

- مال المجاهدين موجود تحت الأرض أمام عتبة البيت أنت المكلفة الآن بجمع التبرعات والإطعام أنا سأخرج للجبل خرجت تجاهد في سبيل الوطن مدة سنين ولم يُلقي لها أثر من يومها ظنوا أنها ماتت وقتلت من طرف فرنسا بعد قرار وقف إطلاق النار ونيل الاستقلال عادت ناوردية الى قريتها بتيزي وزو وأقنا لها حفلا بهيجا، وهناك امرأة إبان الثورة ذبحت الدجاج وطبخت العشاء والكسكسي سمعت طلقات نارية ثم سمعت دق الباب فتحت الباب وجدت مجاهدا لا تعرفه حاملا سلاحه أدخلته البيت وقدمت له العشاء وبعد أن توقف إطلاق النار من عساكر فرنسا هم بالخروج ليلتحق بزملائه قدمت له المرأة كل العشاء ولبثت هي وأولادها الصغار دون الطعام

انظر إلى هذا البيت كان حطاما قبل أن نعيد بناءه تحول إلى ركام بفعل القنابل التي تهوي من السماء تُلقِيها مروحيات فرنسا نحو المنطقة سقطت قبلة على سقف البيت هوى السقف على قرية لنا كانت تُمسك ابنا الصغير وتُغني له الأغنية التراثية "قشولة" فأتت وابنها، وتوالت القنابل وجعلت من فيه كالطحين المتناثر.

شكر ماسون الرجل وهم بالمغادرة بعد أن دعاه الرجل ووالدته لتناول طبق الشرشم المُقدم على طبق فخاري بملاعق خشبية المطبوخ من حصاد الأرض من البقوليات بمناسبة السنة الفلاحية الجديدة تيمناً لأن تكون سنة خير وسنة فلاحية ناجحة، ولما خرج من منزلهم داعب الأطفال الذين كانوا يلعبون فطلبوا منه أن يركب على الحمار، فركب وراح الأطفال يقودونه بين مسالك القرية الضيقة وهم ينشدون أغنية أنزار، انسليخ ماسون من شبابه ورجع بنفسه إلى زمن الطفولة وأطلق العنان لروح الطفل الذي بداخله ينصهر مع الأطفال المحيطين حوله، أطلق ضحكات تشبه ضحكات الأطفال ويردد نشيد أنزار مثلهم في لحظات من الزمن سرقها من حياته الآنية ليخطف الطفولة بقوة ويهدبها لنفسه وهو في قمة التناسي عن كل ما يُعكر صفوه ومزاجه، فراح يصيح ويضطرب فرحا مع الأطفال الذين لفوا من حوله بكل ما أوتيت حنجرته من قوة تكاد تنقطع حباله الصوتية من علو صوته، ثم طفق يصدر أصواتا كالبلابل والطيور والعنادل وراح الأطفال يقلدونه ويغردون كما تغرد الطيور والبلابل فاختلطت لحنهم مع لحن البلابل التي تُغني في أشجار بلاد القبائل، ثم جلس على أرجوحة صنعها الأطفال بحبل ربطوه على أغصان الشجرة وطلب منهم أن يدفعوه بقوة ففعلوا فأطلق ضحكات تعلوا كلها دفعوه، أخرج مفكرته وراح يكتب فيها:

- اليوم خُضت رحلة فريدة من نوعها، سافرت إلى بلاد القبائل فأيقظ الأطفال البلابل داخلي، أولئك الأطفال الذين لم يكبروا في داخلي، ففي داخلي مجموع من الأطفال حُرِّموا وعُدِّبوا وسُلبوا من طفولتهم فكبرت مع وجدان مضطرب ومهتز، رحلت أرمم بعضاً من هذا الوجدان وأطلقت الأطفال بداخلي هذا يمرح وذاك يصرخ وآخر يجري وأولئك يضحكون

فرحين كالبلابل في سربٍ يُحلقون في سماء الطفولة فسميت هذه الرحلة
رحلة البلابل إلى بلاد القبائل نسبة البلابل في داخلي.

اللقاء بجائوم اليوم

وصل ماسون رنجير مدينة قالمة وما إن وطئت قدماه ترابها قابلته لوحات فنية لمجاهدين على فرسان كُتبت عليها "الخيال لا تحمل فارسين والفارس لا يحمل رايتين" ولبث فيها أياما يتمتع بالسباحة في حمامات قالمة الطبيعية راح يكلم نفسه:

- عظيم هذا البلد المعجزة، عظيم بر وبحر ثلج وصحاري فصول أربعة في يوم واحد ثقافات متعددة خيرات ونفط فصاح قائلًا وهو داخل حمام دباغ:

- آوعلكوم القالمة، آوعلكوم القالمة

فردّ المتواجدون عليه هناك:

- الله أكبر، الله يرحم الشهداء

اشترى ماسون رنجير عمامة وقشايبة من السوق الشعبي للمدينة لبس القشايبة واستعان بالتاجر لوضع العمامة على رأسه. تعرّف على نوري شاب طموح في أول العشرينات موظف في فندق، رافقه مدة مكوثه في قالمة، وطلب إجازة من مدير الفندق تلبية لرغبة ماسون في أن يرافقه إلى مدينة عنابة،

ومن أجل أن يكون له دليلا سياحيا رغبة في أن يزور المدن المجاورة لها، وصلا إلى مدينة عنابة، حجزا في فندق في وسط المدينة، في اليوم الموالي توجه إلى مكتب المجاهدين في المدينة لمقابلة مدير المكتب، كان ماسون الشخص الثالث الذي يصل إلى المكتب وبعده توافد الكثير أغلبيتهم من المجاهدين، كان الشخص الأول شيخ بتياب رثة وممزقة زاحفا خفين قديمين وجهه مخطوط بخيوط التجاعيد تقوس ظهره، دخل إلى المكتب وخرج فورا بعد أن جادل المدير السمين والضحيم الهيئة الأصلع الرأس والمنتفخ البطن كأنه حامل في شهره التاسع، له عادة وضع أصابعه داخل منخاريه الواسعين، تفاجأ برؤيته تذكر الشيخ العذاب الأليم الذي تلقاه إبان الاستعمار الغاشم، تذكر يوم بكّوه بالأغلال وأشربوه الصابون وجلدوه حتى ازرق جسده كليا:

- أهذا أنت

- نعم، أنا

- أنت الذي كنت تطعمني زقوم فرنسا، أنت الذي كنت تجلديني يا ابن وطني، خسارة عليك

- نعم أنا، شوف، شوف ما أحلاني، كيف أصبحت مديرا عليكم، أنت الذي كنت تقول أنك تجاهد واجبا على وطنك وحبا لها، راك اليوم تأتي من أجل أن تقطف ثمار جهادك، سوف أكون كريما معك لا تقلق

- تفوه عليك يا الحركي، الجزائر لازمها تصفي، ولازمها حرب جديدة ضدكم تنقيها منكم، يا حزني عليك يا التاير

خرج ووجهه متقلب من الغيظ، هرولت إليه زوجته التي لا تختلف حالتها عن حالته وهي تسأله

- أبشرني، هل ستقبض بعضا من المال جراء جهادك

- لا، لم أستطع أن أطلب شيئا من وطني، جهادي واجب مني نحو وطني، لا أريد جزاء فهذا أقل ما يمكن أن أقوم به لوطني

- يا رجل ما بك؟ المال الذي ستناؤه من أجل علاج حفيدنا، لا حل غير هذا الحل

كاد الرجل يسقط أرضا، نهض رجل من الكرسي وأجلسه مكانه وقال في حزن وبث شديد

- يفرجها ربي، يفرجها ربي إن شاء الله

ومسن آخر جالس قدام ماسون راح يتكلم جهرا مع رجال آخرين:

- من سيسلفو وأنا نطاندي

سأله رجل عما ينتظره فردّ عليه:

- قد أحرقت بيتي بالكامل من طرف فرنسا ونصف أهلي قُتلوا ومنهم من مات حرقا مع احتراق البيت، لأنهم اكتشفوا أنني وهبت بيتي من أجل أن يُطبخ للجنود الجزائريين، قدّمت طلبات كثيرة من أجل أن أعيد بناء البيت، ومنذ سيسلفو وأنا نطاندي، وإني رجل مسن لا أستطيع العمل بسبب إعاقة حربية تحول بيني وبين عملي. وفي آخر الطابور كهل في بداية

شيخوخته طلب من موظف الاستقبال أن يقرأ له المكتوب في الوثيقة،
وضع الموظف نظارته الغليظة وقال:

- أيها السيد إنها مكتوبة بالعربية وأنا لا أتقن قراءة اللغة العربية جيدا، ولا
أنجذب للمطالعة بها، أنا أبتاع الجرائد الناطقة بالفرنسية وأطلع الكتب
الفرنسية، لا أستعين باللغة العربية

ثم نادى زميلا له في داخل المكتب:

- يا سي عيسى قرانا الورقة هذي، نت تعرف للعربية، أنا خاطيني

شرح الموظف المكتوب في الورقة للكهل، واسترسل موظف الاستقبال
يتفاخر لتمكنه من اللغة الفرنسية قراءة وكتابة:

- أنا أتقن اللغة الفرنسية أفضل من الفرنسي بحد ذاته قراءة وكتابة، إنها لغة
الجمال، غنيمة حرب وصفة تحضر لنا

أسكته المجاهدون بقولهم:

- قدّمنا الدم والأرواح، والنفس والنفيس وحررنا الجزائر من أجل أن
تقول أن الفرنسية دليل تحضر بيدوا أنك من جماعة الحركا

فرد عليهم الموظف:

- صلوا على النبي يا جماعة، إذا أخطئت فأستغفر الله، هدوء الله يرضى
عليكم

ثم تحدّث مع نفسه وهو يُرتب مكتبه بغضب:

- لوكان درت فيزا لفرنسا، وتزوجت رومية لوكان راني بنخير لابس عليا
لوكان راني مقابل لاتوريفال في باريس مع البايشة وتحلى المعيشة، لوكان
مارايش مقابل وجوه الميزيرية هذوما غير يهدرو على الثورة والبنادق
والرصاص أوف

ردّ عليه رجل فقال:

- والله ما عندك النيف يا السامط، رح لفرنسا تاعك وقيلنا

فقال له الموظف:

- آو راني نهدر مع روجي

حان دور ماسون رنجير دخل إلى مكتب المدير وجده يمسح وجهه من
بُزاق المجاهد، ولم يزل عنه أثر الغضب، جلس على الكرسي، نفاطبه المدير
بوقاحة:

- من قال لك اجلس أيها السّخيف

عدّل ماسون رنجير جلوسه ووضع رجلا على رجل وأخرج سجارته ليدخن
بدأ بإشعالها، فاشتعلت نار الغضب عند المدير وحاول طرده، لكن ماسون
رنجير طفق يدخن بيد ويقلب بطاقة بيده الأخرى ونصحه بأن يهدأ وإلا
سوف يرى ما لا يُعجبه وقال له:

- لي أمانة بيضاء لك، لكن أفعالها سوداء

تعكر مزاج المدير وهدّده بأن يطلب الأمن أو سيقوم بضربه إن لم يحمل نفسه ويغادر فقال له:

- كيف تتجرأ على هذا؟ يبدو أنك لا تعرف مع من تتكلم أيها الوقح النذل يدي بها العذاب الأليم تحترف إلحاق السوء، وإن لم تغرب عن وجهي على الفور سأطلب الأمن ولا تلم إلا نفسك

وقف ماسون رنجير ووضع البطاقة بقوة على الطاولة وضرب على البطاقة و دنى رأسه إلى وجه المدير وقال له في غضب:

- بلى أعرفك جيداً، ولو كيف لا يُعرف النذل أيها الوزغ، يا وزغ ميشل فرونسوا، يا كلب إريك موتانا المدلل، ولو وجه الخروف معروف

علق اللعاب في حنجرة المدير من هول ما سمع مدّ يده ليلتقط البطاقة فسبقه ماسون رنجير وسحبها وقال له:

- جاثوم البوم، أو وزغ ميشل فرونسوا كيف تحب أن أناديك أيها الشريف حلّت بالمدير الرجفة وألقى نظرة إلى خارج مكتبه حيث المنتظرون والعمال، أغلق الباب وسحب الكرسي وجلس ثم شرع يحاول أن يُفاوض ماسون:

- اسمع أيها الولد، اللي فات مات أعطني البطاقة وسأملئ جييك بما يقر عينك

فرد عليه ماسون في حزم:

- أتريد أن ترشيني، أنا لست للبيع، ربما بعت بلدك لميشل فرونسوا لكن ابن ميشل لا يحمل وزر أبيه، بل أتى ليغسله

- لا تكن عنيدا، أنت شاب ذكي، ابن ميشل فرونسوا كنت أو ابن السلطان المال، المال يا إنسان، الدراهم تدير الطريق في البحر، وتدير الطريق في السما وكما عندك تسوا، أنا أعرف أنك لست بحاجة للمال فأنت ابن ضابط ثري، لكن مول التاج ويحتاج، أعطني المبلغ الذي تريد مقابل هذه البطاقة

- وماذا ستفعل بها؟

- سأحرقها ويحترق الماضي الأسود معا

- مهما حاولنا أن نهرب من الماضي ونحرق دفاتره وندفنه، لكننا نجده يتبعنا، وتترك أثرا نصادفه في عز سلطانتنا وجبروتنا، هل أنت خائف على سمعتك ومكانتك

دق المنتظرون الباب وهم منزحجين من تأخر ماسون رنجير في مكتب المدير، رد عليهم المدير بقسوة ونعتهم بالمتسولين

- ما بكم؟ أنا من يقرر مدة مكوث الزائر عندي، أيها المرتزقة

قال له ماسون:

- عيب، يا جاثوم البوم، عيب يا السعيد المجاهد، أهنتك على اسمك الجديد الذي سميت به نفسك، والله عيب وعار عليك، ليس من اللائق نعت من

حرك من عبوديتك لميشل فرونسوا وأجندة فرنسا أن تنعتم بهذه النعوت،
هي نعوت تليق بك أيها الثوري المزيف

اهتزت خدود المدير السمينية من التوتر، طلب أن يعطيه البطاقة فرفض
ماسون رنجير ذلك جملة وتفصيلا، رمى ماسون رنجير السيجارة على أرضية
المكتب وأطفأها برجله وجعل البطاقة في جيبه الداخلي في معطفه وهمَّ
بالخروج، وضرب له جاثوم اليوم موعدا في النار الكحلا ليلة ذلك اليوم،
ترجّاه نوري أن يعدل عن الذهاب إلى المكان المتفق عليه لكن ماسون
أصر على الذهاب، وصلا تعجبا من المكان كان كوخا بسيطا نظرا في
بعضهما البعض وقال نوري:

- لنعتقد أرواحنا، أنا لست مرتاحا أبدا سيقتلونا في هذا الكوخ ويدفوننا
ولن يسمع بنا أحد، هذه مكيدة منه، هدّأه ماسون ونصحته أن لا يكون
جباناً، فتح الباب كان الظلام دامسا، دخلا فأغلق الحارسين المسلحين
الباب ووضعنا مسدسيهما على رأس ماسون ونوري، صاح نوري من الخوف
وأصابه قرح في المعدة وطفق يتقيأ من الذعر، وكان الحارس الثالث
يتفقدتهما إن كان بحوزتهما سلاح، وراح يسبُّ نوري لأنه بالله بالقيء،
وتوسل نوري منهم أن يتركه وشأنه:

- أنا شاب بسيط لي طموحات لا أريد أن أموت الآن، من فضلكم
اتركوني أرحل ، قل شيئا يا ماسون ألم أنك عن ألا تأتي إنها مكيدة من
جاثوم اليوم.

اقتدهما إلى تحت الأرض كان ملهى ليلي سري يمتلكه جاثوم البوم تحت الأرض، كان جاثوم البوم جالسا على الطاولة رفقة زوجته حميدة، تحيطه الغرف الضيقة طلب جاثوم البوم من الحارسين أن ينزعا المسدسين من رأس ماسون رنجير ونوري، كان ماسون ثابتا وهادئا جدا ذو نظرات حادة، تقوست قامة نوري من أثر المغص المفاجئ في معدته، وتباطأت مشيته بسبب تبلل سرواله من أثر البول، رحب جاثوم البوم بماسون وطلب من خادمه الواقف على يمينه أن يأتي بكرسي لماسون تقدّم ماسون ونوري نحو جاثوم البوم و هزّ رأسه أمرا نوري بالابتعاد والجلوس بعيدا عنهما، جلس ماسون على الكرسي وقال لجاثوم البوم معاتبا:

- أبالأسلحة تستقبل ابن سيّدك يا عميل والدي، يبدوا أن والدي لم يُعلمك أنّ ابنه هو سيّدك أيضا، كان عليك أن تفهم هذا أيها الذكي، سيغضب ميشل لاستقبالك ابنه بهذه الطريقة وأنت تعرف كيف سيُعذّبك

- أريد سيجارة

- أيها الخادم قدم له النوع الأفضل

- لا قدمها لي أنت، قف واركع نحوي وأشعلها وهي في في كما كنت تُشعلها لوالدي ولن اتخذتهم أسيدا لك

ضحك جاثوم البوم من طلب ماسون وقال له مستغربا:

- هل تطلب مني أن أشعل لك السيجارة وأنا مالك هذا المكان وسيده، هل تريد أن تجعل مني أضحوكة بين المتواجدين هنا وبين عمالي وأنا ربهم

- ليس غريبا عنك، أليس من عاداتك أن تشعل سيجارة ميشل وإيريك
والقائمة طويلة

قامت امرأته حميدة لتشعل السيجارة التي كانت على فم ماسون، أوقفها
زوجها وقال لها:

- لن تشعلي السيجارة، لا تهيني نفسك وتهينيني معك

- من أجل البطاقة، من أجل ألا نهان أمام الملاء في الخارج

ضحك ماسون مستهزئا منهما وقال:

- أنت يا جاثوم اليوم أهنت نفسك وظلمتها، منذ أن سولت لك نفسك
الدينئة بالتجارة ببلدك تجارة بور، لكن من أجل البطاقة يأبها الجاثوم قف
وأشعل لي السيجارة

وقفت امرأته ودنت إليه وأشعلت الولاعة، حرك ماسون رنجير رأسه يمينا
وشمالا وقال لها:

- لا، لا، لا، أنت أيتها السيدة عليك أن تمسحي لي حذائي فقد رفسني
حراسك كما يرفس الثور الأرض وقد لطمخا حذائي، وأنت أيها الجاثوم لا
تصنع الكبرياء فأنت متعود على ذلك، ولست غريبا أنا ابن سيدك...
البطاقة تستحق

- أنت تريد أن تذلنا في عقر دارنا؟

- من أجل البطاقة البيضاء، ألا تستحق

رضخ جاثوم البوم وامرأته لطلب ماسون رنجير تحت ذهول المتواجدين، تعجب الكل وشهقوا مما رأوه للتو، وتساءلوا من هذا الرجل صاحب العمامة الصفراء والقشايية البنيّة الذي كسر رقبة المتجبر الجاثوم؟، وأوقفه وأشعل سيجارته وطلب منه أن يعدّل عمامته، ومسحت زوجته حذاءه، صاح جاثوم البوم في وجه المتواجدين ليكسر لطخة الحرج عنه:

- إلى ما تنظرون؟ كل إلى شغله

نوري كان يتأمل بخوف ما يحصل ويدعوا أن ينهض ماسون من مكانه ويغادرا المكان حالا، وجه له الرجل الجالس على نفس الطاولة ضربة بيده على صدره، صاح نوري من الخوف وسأله:

- ماذا تريد؟ لما ضربتني؟ ماذا هناك؟

راح الرجل يستجوب نوري ويحدثه عن جاثوم البوم:

- من هذا السيد الذي رضخ له جاثوم البوم؟

- إنه أجنبي، اسمه ماسون رنجير هو أحد من معارف جاثوم البوم القدامى

- ولم يرتدي العمامة والقشايية

- لا أعرف أسأله أنت

حمل نوري القارورة وبدأ يشرب، بزق في أول جرعة شربها وسأل الرجل مستغربا عن مذاق الشراب:

- ما هذا المذاق الغريب لهذا العصير، وما هذه الرائحة الغريبة التي تنبعث منه، تشبه رائحة تسمم الفواكه

- إنها رائحة لتسمم العنب، إنه عصير الكروم، يبدو أنك كافي لا تعرف الخمر والكحول

- ماذا أهذا خمر، يا إلهي سامحني واغفر لي، لم أكن أعرف أنه خمر

- غبي أنت، ماذا تظن أن يسقوك هنا في هذا المكان، سيسوقك نحرا وبعضا من المخدرات، هل كنت تنتظر ماء زمزم أو لحم المهدي غبي حقاً

- ما هذا المكان؟

- إنه الملهى أيها الغبي، كيف تأتي لمكان لا تعرف ما هو؟

- إلهي لهذا السبب الأضواء خافتة جدا هنا والنساء مختلطات بالرجال ورائحة الدخان تكاد تتشقق منها الجدران، وأغلبهم يتمايلون من السكر والتخدير

- إنه ملهى سري ورثه جاثوم اليوم من أحد ضباط فرنسا بعد الاستقلال، وتولت امرأته حميدة إدارته، اسم على غير مسمى فلا حمد لأخلاقها ولا مروءة في وجهها، طلقها الجاثوم مرارا وتكرارا ولا يطيقان العيش مع بعضهما البعض، ما يجمع شمل زواجهما هو هذا الملهى فقط لهذا عاود الزواج منها، عجوز من الغابرين شرها قائم منذ ولدت، تقوم باستدراج الفتيات لتوظيفهن في البغاء، تذهب إلى مدن بعيدة وتخطب الفتيات من عائلات شريفة وتقوم بإحضار أولياء البنات إلى بيوت ليست ملكا لها

لاستقبال عائلات الفتيات وتقوم بعرس بسيط مزيف ثم تحظر الفتيات إلى هذا الملهى الذي يُصبح سجنًا أبديا لهن وتناجر بهن في البغاء وتُدخل ملايين عديدة، وتقوم بخطف فتيات بني عداس المتسولات وتستدرجهن بحيلة خبيثة وتقوم بتقديم مساعدات لهن، لكسب ثقتهن ثم تطلب منهن أن يرافقها إلى بيتها لإعطائهن المساعدات فتأتي بهن إلى هنا ولا يخرجن من هذا المكان إلا بعد أن يشخن أو يمرضن أو يخرجن ميتات، تساعدها في ذلك صديقتها الأكثر شرا إميلي بنت فلذن تلك القصيرة التي تقف أمام الرجل الطويل التي ترقق صوتها من أجل الإيقاع بالأثرياء، تنبعث منها رائحة نتنه كرائحة جيفة الخنزير، ويساعدها صديقات أخريات مقابل دنائير معدودة، تضمران العداوة لبعضهما البعض وتحتضنان بعضهما البعض بأحضان النفاق، تجمعهما المصلحة كلاهما شياطين الإنس معادن صدئة، تدعيان الملائكية، وهن برفقة نساء أخريات سارقات وخائئات ومسترزقات ونصابات ترضعن الخبث والحباث، نفوسهن خسيصة ثوارى خلف الأقعة الثمينة، ولا يُهدأ لهن حال حتى يرقصن على أشلاء ضحاياهن، ولا يغيرهن الزمان ولو ألبسوهن الكوفية والتاج، فهن عاصفة هوجاء يحين كل من في طريقهن ولا يخفن لومة لائم، ويعبثن مع العابثين ويروجن لأحداث وأحاديث الافتراء والبهتان وتهمسن بالكذب والزور ويمشين بالنميمة والغيبة فيفرقن كل جمع ويجمعن كل شر، إلى أن يأذن الله ويعاقبهن بعدالة السماء، كلهن وأمثالهن ممن نصبن قرون الشيطان على رأسهن يدرن في حلقة شريرة قدرة واحدة، كل منهن أقدر على الأخرى

- يا للهول، أكل هذا يحدث بصمت عن العالم الخارجي، من يأخذ بحق المظلومات هنا، آي أشعر بالإسهال.

راح جاثوم البوم يشرب كأسا تلوا الأخرى من الخمر حتى جن عقله من السكر وأطلق العنان للسانه ويقول معترفا:

- والدك ميشل فرونسوا كان قدرا جدّا، أرغمني على إحراق غابات ميشلي وضواحيها بتيزي وزو، وأجبرني على اقتحام القصبّة بالعاصمة ليلا لأتخرى على المجاهدين وأخط له كتيبة تفصل مسالك القصبّة

وقفت امرأة جاثوم البوم واقتربت من ماسون وهمست في أذنه:

- لك كل هذا الحريم تأتيهن أنى شئت بالمجان، ولك صندوق يفيض بالمال والمجوهرات

- ألهذا الحد البطاقة مهمة إليكم، اسمعي أيتها العجوز النخرة، لي رأي آخر في كل هذا، أنا أطلب أن تفتحي الأبواب الموصدة وتفكيني سراح الفتيات

- لا أبدا، مستحيل، الفتيات مصدر رزقي وممكن قوتي، أنظر حواليك مقامات وأثرياء وناس مهمون

- إذن عليّ أن أتفاوض مع زوجك، أغربي عن وجهي حديثي مع الرجال ليس معك

طلب جاثوم البوم من خادمه أن يصب له كأسا آخر، وامتنع الخادم عن تقديم الخمر له خوفا على صحّته فقال له:

- صب لي كأسا آخر أيها اللعين، لا تزعجني بنصائح الطبيب

ثم أردف في الكلام يحدث ماسون عن والده ويروي له مقتطفات من حياته إبان الثورة وتعامله مع فرنسا لصالحها وبين الكلبة وأخرى يجتر الحروف ويعظُّ على لسانه ويطلق رذاذاً بلعابه قوياً انتشر على الطاولة وعلى كل من كان قريباً منه

- باباك ميشل فرونسوا كلب وليد لكلب، أرغمني على العمل الدءوب كالخمار الذهبي لإجهاض الثورة، واغتيال ثوارها... باباك رخييس وليد رخييس أجبرني، أجبرني...

لم يكمل كلامه لأنه سقط على جانبه الأيسر من شدة الثمالة، ساعده خادمه وأقعده على الكرسي ثم حاول الوقوف ونادى حميدة، ردت عليه وهي تمسك بيده:

- أنا بجانبك، هل أنت بخير:

- حميدة خذيني إلى الحمام أريد أن أتبول

ضحك المتواجدون عليه، ولم تستطع أن تكبح ضحكهم، ولا أن تضمهر الحرج عليها، ذهبت به وقضى حاجته، وأعادته ثم أجلسته على الكرسي شرب نصف الكأس وسال النصف الآخر عليه وعلى ثيابه لأنه لم يمسك الكأس بإحكام، ومال على جانب ورفع شقه وطفق يُخرج الريح النتن، وضع خادمه يديه على أنفه لكي لا يتأذى من ريحه وقال:

- هذا مقرز

نظرت امرأته إلى الخادم وقالت له وهي مستهجنة تصرفه:

- الحجرة من عند الحبيب تفاحة، والحجرة من عند سيدك تفاحة

بالغ جاثوم البوم في إخراج الريح وضع المتواجدون أنوفهم داخل ثيابهم
تفايدا للرائحة الكريهة القوية وتهامسوا بينهم بإهلاس وسخرية منه:

- رائحته أكره من روث الثور البري، لن تفيد المعطرات في طرد هذه
الرائحة الكريهة، أمر فضيع لا يُحتمل، سنختنق، ثم أردف جاثوم البوم
سرده لماسون رنجير:

- باباك رخيس وليد رخيس أرغمني على مداهمة بيوت الرجال واستحلال
نساءهم له، وأراد أن أملكه أختي جارية له، فأجبرني أن أهربها إلى الصحراء
وزوجتها بمجنون، وقلت له أنها هربت ولم أستطع أن أعر عليها جلدني الحقير
وعذبي مثلها كان يعذب المجاهدين والجزائريين صعقتني بالموجات
الكهربائية وعاقبني بالتجويع والضرب بمقامع من حديد وقال لي أنه لم
يصدقني وأيقن أنني عمدت على تهريبي أختي، لأنه يعرف صفات الجزائري
الغيور على محارمه، مهما كان خائئا فلن يرضى بالسوء لأخته أو نساء عائلته
حفاظا على شرفه، وطلب مني أن أقتل أخي المجاهد بالمقصلة كي أثبت
ولائي له، والدك صنع مني ندلا قتلت أخي أمام والدك وأمام عساكره بدم
بارد كنت مرتجفا جدا ومرهوبا لكن أخي كان صامدا ولم يهب الموت
بل كان يردد الشهادة وتحيا الجزائر، طلبت منهم أن يعصبوا عينيه كي لا
يراني، فعلوا ذلك وقال لعساكر فرنسا، أخي سيثار لي، قتلته بدم بارد، ولو
يدرك أن أخاه الذي بنى عليه الآمال أنه سوف ينتقم له هو بنفسه الذي
فصل رأسه عن جسده بالمقصلة، نشف الدم من جسدي وتاه فكري،
أحسست بالقذارة من نفسي وكرهت نفسي ووجودي تمنيت لو قتلت نفسي

بدلا منه، لكن لا خيار لي كنت مضطرا لو لم أقتله لكنك المقتول من طرف فرنسا، كنت مضطرا أن أكون في صف فرنسا لأنها كانت الكفة القوية في ميزان الحرب آنذاك، والدي وعمامي، وأحوال السبعة كلهم قُتلوا في الحرب قتلهم فرنسا لأنهم مجاهدين، لم أحبذ أن أموت أنا أيضا فجنحت عن الجهاد والمجاهدين وانحرفت وانحزت إلى فرنسا لأضمن بقائي قيد الحياة حاولت امرأة جاثوم البوم إسكاته، لكنه دفعها بيده وقال لها:

- دعيني أتكلم أيتها الخثالة، لست بمختلفة عني كنت أقدر مني في خيانة الوطن، تبا لذلك اليوم الذي عرفتك فيه، كنت وصديقتك التي لا أمل فيها تلك التي غيرت اسمها إلى إميلي تسكان النبيذ لجنود فرنسا أيتها الغاوية، القلائد الذهبية التي في جيدك والأساور التي بيدك وانخواتم هي ملك النسوة اللاتي ختنهن إبان الثورة، أنت امرأة في جيدك جبل من مسد ستكونين وصديقاتك حمالات الحطاب

سقط ماسون على الطاولة وارتطم رأسه عليها وأسقط زجاجات الخمر، ثم تنفس بصعوبة، لم يحرك ماسون رنجير ساكنا كان يستمع لكلام جاثوم البوم، ساعده خادمه وعدل جلوسه وقال لماسون رنجير:

- كلكم، كلكم شياطين تتربصون بخيرات البلاد، والدك السارق يسلب مني المجوهرات التي أسرقها من عمليات التفتيش لبيوت المدنيين، ويوسعي ضربا ويتوعدني بالقتل دون سبب، لقد أشبعني الشتائم والسب والضرب والعقاب، لقد قتل الكثير من الأبرياء إنه حجر جهنم لقد قتل الأطفال والرضع حديثي الولادة، لقد أرغمني على زرع الألغام بدل الأشجار

اهتزت سمنة جسد جاثوم اليوم ضحكا وراح يسترسل شامتا من والده:

- لكل فرعون موسى، الرخيس تاع باباك ميشل هاهاهاه، الحقيب ميشل أذله رجل فخل قوي مجاهد مغوار صقر في سماء الجبال وأسد شرس في حرسه على مملكته، تشيع حبا بالجزائرية والغضب يتأجج من نخاع عظمه على وطنه استطاع أن يذله ويكسر قوته، قام بتجريده من مقامه وأسقط عنه قناع القوة والهيبية، لقد أسقطه علي في قاع البير هاهاهاه لقد سقط ميشل في البير إوهرايان وفقات هوارية عينه، من ذلك اليوم قدم استقالته وتوالت الخسائر على فرنسا، توالت عليه السقطات ورجحت كفة الانتصار لصالح الجزائر، لقد كنت ذكيا جدا وثعلبا ما كرا، أقسم لك أنني نفذت من فرنسا واستطعت أن أفلت منها وأخرجت نفسي من براثها القدرة وفصلت نفسي عنها كما تُفصل الشعرة من العجين، لقد لمعت اسمي ونجوت من مأزق، وحرصت على أن لا يكتشف أمر خيانتى لوطني وزخرفت صورتي وسافرت إلى هنا عنابة وانضمت إلى جنود التحرير، هاهاهاه أنا نقرأ العقوبة

نظقت امرأته وقالت لماسون رنجير:

- لا تصدق كل ما يقوله إنه يهذي من شدة السكر، فرنسا التي ادعت عليه أنه حركي وخائن وفبركت له تلك البطاقة البيضاء التي تدينه، أرجوك أعطنا البطاقة ولتغادر

- البطاقة في مأم، إنها في مكانها المناسب

زجر جاثوم اليوم حميدة قائلا:

- اسكتي أيتها اللعينة الخائثة كنت شريكة في عمليات الخيانة، دعيني وشأني،
أتريدين أن أذكرك بماضيك الأسود، أنا، أنا أقول الحقيقة،

- أنت مثل، يجب أن نغادر إلى المنزل لأنك ننفوه بكلام سخيف لا أساس
له من الصحة

- اتركييني وشأني، أنا أعرف جيدا ما أقوله، بل بالعكس عندما أكون ثملا
أقول الحقيقة وبكل تفاصيلها دون وجل ولا نخجل، اسمع يا ماس، ماسو،
أو ما اسمك، يا ابن الكلب ميشل، الدنيا مع الواقف والواقف في ذاك
الوقت كانت فرنسا أنا كنت معاها، وبعد سنوات الحرب بدأت فرنسا
تخسر وعلى النقيض الجزائر بدأت توقف، وولات هي القوية والواقفة، وأنا
بدلت الفيستا وقررت نكون في صف الجزائر والمجاهدين وكنت معاهم
لأنهم هم الواقفين... الدنيا مع الواقف يا حبيبي وأنا نختار نكون مع من
هو واقف

نادى نوري ماسون طالبا منه أن يرحلا، لكن ماسون لم يلتفت لنوري
وقال له الرجل الجالس أمامه:

كيف يُجيبك؟ لن يغادر صديقك حتى يأمره جاثوم اليوم لأنه نذل يظن
أن الناس عبيدا يحظرون بأمره ويبرحون المكان بأمره

أخرج الرجل بنديقة من حقيبته، وقف نوري ذعرا وقال له:

- هل ستقتلني؟ ما هذه المصيبة يا إلهي؟

طمأنه الرجل:

- اجلس أيها الجبان هذه بندقية للبيع، لا أتذكر ما اسم المجاهد الذي حارب بها، هنا يتم بيع وشراء البنادق والأسلحة وأشياء كثيرة في مزاد علني سري، قل لي بأي ثمن تريد شراءها

- لا أريد شراء أي شيء أريد المغادرة فوراً، بندق وحمور وفسق وبيع وشراء ورائحة أرجل، وروائح العرق وروائح كريهة يا للقرف أنا في كابوس، إنهم شرذمة أصحاب هذا المكان

داهمت الشرطة المكان أطلق الخادم رصاصات إلى السقف لتحذير الشرطة اختبأ نوري تحت الطاولة وأغمي عليه من الخوف، أمسك ماسون رنجير بيد الخادم واستطاع أن ينزع المسدس من يده ووكز الخادم أرضاً ووضع المسدس على رأس جاثوم البوم وأمر المتواجدين هناك والحراس الذين كانوا بالداخل أن يلقوا بأسلحتهم أرضاً، فعلوا ما طُلب منهم، واعتقلوهم أجمعين، شكرت الشرطة ماسون رنجير على تعاونه معهم. واستدعته وزارة العدل بالعاصمة ليكون شاهداً على قضية جاثوم البوم الذي اعترف بكل جرائمه، وفي طريقه للعاصمة التقى بطفل يتسلق جدار مدرسة ابتدائية غضب عليه حارس المدرسة طرده وهو يقول له:

- سأكسر رجليك أيها الطفل ألم أقل لك لا تعد إلى هنا، لقد أتعبتني مطاردتك

وقف الطفل على رصيف الطريق حافي القدمين وممزق الثياب والمتسخة بالتراب، وجهه يغطيه الغبار ودخان المركبات، يده خشينتين، يبيع بعضاً من الحلوى والمطلوع سأله ماسون رانجير:

- ماذا تفعل هنا؟ يجب أن تكون في المدرسة كأترابك من نفس عمرك، من أنت؟ وما اسمك أيها الولد؟ فقال له الطفل :

- اسمي شاهين أقف على أرصفة الطريق بين أزقة المدينة والطرق الطويلة للسيارات بجسمي الطفولي وبملاحي الخمسينية تارة أناشد المارة على شراء بعض الحلويات التي أمسكها بيدي، أو المناديل الورقية وتارة أناشدهم أن يشتروا الأزهار التي قطفتها من التلال والجبال بين الشعاب الوعرة وتارة أخرى أتحوّل إلى متسول ماذا يدي إلى صدقاتهم علي أجد من يلين قلبه علي أنا طفل... لكن طفل شوارع لا أحد يبالي بجالي ولا بمستقبلي أختلس نضرات نحو المدرسة، متمنيا أن أكون تلميذا فيها تمر الأعياد علي وأقف جامدا متأملا أترابي كل مع والديه يتتاعون أجمل الثياب من أنغم الماركات ولثوي الرث البالي ولحفاة قديمي لا أحد يبالي أنا طفل... لكن طفل شوارع لا أحد يسكت جوع بطني ولا أحد يروي عطشي أحيانا أتخيل العالم قطعة رغيف من شدة جوعي أحيانا أتخيل العالم جرعة ماء لشدة عطشي أحيانا أتخيل العالم كوخا صغيرا دافئا، أحتمي به من مطر الشتاء ومن شدة البرد الذي أقاسيه علي زاوية الطريق أتعلم وأدرس وأقرأ وأكتب أحيانا أتخيل العالم عناقا من شدة الحرمان أحيانا أتخيل... وأتخيل... وأتخيل... ومازال التخيل منفي لي أهرب إليه من واقعي كل هذا ولا أحد بجالي عالم من غير الله أو بالأحرى الكل عالم ولا أحد مبال من أجل إنقاذي ما ذنبي؟ ما ذنبي؟ ذنبي أنني طفل شوارع؟! أنا طفل، ليس ككل طفل، أنا طفل شوارع حلبي أن أكون طفلا عاديا، طفل بعائلة، طفل بتعليم طفل يعيش مرحلة الطفولة التي محيت من قدرتي فهل

يا ترى يأتيني حقي من الحياة في العيش الكريم ، فلتسمعي يا وطني
ولتشهدي على ذلك يا تراب أرضي وأرض أجدادي.

دوّن ماسون رنجير كلام الطفل في مفكرته، وذهب به نوري إلى محل
الألبسة واشترى له ما أعجب الطفل وقدم له ما لاذ وطاب من المأكّل
والمشرب، أكل القليل واحتفظ بالبقية لأمه وإخوته المتشردين، ثم قال
لنوري:

- أنا من بني عداس والدي لا يريد إدخالني للمدرسة لأنه لم يوفر لي الوثائق
اللازمة وأرادني أن أشتغل على أمي وإخوتي، هل لك أن تتفضل بمساعدتي
وتقنع حارس المدرسة ومديرها أن يتركانني أتعلم أرجوك

قبّل نوري جبين الطفل وداعب شعره، قدم له المال وأوصاه أن يعطيه
لوالدته، لم يستطع نوري أن يبين عجزه في مساعدته ولم يستطع منع عينيه
من الدمع حزنا على الطفل فغادر دون أن ينطق بكلمة.

في الطريق إلى مدينة بجاية

غادر ماسون العاصمة إلى قرية البير إوهرايان، بعد أن كان شاهدا في قضية جاثوم البوم، وبعد أن أمّن على نوري وودّعه وقدم له مفاتيح بيته في وهران من أجل تعلم فن الراي ، كان حلم نوري هو مقابلة السيد بوعلام بن حوا في ديسكو مغرب وإخراج ألبوم غنائي ويطموحه تحقيق نجاح في فن الراي فقال له ماسون:

- عندما أزور وهران يجب أن أجد صورك منتشرة ويجب أن أجدك فنان راي كبير ومشهور، بلغ سلامي على لأصدقائي ومخولوف ومحمد وناصر وسعد إنهم في البيت الذي ستذهب إليه، سيكونون أصدقاء جيدين لك، وداعا

طلب ماسون رنجير من سائق سيارة الأجرة أن يتوقف عند غابات إعكورن الكثيفة، التي تتسلل منها أشعة الشمس في أول ميلادها في فلق ذلك الصباح، مجد الخالق من منظر الغابات واستمتع بالنظر لخصرتها واستنشق الهواء النقي البارد، على حافة الطريق المقابل للجبال الكثيفة وتفسح بين محلات الفخار والثياب التقليدية، أسطول من المركبات المتوقفة هناك تتأمل في الجبال وصفوف الشجر وعائلات أتت لتقضي وقتا بين الأشجار في غابات إعكورن ولتقتني الأواني الفخارية والملابس التقليدية، واصل ماسون طريقه

ونام في الطريق أيقضه السائق عند مدخل ولاية بجاية، رأى ماسون رنجير لوحة عملاقة مكتوب عليها ولاية بجاية ترحب بكم، انقبض قلبه وأحسّ بتمثيل يسري في جسده، أكل سائق سيارة الأجرة مسيره ببطء وتوقفت بهم السيارة لعطل أصابت عجلة السيارة في بلدية أقبو بجاية، طلب منه السائق أن يدخل إلى المقهى ويرتشف القهوة على أنغام شريفة وقبوا تلك المغنية المحبوبة لدى ناس المنطقة وكل القبائل، واصلا المسير بعد إصلاح السيارة وما لبثت وعادت للعطل مجددا في منطقة أوزلاقن، تأسف السائق من ماسون وقال له أنه يجب أن يعرضها على الميكانيكي، تابع ماسون رنجير الطريق سيرا على الأقدام، وصل إلى بيت عتيق وقف يتأمل فيه، مرّ مجموعة من الشباب لفوا بالبيت واسترسلوا بالحديث بينهم:

- إنه البيت الذي انعقد فيه مؤتمر الصومام

- رائحة الثورة لازالت تفوح منه كعبق زهور الربيع

- هذا البيت جمع شمل الجزائريين وأدخلهم في كلمة واحدة نطق بها هذا البيت بلسان الحرية والاستقلال

- هذا البيت كان الرحم الذي حمل أجنة الثورة وجاءه المخاض يوم النصر

- بورك رجال ونساء وطني

- بوركت يا جزائر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا

أكل ماسون مشيه وتحاشى الكلام مع الشباب كي لا يعترف بجنسيته الفرنسية حرجا من مقام المكان ومقال الثورة التي أتت على أفواههم، وصل

إلى سيدي عيش جلس على أرضية الجسر الحديدي المخصص للراجلين نزع قبعته ووضعها على الأرض ووضع رأسه على ركبتيه أغمض عينيه ووضع يديه على رقبته يتحدث في سره وهو صَجِر من قدره والناس تمر عليه هذا راح وهذا غاد والمطر يتساقط قطرا من السحب الغليظة السوداء:

- ما هذه الحياة العبية التي تلعب بي؟ إلى أين أوصلت نفسك يا ماسون؟ قدرك عبث بك وأنت عبثت بنفسك، آه ما بال هذه الأيام؟ عجيبة غريبة أمرك أنت أيتها الأيام! كل يوم قصة مخيفة وحادثة مؤلمة وفرصة ضائعة وليلة كئيبة عدت أخشى سماع أخبار طليعة الصباح وأعتزل اجتماعات المساء، كأنك أيتها الأيام طالعة من أصل الجحيم، تتحكم بك رؤوس الشياطين ساخطة عليّ فرققا بي ورفقا بحالي، فإنني عدت أقول كما قال الشاعر:

يا ليل ظل يا نوم زل يا صبح قف لا تطلع

رفع ماسون رأسه المتعب وبسط رجليه على الأرض نظر حوله يتأمل في المكان والناس، أحس بالغربة والوحدة الشديدة، مدّ يده ليحمل قبعته وجد فيها المال، كان المارون أمامه يتصدّقون عليه ويضعون داخل قبعته المال، ضحك ماسون من نفسه وقال:

- أنقمت بي الحياة إلى أن يعتقد الناس أنني متسول، يا للحياة العبية، بل أنا متسول، نعم متسول أطلب الحقيقة المخفية

جعل المال في جيبه ونهض واستأجر سيارة أجرة لتقلّه إلى قرية البير إوهرايان، طفق ماسون يسأل السائق عن ثقافة ناس بجاية وعقلياتهم وتفكيرهم وراح يسأل عن تاريخ بجاية بعد أن أخبره أنه غريب وأجنبي،

ركن السائق سيارته أمام بئر السلام وطلب من ماسون رنجير أن ينزل يتوضأ من ماء البئر ويغترف من الماء، استغرب ماسون طلب السائق وسأله ما الغاية من ذلك فقال له السائق:

- بجاية لؤلؤة الجزائر، قديما كانت قبلة العلماء كابن خلدون، وابن تومرت والكثير، كانت مدينة العلم والعلماء وأهل للمبادلات الفكرية بينها وبين تلمسان وفاس والقيروان وغيرها، وكل من يقصدها لأول مرة قديما لا يلج أراضيها قبل أن يغتسل ويتوضأ من هذا البئر بئر السلام، أنت محضوض أنك ستزور عاصمة الحمادين وسترى فيها إبداع الخالق في صنعها، يُلقبونها الشمعة ومكة الصغرى أما أنتم الأوروبيون فلقتموها قديما بصالداي، هنا كتب الصوفي الوهراني سيدي الهواري قصيدة "التسهيل" بمشاعر العرفان والمحبة والإعجاب بأهلها من تقوى وأمر بالمعروف ومساعدة عبير السليل وإكرام الضيوف من أهل المدينة، وعنها قال سيدي بومدين "بجاية معينة على طلب الحال"، ثم عرج بكلامه يروي معلوماته حول قرية البير إوهرايان فقال:

- البير إوهرايان، إنها قرية ثورية أبي الله يرحمه كان يحكي لي عن رجال هذه القرية الثورية والذي كان جنبا مع جنب يجاهدون في جبال الجزائر من أجل تحريرها من المستعمر الغاشم، وهذه القرية التابعة لبلدية كنديرة قدمت الكثير من الأرواح فداء لهذا الوطن الحبيب، فهذه البلدية تعتبر من أكثر البلديات التي فقدت أبناءها والتحقوا بالشهداء

وصلا إلى مزارع مرج ومان التي تحمل أسماء فرنسية تأمل مروجها الواسعة فأحس بالحنين إلى المزرعة التي كان يشتغل فيها قبل سفره إلى الجزائر،

وصلا إلى بلدية برباشة بعد مرورهم بأميزور وبمنعرجات متتالية وعرة تعلوا كلها ساروا أكثر، وانخفضت الحرارة وفرض البرد نفسه، تحوم حولهم السحب الغليظة كلها اقتربوا، بدأ الثلج يتساقط وامتنع السائق من إكمال طريقه نحو قرية البير إوهرايان المعروفة بالثلوج الكثيفة، خوفا من أن تتراكم الثلوج وتسد الطريق وتشل حركة المرور، وقف ماسون رنجير أمام عمود الكهرباء الذي يتوسط حي الثلاثاء مركز برباشة والثلوج تزداد تساقطا ابيضت الأرض وازداد سمك الثلج، نادى رجل من داخل شاحنته:

- يا أهل كنديرة من يريد أن أوصله إلى كنديرة فليطلع إلى المقطورة

تسابق الرجال إلى المقطورة، مرّ بالشاحنة أمام ماسون الواقف بلا حركة تحت الثلج المتصعب عليه، توقف صاحب الشاحنة أمامه وسأله:

- إلى كنديرة؟

- إلى البير إوهرايان

فقال له الرجل اطلع، اطلع إلى المقطورة سنسير قبل أن يقطع الثلج عنا الطريق.

الشُّهَدَاءُ فِي الزَّكَاةِ الْجَمَاعِيَّةِ

انظم ماسون إلى المقطورة المكشوفة على الشاحنة، كانت البساطة وملاح الحياة القروية العسيرة مينة من ملابس الرجال المتواجدين على المقطورة المكشوفة راحوا يستذكرون الشهداء انطلاقاً من ألقابهم، فقال أحدهم من آل بقة:

- إنه ما يُعِينِي نفسياً ويصبر بالي على هذه الشتاء القارصة هو صبر المجاهدين على غضب الشتاء في أعالي الجبال من أجل أن نعيش أحراراً اليوم آه يا شهداء آل بقة أذكركم

فقال كبيرهم سنا إنني أحفظ أسماء الشهداء والله إن لكل منهم قصة حفظتها الأرض التي ساروا عليها، وخطته دماءه على الأرض التي سقط عليها، لولاهم لما كنا نسير أحراراً اليوم الله يرحم الشهداء اسمعوني سأتلوا عليكم أسماء الشهداء:

- الله يرحم شهداء المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني التي تضم شهداء الشقيقين بير أحمد وبير محمد أكلي، وعبد الله من جيس التحرير الوطني، العايب محمد، إنقارتس قاسة، أدرار أحمد، بقة سعدي وبقة بلقاسم، بن

طارة بقة، بوخيمة أحمد، وبوريش سعيد الله يرحم كل من مات بعيدا عن القرية، الله يرحم كل من مات ولم يذكره اللسان

الله يرحم شهداء الجيش التحرير الوطني الله يرحم شهداء آل شرفي: محمد الطاهر، علي، أحمد، ربيع، جودي، محمد يحيي الله يرحم آل شرفة: محمد أكلي، ربيع وابنيه جودي وعمر، محمد، محمد. الله يرحم العربي عبد الله، أهواري محمد، براهمي سعيد، بعزير حواسين، الله يرحم شهداء آل بقة: عبد الله، سليمان، مبارك، دوادي، عيسى، مداني، عثمان، الله يرحم بوخيمة أكلي، تفوقت رشيد، ثقبايث محمد، تواتي طاهر وتواتي شريف، تيبليت صغير، جمعة مختار، رحمان عمار، رمداني سعدي، الله يرحم شهداء آل زايدي: جودي، راجح، محمد، حسين، بقة، الله يرحم الشهداء صياش عبد الله، طالبي محمد، طباش أكلي، طباش خلاف، الله يرحم شهداء آل عباس: محمد، عقالة، محمد، محمد. الله يرحم الشهداء، عثمان سعدي، عريب أحمد، عبد الله صالح، الله يرحم شهداء آل علوا: أحسن، علي، جلول. الله يرحم الشهداء عمريش طيب وعمريش العمري، وعمريش عبد القادر، فخال عاشور، قادري أكلي، كيبش العمري، كيبش طاهر، كرواش السعيد، وكرواش علي، لرابي محمد، مادي محمد، مدور أحمد، الله يرحم شهداء آل مدوران: مقران، يحيي، علاوة، ناصر، الله يرحم الشهداء، عكال محمد، عماري حسين، عمريش أكلي، فخال محمد، فخال أحمد، كيبش أحمد، كيبش ساسي، لعلاي محمد، مادي حسين، مباركي سعيد، مدور أحسن، مدوران علي، مدوران سعدي، مدوني عبد الله، مرادي عبد القادر، معافري محمد أكلي، معافري براهم، ملوكي محمد، موسوني عمر، موسوني محمد أمقران، الله يرحم شهداء آل هواري: محمد، بشير، علي، العربي، صغير.

الله يرحم الشهداء وهراني نصير، يحياوي عبد القادر، يوسف سليمان، يوسف أحمد، تافوك محمد، تافوك محمد، تشرفيوث مولود، تشرفيوث أعمار، تشرفيوث محمد، تغليت لحسن، تواتي محمد شريف، تغليت عمار، تغليت عبد الله، تغليت احمد، حسايني أكلي، حسايني عاشور، حسايني سلووجة، خوفاش علي، رحمان محمد، رحمان طاهر، زايد صالحو، زايد حميد، زايد مخلوف، زيداني طاهر، الله يرحم شهداء الله يرحم الشهداء شريفي شريف، شبيخي محمد أمقران، شبيخي محمد شريف، طالي عاشور، عباس خلاف، عباس حمو، عبيدي ميلود، عثمان علاوة، عريب أسعيد، الله يرحم شهداء آل مدوران: مدوران أحمد، محمد، ساسي، أحمد، دوادي، الله يرحم الضابط موسوني بشير والله يرحم الشهداء مرادي اعمار، مسعودي ناصر، مورادي رايح، الله يرحم شهداء آل هوارى: صادق، علي، محمد الزين، ساعد، لخضر، قاسي يوسفى براهم الله يرحم من لم يكتبهم القلم لكن كتبوا أسماءهم بحبر دمائهم، الله يرحم كل من لم يعرفهم والله يرحم كل من لم نذكرهم لكن الله ذكرهم عنده، الله يرحم شهداء وشهيدات الجزائر.

- يجب أن نذكرهم يا رجال والواجب أن نذكرهم على مسمع أولادنا وزوجاتنا لكي لا ننسى من ضحى بالنفس والنفيس لننعم بالهناء والحرية، الحرية أخذناه بالقوة من فرنسا، ليست فرنسا من أهدتنا الاستقلال على طبق من ذهب، الله يرحم شهداء برباشة وبوعنداس وبني ورثيران وخراطة ودرقينة وبجاية القبائل والأوراس، والصحراء والشمال والجنوب والشرق والغرب والوسط، كل باسمه أينما كان في ربوع هذه الأرض الطيبة، الله يعطي ثراهم كانوا ينسقون للجهاد بسرية تامة وكانوا على قلب رجل واحد لا فرق بينهم ولا يميزهم شيء هدفهم الوحيد تحرير بلدهم الجزائر من

المستعمر المدمر، الله يرحم نساءنا المجاهدات اللواتي يسهرن على عافية وخدمة
المجاهدين

ترحم الرجال على المجاهدين واستحسنوا ذكر أسماء الشهداء، وقال سي
الهاشمي أقباط الذي سخر بيت أهله للمجاهدين:

- والله أتذكر هجوم العسكر على قرية المرج دخل المجاهد شعبان كمال النحدر
من حمام قرقر ببوقاعة للاحتماء من العسكر لكنهم قتلوه بالرصاص
واستذكر آخر موقفا من ذاكرته:

- أتذكر أنني ذهبت لزيارة خالتي في سطيف قد استشهد في قريتها ثلاثة
جنود لا تعرف من هم ومن أصلهم قامت بدفنهم بمعية نساء القرية، الله
يرحم كل من مات غريبا عن وطنه ودفن في صمت الأرض لن تنسى
ودمائهم لن تجف

لبث ماسون رنجير ساكنا بين جمع الرجال، وكان الوحيد الذي لم ينطق
ببنت شفة، بل كان يحدث نفسه:

- الصمت خير لي في حرم ذكر الشهداء، عظيم شعب هذا البلد كلهم على
قلب رجل واحد وكلهم على قلب الثورة ولسانهم صادق بما تصدح به
الذاكرة الجماعية لتاريخ الثورة وتاريخ هذا البلد العظيم

الثلوج على قرية البير إوه انيان

وصلت الشاحنة إلى قرية البير إوه انيان توقفت الشاحنة بسبب كثرة الثلوج نزل الرجال وماسون معهم لينزعوا الثلج عن الطريق ويدفعوا الشاحنة، لكن ماسون رنجير وقف جامدا يتأمل قرية البير إوه انيان انتابه شعور بالدفع رغم برودة الطقس الشديد، شم رائحة تراب لم يشم مثلها أبداً، أزاح الثلج عن الأرض وحمل حفنة من التراب المبلل بالثلج مسحه بين يديه وشمه ثم نظر إلى القرية ولفَّ بعينه بيوتها المغطاة بالثلوج، ووقفت الثواني والدقائق جامدة كتجمد قطرات المطر أحس بجاذبية تجذب روحه إلى البيوت القديمة المبنية بالصخر، وأحس بشيء ضائع منه وأحس بشيء هارب من تلك البيوت القديمة، أحس وكأن ملاح البيوت الصامدة لازالت تقاوم الزمان من أجل البقاء رغم أنها أصبحت أطلالا كأنما تبعث برسائل مشفرة من أفواه بكم عبر السنة مقطوعة عن فها ومفصولة عن صوتها. ناداه الرجال كي يساعده لدفع الشاحنة العالقة في الثلج، ساعدهم ماسون رنجير وأكلوا طريقهم إلى أن وصلوا إلى تيزي ثنجيث مركز بلدية كنديرة هبط الجمع وسأل ماسون رنجير صاحب الشاحنة عن قرية البير إوه انيان فقال له:

- تبا لقد نسيت، لقد توقفنا أمامها منذ قليل عندما علقت الشاحنة في الثلج، أعتذر منك أيها السيد نسيت لم أخبرك بمكان القرية

اتجه ماسون رنجير إلى المقهى واعترف كأس شاي دافئ، دخل رجل وذهب نحو ماسون رنجير سلم عليه وصاح بحرارة عليه:

- الحسن أهلا بك أتيت وأنت معك خيرات الثلوج، كيف حالك وحال أخيك سي المشري

ردّ عليه ماسون:

- لست الحسن أيها السيد، ربّما شبهتني به

همّ ماسون بالخروج من المقهى، أمسكه ذلك الرجل وهو يصاحفه ويقول له:

- والله إنك تُشبه الحسن خلقا عطسا، وكأنك هو بالذات أليس كذلك يا جماعة، لو يقفان أمام بعضهما البعض لن يفرق أحد بينهما، كأنك التوأم الحقيقي له

أفلت ماسون رنجير يده من يد الرجل وهو يتسم، خرج من المقهى واتجه إلى قرية البير إوهرايان التي تبعد عن تيزي ثانجيث حوالي سبعة كيلومتر ماشيا على الأرجل فوق الثلوج الكثيفة مقاوما للرياح القوية التي تهز بشدة حامله الثلج الشبيه بقطع القطن الصغيرة في أرجاء المنطقة، وصل إلى بوراشد وجد مجموعة من الأطفال يلعبون بكريات الثلج ويضربون بعضهم البعض بها وهم في قمة السعادة بالضيف الأبيض، ثم لحوا كهلا بكف

مقطع عليه أمارات الصدمة والألم، تبعه الأطفال يلقون عليه كريات الثلج وينادونه:

- يا القعمور يا القعمور اتبعنا

حاول الكهل صدّ كريات الثلج، وبدا عليه السّأم من الأطفال الذين يزعجونهم كلما مرّ أمامهم، أمر ولي من أولياء الأطفال أن يدعوه وشأنه، توقف الأطفال عن إزعاج الكهل وطلب من ابنه أن يقف أمامه، شدّ الوالد على أذن ابنه بقوة معاقبا له على تصرفه ثم أمره والأطفال أن يعدوه بأن لا يزعجوا هذا السيد:

- عدوني أنكم لن تتجروا على إزعاج القعمور، إنه من العيب ومن العار فعل هذا لرجل بمقام والدكم بل بمقام جدكم، لما كان في سنكم الصغير هذا كان في الحرب العالمية يحارب ضد النازية والفاشية هو وكثير من أبناء المنطقة كأحداذ، كيف سولت لكم أنفسكم أن تستهينوا بمتابع الغير وتلعبوا بمآسي الناس، عيشوا طفولتكم وتعموا بكل ما منحتة الحياة لكم، لكن لا تدنوا على من لا طفولة له

- أبي، هل القعمور كانا محاربا لما كان في سني وسن أترابي، أي كان حاملا للبندقية

- نعم بني، كان حاملا للسلاح، أرغمته فرنسا أن يحارب في صفوفها ضد ألمانيا، جندته إجباريا كما جندت الكثير من أبناء الجزائر، عاش الحرب ورأى الويل وكل أشكال العذاب وفضاعة الحرب، أرجعته فرنسا بعد انتهاء الحرب، لكن لم يرجع سليما، ترك كتفه في ألمانيا، واختل عقله من هول

ما عاشه في الحرب، ناهيك عن حرب التحرير، رجل من رجال الجزائر
وئدت طفولته وشبابه في الحروب، أهدا جزاء الإحسان، إنه حامل لذاكرة
المنطقة وحافظها

- أعتذر أبي، لن نزعجه من جديد، أليس كذلك يا أصدقاء

- بلي

لعن ماسون أفعال بلده وتذكر والده ملعنا له، ولأفعاله وشعر بالنذالة، أسرع
في خطاه وتحاشى النظر في القعمور وولي الطفل الذي تابع سرد التاريخ
الأسود لفرنسا في الجزائر وما فعلته من شر لكنديرة وقرأها وما جاوره

وصل إلى قرية البير إوهرايان، ابتسم بدون سبب وارتعش بدنه، وزارته
أحاسيس الفرحة والتحمس الغريبين وقال في نفسه:

- يا ماسون باليمنى، أدخل القرية برجلك اليمنى، لعله دخول صدق وبر
وأمان

دخل ماسون القرية برجله اليمنى، وحمل حفنة من الثلج وأكلها تخدّر جسمه
عن الإحساس بالبرد من شدة القلق والتوتر والحماسة لرؤية القرية التي
كسرت رأس طاغوت والده ميشل، وبات ناقما عليها إلى يوم مماته، عله
يجد أجوبة وتفاسير عن تساؤلاته، ويكشف عن ما خفي عن حياة والده
ويفكّ جعبة أسرار والده التي دفنها في هذه القرية، ويطلع على تاريخ من
حياة والده الحرجة، هبط منخفضات القرية رويدا رويدا، كانت المنازل

بيضاء بالثلج وكانت القرية فارغة من سكانها لولا دخان المدافع الحطبية
الخارجة من سقف البيوت لقال زائرها أنها قرية مهجورة.

أحداث 23 جوان 1957م

التقى ماسون بطفلة صغيرة تركض خائفة وتتعثر قدمها الصغيرتين في الثلج توجه إليها ماسون يسألها عن سبب خوفها فأجابتها بذعر:

- أنا خائفة، قالت لي لالة جميلة أن العسكر و فرسنا قادمون لقتل كل من التقت به، لهذا هربت وخفت

طمأنها ماسون رنجير وأمسك يدها وطلب منها أن تدله على بيتهم لمرافقتها إلى باب البيت، لما وصلت إلى البيت دقت الباب وقصت على والدها العوفي ما قالته جميلة، شكر والد الفتاة الصغيرة ماسون على مرافقته لها إلى المنزل، وقال له ماسون رنجير:

- أنا عابر سبيل ليس لي قريب ولا مأوى ولا أهل هنا، والطقس مثلج وبارد، والليل ينسج معطفه الأسود هل لي بالمبيت الليلة في هذه القرية؟
رحّب به العوفي قائلا:

- الدار ليكم العتبة لينا، نحن قرية خير وقرية ضيوف وقرية عابري السبيل نرحب بإخواننا

ثم نادا امرأته:

- يا مرا جهزي لعشا عندنا الضيوف

اصطحب العوفي ضيف القرية ماسون رنجير إلى مكان مبيته، وفي طريقهما التقيا بلالة جميلة تلبس فستانا بقماش من زهور وعلى رأسها وشاح شتوي، الندوب ظاهرة جليا على أرجلها، ويديها كانت واقفة على عتبة منزلها تنظر يمينا وشمالا وهي مرتبكة سلم عليها العوفي وطلب منها أن تدخل إلى منزلها وطمأنها بأن لا خطر عليها ولا على عائلتها، ثم بدأ شريف يسرد على ماسون قصة لالة جميلة:

- لالة جميلة كانت بين الفتاة كرهرة الأوركيد بين سائر الورود، من عائلة شرفة آيث أومغار وإليهم زُفت، لكن سرعان ما فقدت شبابها وجمالها وصحّتها في تلك الليلة المشثومة

- ومن تسبب لها بهذه المأساة؟:

- إنها من ضحايا الحرب، وضحايا أفعال فرنسا الشنيعة، يومها ذهبت لزيارة أهلها وفي المساء عادت إلى بيت زوجها الجوزي بمعيته، حل الليل قامت بإشعال القنديل لمحت فرنسا ضوء القنديل من القرية المجاورة خليل، فقصفت بيتهم بقنابل المدافع ظنا منهم أنهم الجنود والمجاهدون، سقطت القنابل المتتالية قرب المنزل ثم هوت على القنابل على الإسطبل فتطاير لحم عشرين رأس من الغنم ، وتوالت فرنسا قصفها على البيت، خرجت جميلة إلى الفناء سقطت عليها القنابل فشتتها تشتيتها، وتفتت لحم جسدها وغرقت في دماؤها مغشيا عليها، لم توقف فرنسا القصف عليهم فأصاب قنابل أخرى

غرفة حماها الربيع وفروجة التي رفعها ضغط القنابل سقفا، فمات والد زوجها ربيع شرفة في فراشه، وأصيب زوجها الجوزي شرفة وابنها عمر بجروح بليغة، وتهدم الإسطل والبيت عليهم، وبمعجزة من الله سلم شخصا واحدا من العائلة شرفة علاوة ابن الربيع، انطفأ القنديل وخرجت فاطمة نايت أومغار تصيح في دعر:

- يا أهل القرية لقد انتبيننا، يا أهل القرية لقد انتبيننا لقد خلت القرية جراء القصف

أوقف عساكر فرنسا القصف، ووجهوا إضاءة قوية نحو كامل القرية، خرج أهالي القرية قاصدين مكان القصف، قفزت نانا لعكري وأم كلتوم من الصور الفاصل بين منزل جميلة ومنزلهما، اتجهتا إليها وجدتا البيت متمخض بدماء قاطنيه، كانت جميلة ملقاة على الأرض جسدها كالغربال المثقوب من أثر القنابل، تعاونتا مع امرأتين من أهلها ودية وفاطمة وأخريات حملنها خارج المنزل، لففن حولها وقعدن جنبها طول الليل يفحصن نبض قلبها، في اليوم التالي نُقلت إلى المستشفى ولبثت ما يزيد عن ثلاثة أشهر على فراش العلاج، خرجت من المستشفى مشوهة شكلا ومضمونا، شوهدت الصدمة التي عاشتها نفسيها وفكرها وجسدها وأذهبت بجمالها وشبابها وبكل ما تبقى من حياتها، وفي اليوم التالي حضر جنود فرنسا إلى قرية البير اوهرنيان على متن أربعين شاحنة عسكرية مدججين بالأسلحة، فتشوا القرية وبيوتها شبرا شبرا وأحاطوا ببيت جميلة شاكين من وجود الثوار، وحذروا أهاليها من إشعال القنديل ليلا، وراحوا يستقصون عن أثر المجاهدين في القرية، غادر جنود فرنسا بعد حملتهم التفتيشية الدقيقة والمطولة

تاركين جريمتهم الشنعاء على حيطانها المملوطة بدم المدنيين والأبرياء، حُمِّل الربيع على الأكتاف وشُيِّع إلى مقبرة القرية المتواجدة خلف المسجد القديم، وما إن دفنوه وأنها الصلاة عليه، أسرع إليهم رجل من أهل القرية يُنعيمهم:

- يا أهل القرية. عمر. عمر. أصيب بجروح بليغة ليلة أمس جراء القصف، اليوم ذهب إلى عين الماء ثالا نتايما شرب حتى ارتوى فسقط ميتا،

كبر أهل القرية:

- الله أكبر، الله أكبر

شُيِّع عمر عصفور الثورة ودفن أمام والده ربيع، بينما أخوه الجوزي زوج جميلة أُدخِل إلى المستشفى لتلقي العلاج من إصاباته البليغة إثر القصف، لكن عساكر فرنسا اقتادته من المستشفى بجراحه إلى السّجن لبث هناك مدة، جرّده القوات الفرنسية من كل ثيابه وأطلقت سراحه وعاد إلى القرية عاريا من ثيابه كما خلقته أمه، بعدها لقي حتفه قبل الاستقلال، تلك الحادثة بقيت راسخة في أذهانهم وحفرتها الندوب في أجسادهم، يا لقساوة الماضي، الله لا يعيد الثورة ويحمي وطننا.

وصل العوفي وماسون إلى منطقة لحد يذير الواقع فيه مسجد القرية العتيق فتح الباب وجدا فتاة يتيمة تُدعى هدية كفلتها عمّتها وزوجها بعد موت والديها، كانت تُنظف المسجد وتفرش عليه بساطا جديدا، سلّم عليها العوفي ردت السلام والتقت عيونها العسليتين الواسعتين بعيون ماسون، وضعت الوشاح على شعرها الطويل الأسود زينّت وجهها الأسمر بابتسامة عريضة بشفاها الورديتين الممتلئتين وهمت بالخروج مسرعة وهي بكل رشاقته،

غرق ماسون في نومه ولم يستيقظ حتى بلغ اليوم الظهر وتجاوز الضحى، فتح عينيه على أصوات الأطفال التي يُصدرونها فرحا ولعبا بالثلج في الخارج، سمع صوت رجل قريب يخاطبه:

- صباح الخير

التفت ماسون رنجير إلى مصدر الصوت وإذا برجل كهل ينام على أرضية المسجد أمامه ملابس وأواني وأدوات، نهض ماسون وسأله متعجبا من يكون فجأوبه الكهل:

- أنا عابر سبيل مثلك، لكن الهدف مختلف فأنا تاجر متقل أجول القرى والمداشر البعيدة أبيع لهم الأواني والملابس والزراي وكل شيء يباع أنا أبيع، كان لابد أن أكمل رحلتي إلى القرى المجاورة لكن بعد موجة الثلج خفت أن يقع الجمل بما حمل فقصدت هذه القرية لتي ألفتها يعرفونني وأعرفهم اعتادوا عليّ وأنت ما الذي أتى بك؟

- أنا ضيف التاريخ جئت لأستمع إلى حيطان القرية وأسوارها، جئت لأشم عبق ترابها وأرثشف من مائها العذب، وأعترف من الحكايات الكثير

نظر التاجر إلى أبواب المسجد المقوسة والمفتوحة وأحاط ببصره كل حيطانه المبنية بالصخر وتأمل غرفتيه وقال لماسون:

- صحيح أن للبقاع أصوات، ألم تسمع الأنين المجهول مصدره ليلة أمس، أحيانا أمكث هنا تأتي إلى مسمعي أصوات هرج وأصوات طلقات نارية وقنابل مدوية، وأسمع زغاريد النسوة بعد الطلقات النارية، وأرى أجنحة

نور تطير في المسجد وتثيره مع تراتيل للأذان بأصوات عذبة كأنها طالعة من مزامير داوود، أتعلم أن هذا المسجد العتيق كان يلم جثث الشهداء إبان الثورة التحريرية وفيه يجتمع عقال القرية وصناع قرارها، وهو نُزل الضيوف وعاري السبيل

خرج ماسون رنجير من المسجد العتيق وألقى بنظره إلى الأطفال الذين كانوا يلعبون بالثلج ملح هدية تلعب بالثلج أسقطها الأطفال أرضا وشرعوا يغمرونها بالثلج نهضت ونفضت الثلج عن ثيابها ورأسها، لمحت ماسون رنجير واقفا على عتبة المسجد العتيق احمرت وجنتها نجلا منه وهرولت مسرعة تدخل إلى المنزل، رمى الأطفال كريات الثلج على ماسون رنجير فردّها ماسون للأطفال وانظم إليهم يلعب معهم كالطفل الصغير، قدم العوفي وسبي المالح إلى المسجد العتيق حاملين الغذاء للضيفين دخلا في نقاش مع التاجر وماسون رنجير

سي لالمح محذر اطفال من قواس

سمع سي المالمح تحاور الأطفال بينهم:

- هيا لنهبط إلى جنان سي لعلا أسفل القرية

- نحن لسنا خائفين من ذلك الرجل الساكن في ذلك الكوخ

- هيا لنذهب

همّ الأطفال للهبوط أسفل القرية إلى المكان المسمى بجنان سي لعلا، خرج عليهم المالمح في عجلة ونهرهم ومنعهم من الهبوط أسفل القرية محذرا:

- يا دراري ماتهبطوش، ماتهبطوش لجنان سي لعلا بالا كويحكمكم قواس

رجع الأولاد إلى منازلهم واصطحب سي المالمح ابنه الذي كان يلعب مع الأطفال وراح ينصحه مسافة الطريق إلى بيته:

- يا ولدي إياك أن تقترب من كوخ ذلك الرجل

- من تقصد؟ قواس⁴

⁴ - قواس مصطلح يُطلقه القبائل على القس

- نعم ومن غيره

- أبي لم تمنعوننا من أن نقرب منه، ولم نُخوفونا منه، لقد أصبحنا نرهب من مجرد سماع اسمه قوساس

لمَّ يُجب سبي المالح على سؤال ابنه وقال له:

- عليك أن تطيعني يا ولدي، إن منعت عنك شيئاً فهو لصالحك عندما تكبر - ستستوعب الأمور وستتفهم طلي هذا وستمتع أولادك من التعامل معه، نحن نخاف عليكم يا أولادي

مرّت الأيام وتصادت سماكة الثلوج وحملت سماء القرية بالسحب الرمادية المحملة بالثلوج المستمرة، خرج ماسون يتمشى بين البيوت مستكشفاً مناطق القرية هبط إلى ثالا نتايما عين الماء المتدفقة بماء عذب يُنعش جسد الشارب ويغسله من التعب والعطش، انحنى ماسون رنجير إلى عين الماء ومدّ يده يغترف من الماء، لمح كريستيان من بعيد بحظت عيناه الزرقاوات وفتح فمه مدعورا وتسارعت دقات قلبه واحمر وجهه كاللهب، أتت في ذاكرته صورة قديمة، صورة لرجل يحمل نفس وجه ماسون رنجير، صورة تُعيد نفسها، كان الرجل يقف نفس الوقفة المنحنية نحو عين الماء، ويغترف بيده الماء كما اغترفها ماسون، كان الفرق بين ماسون رنجير والرجل الذي استحضرتة ذاكرة كريستيان هو أن الذي في الذاكرة يحمل بندقية ويلف خصره بحزام من رصاص. سقطت الدلاء من يد كريستيان دون وعي منه، ورسم إشارة الصليب على صدره، وعاد أدراجه يجري ويجر رجله العرجاء سقط على الثلج بجسده السمين من شدة كثافته، نهض مصارعا الثلج في جريانه دخل

إلى كوخه غلق باب كوخه بإحكام وشعل الشموع التي وضعها تحت تمثال العذراء بعود الكبريت طفق يدعوا ويتضرع الرب واقفا قبالة التمثال أن يُخفف عنه صدمة الذكرى:

- تبارك ربنا الذي في السماء، اصرف عني هذا الكابوس، رياه ما هذا الطَّيف الذي رأيته في المنبع يغترف الماء بيده، إنه، إنه يشبهه تماما،

تذكر كريستيان فترة اشتغاله جنديا في صفوف فرنسا، وحين مجيئه إلى قرية البير إوهرائيان إبان الثورة المجيدة ليشارك في عمليات التفتيش عن المجاهدين وقام بعمليات تعذيب كثيرة وعمليات تطهير وقتل للمجاهدين والرجال والمشتبه بهم، تذكر رجلا من بينهم يُشبه ماسون رنجير في جسده الطويل والنحيل وفي ملامح وجهه البيضاوي الحاد في منطقة الذقن وعيونه البنية وشعره الكثيف الأسود ونظراته الحادة القليل الضحك يلفه الغموض، تذكر هذا الرجل حين قام بتعذيبه بمعية ضباط ونقيب يتوعدهم قائلا:

- قتلوني أو حرقوني أنا كالقيامة أحياء، سأعود متبخترا ورأسي مرفوعا، أدوس على ناصية رؤوسكم وأنكس أعلامكم وأرفع راية الجزائر لتتعلق بين الأمم تطير بأجنحة الحرية تغرد في ساحة العالم وجمع البشر من مختلف الجنس والعرق يشهد الجزائر جزائرية، فلجزائر من طينة الحرائ لا تقبل الذل والاستعباد لها رجالها ونساءها، مهما لبثتم وحاولتم إزهاق دم الجزائر لن تفلحوا لأن الجزائر كالقيامة تحيا وفوق فرنسا تُعلا ولا يُعلا عليها لأن لها رب يحميها، سنُبعث أحياء من جديد لأننا كالقيامة نحيا...

ثم جلس كرستيان ووضع يده على صدره يتساءل:

- إنه كابوس أم خيالٍ إليّ، رباه أيعقل أن تكون نبوءة عليّ قد تحققت.

الطبيعة كدام بلسان ماسون رنجير

هدأ غضب الشتاء وتبسم فصل الربيع في أول أيامه وكفكفت السماء دموعها، وبدأت الغيوم تتلاشى وانحازت إلى قمم الجبال العالية التي تشبثت بها الثلوج واندثرت رويدا رويدا وبيّنت زرقة السماء واضحة، تنقل ماسون بين أرجاء القرية ودورها المهجورة المبنية بالصخر جلس على أرض بسايتها المخضرة بالحشائش التي تتغذى عليه الأنعام والغنم تتسابق على أنفه روائح الطيب من كل الأزهار، ويستمتع إلى خريف المياه التي تسيل بالوديان التي امتلأت بها الأنهار بعد ذوبان الثلج، مختلطا صوت خريف المياه بزقزقة العصافير التي تطير مع الفراش المبعوث المختلف ألوانه، في صورة فنية ازدادت جمالا وروعة بعمل الفلاحين الذين يخدمون الأرض حرثا وزراعة ليحصدوا من جنتهم حب الحصيد، ومن الفواكه ما خلق الله، وأنبته المياه المباركة، كتب ماسون رنجير المناظرة الأخاذة حوله وفشل في إيجاد وصف يليق بتلك الجنات، ووصف منظر تلاشي السحب عن الجبال وقمها في مفكرته، انصهر ماسون في منظر انسحاب الغيوم الكثيفة عن جبل تاكينطوش، جبل شامخ وعال مهاب في عباءته المنسوجة بخيوط الضباب الرمادي الداكن الغليظ وبقطن الثلج والبرد الأبيض، تحوم عليه السحب الكثيفة فتغلق عليه أبواب الناظرين كأنما هي في اجتماع سري مع الجبل يترأسها قوته الشاهقة البهية بحدتها تنبأها بلوها على أندادها من القمم، التي

يبدوا ببياض الثلج وكأنها لابسة الكوفية البيضاء أو الشاشية ويفتخر الجبل بطوله وعرضه وتاريخه بين الجبال كأنما هو سيد مطاع وملك من الملوك يتباهى وقته بين الأرجاء وبين القرى والمداشر المنتفة به والذي يتوسط الحدود بين ولايتي بجاية وسطيف، وبعد مد وجزر للسحب وأمر من الطبيعة يتلاشى الحراس من السحب كأنما اتفقوا إلى هدنة ممولة بأنفال المطر وغنائم بقايا الثلج المتشبه بين شعبه وتضاريسه الوعرة، وجنود من البرد الشديد يرسل بها إلى السواحل وترى الجبل ظاهرا مبينا بين الجبال بعد مغادرة السحب له وتوديعها له كأنما هو الشمس بين سائر الكواكب، متزينا بالأبيض من الثلج العالق عليه متألثا كالبلورات والجوهر عندما تلامسه أشعة الشمس الذهبية، ويبدو من بعيد كعروس عليه برنوس أبيض في يوم زفافه له الجمال والهيبه والشماخة وغيره له النظر، التقت عيون ماسون رنجير بعيون الجبل التي ترمقه كأنما الجبل أدرك أن هذا الشخص غريب عنه، لم يالف وجهه هذا كأنما الجبل يعرف عشيرته وسكانه فراح ماسون ينغمس في تفاصيل الجبل وثناياه كأنما يتحسس إلى رسائل مشفرة من الجبل مبعوثة عبر تلالآت الثلج الناصع المنعكسة بالشمس.

أحداث 10 ماي 1958م

حاول ماسون الاقتراب من كبار رجال القرية الذين عاصروا الثورة ليستقصي عن تاريخ القرية وثوارها، منهم السي صالح بير الملقب بصالح أوهران، والسعيد والحسين وغيرهم ممن نتأجج روح الوطنية فيهم عند سرد أحداث الثورة المجيدة، فكر ماسون رنجير في كيفية إقناع السيد القعمور في سرد تفاصيل أخرى، لجأ ماسون رنجير إلى خياط، خاط له بذلة كبذلة جنود ألمانيا في الحرب العالمية بقيادة هتلر لبسها ماسون وضع قبعة مماثلة لقبعات الجيش الألماني، سار خلف السيد القعمور مطاردا له فاتجه السيد القعمور هاربا منه وهاربا من ذكريات الحرب العالمية اللعينة التي مازالت تتعاش معه إلى منطقة الحد يدير دخل بيتا قديما مبنيا من صخور له أربع غرف متقابلة سقفها من قش يتوسطها فناء مكشوف بابه من ألواح اختبأ داخل الخندق تحت الأرض وأرجع غطاء الخندق عليه، كان خندقا أقامه المجاهدون إبان الثورة في بيت حمو محمد أوحمد بير يخبئون فيه السلاح والمثونة ويختبئ فيها المجاهدون عند مداومة عساكر فرنسا في عملياتهم التفتيشية عن المجاهدين، تبعه ماسون رنجير نزع تلك البذلة والقبعة ولبس

ملابس بسيطة سروال وقيص مماثلة بملابس رجال القرية وضع على كتفيه
برنوسا أيضا جديدا ونزع الغطاء عن الخندق وهو ينادى السيد القعمور:

- لقد غادر العساكر، لقد انتهت الحرب اخرج

رمق السيد القعمور ماسون رنجير في هيئته تلك، فالتمس منه الأمن
والطمأنينة ، مدّ ماسون رنجير يده ليسانع السيد القعمور على الخروج من
الخندق، خرج السيد القعمور مستذكرا تاريخ ذلك البيت فشرع يروي:

- كان هذا البيت بيت الرفيج⁵ إبان الثورة، بعد مجزرة البير إوهرايان
وثاوريرث خلفا صوت واتفق المجاهدون أن يكون بيت بير حمو محمد أو محمد
بيت الرفيج يُطهى الطعام فيه ويُستقى فيه، أتذكر لالة منانة زوجة أحمد
بير ولالة خديجة شرفي زوجة الشهيد بير محمد أكلي وأخت الشهداء شرفي
ولالة فاطمة ونساء أخريات يقمن بإعداد الطعام للمجاهدين سرا، ويجرسن
الخندق المملوء بالأسلحة ويوزعنهن على المجاهدين ويحطن ثيابهم قد نالت
لالة منانة ولالة فاطمة ولالة أم العز جرائهن من السجن بسبب خدمتهن
على الثوار ونساء أخريات نلن العذاب الأليم كلالة عداة أئينها وصراخها
الشديد مازال صداه في آذاني وأخريات

- ماذا تقصد بمجزرة البير إوهرايان وثاوريرث خلفا؟

- مجزرة 10 ماي 1958م يوم تحولت القرية الى شظايا ورماد

⁵- بيت الرفيج يُطلق على البيت الذي سخره أهله ليكون قبلة للثوار وهو البت
الذي يخدم المجاهدين طبخا وإطعاما وغسل ثيابهم وإسعافهم

دخلت لالة خديجة زائرة ذلك البيت القديم بعد رحيلهم برفقة أحفادها الصغار طفق الصغار يركضون في أرجاء البيت وهي تتأمل حيطان البيت وأركانها بعيون ناطقة كأنما تحكي وتحاور تلك الحيطان وذلك البيت، ثم نادى أحفادها تروي لهم ذكرياتها في البيت:

- هنا يا أحفادي كنا نعيش في عائلة كبيرة، أغلب رجالها ماتوا في الحرب، ونسائها سجنوا وعذبوا من قبل القوات الفرنسية التي كانت تتربص القرية وتسعى جاهدة على إيجاد أي بيئة تدين أهلها بوجود الثوار، وإن وجدوا أثر الجنود هنا فسيبيدوننا جملة ونكون في خبر كان كأنما لم نكن يوماً في الأرض، كنت أطهي الطعام للمجاهدين خفية، ولما يفرغوا من تناول الطعام أغسل الصحون وأدوات الطبخ وأخبئها تحت الأرض، وأحياناً أخبئها داخل الخندق... آه يا أحفادي لقد أرغمتنا الثورة أن نكون رجالاً فأحياناً كثيرة أقوم بذبح شاة وأسلخها وأقطعها وأطبخها، وكنت أغسل ثيابهم وأنشرها في الخارج وأحرس عليها وأقف في الخارج تحت الشمس المحرقة مخافة أن يداهم عساكر فرنسا القرية ويقومون بعمليات تفتيشية، ذات يوم داهم عساكر فرنسا القرية يُفتشون عن الجنود، صعد المجاهد سي صالح إلى قرميد المنزل دخل عساكر فرنسا البيت قاصدين تفتيشه سألوني:

- من يأتي إلى هذا المنزل؟ هل يأتي المجاهدون إلى هنا؟

أجبتهم:

- إنني وحدي، لا أحد يأتي أعيش وحيدة في هذا البيت أشعر بالخوف والوحدة والوحشة

نخرج العساكر دون تفتيش المنزل وسلم المجاهد سي صالح، وسلمنا معه لو اكتشفوا أمر المجاهدين في القرية لقتلونا وما تركوا فينا أحد

هنا يا أولادي في ساحة هذا البيت أوسعني عساكر فرنسا ضربا وتعديبا بعد أن تمّ تسريب وجود خندق في المنزل من الخونة، أتوا آلاف العساكر بمعية الخونة يبحثون عن الخندق لكن برحمة من الله لم يجدوه.

سمعت لالة خديجة سؤال ماسون رنجير أجابت لالة خديجة نيابة عن السيد القعمور:

- إنه يوم ثكلت فيه البير إوهرايان، يوم سالت فيها دماء رجال القرية واغتيل أسودها وسُجِنَ أشبالها من طرف المستعمر الغاشم، يوم ترملت فيه النساء ويتمّ فيه الأولاد، أنا حزينة على ابني الأصغر لم يرى والده، قتلته فرنسا قبل أن يولد، ولم تُبقي له قبرا نزوره
أشارت إلى عتبة الباب وقالت:

- أحداث ذلك اليوم سنسمها في الخرطوم، ستبقى عارا على جبين فرنسا إلى يوم يبعثون، في ذلك اليوم أخذت فرنسا زوجي محمد أكلي بير إلى وجهة مجهولة ولم نراه منذ ذلك اليوم، لقد وجدت حذاءه في هذه العتبة ولم يتبقى منه إلا ذلك الحذاء، كان والد زوجي حمو شيخا كبيرا وضريرا مهزول الجسد وشديد النحافة بسبب المرض، دائما ما يعترني من النوم بسبب رؤية تراوده، يرى القمر يسقط من السماء إلى جانب قبر ابنه المولود ويرى الشمس اختفت في وضخ النهار، فاجئنا زوجي محمد أكلي بعودته من باريس استجابة لطلب المجاهدين الذين طلبوا منه أن يعود إلى الديار و يُدرس أبناء

المجاهدين، وقد انضم إلى جبهة التحرير الوطني، عاتبه عمه عبد الله حين عودته من باريس بمعية ابن عمه الحسين والسعيد، فقال محمد ألكلي:

- لقد نصحني خالي في باريس وأرغمني أن لا أعود إلى الجزائر وقال لي أن الحرب متأججة ولا وجود للمدارس ولا للدراسة هناك، ونصحني أن أبقى في باريس وأزاول نشاطي السياسي من أجل التحرر هناك، لكن صوت الضمير، وصوت الجزائر يناديني وعزمت أن أحارب وأن أسس بإمكانياتنا الضئيلة لتكوين مدارس في هذه القرى لتحارب الأمية والجهل بهذا نحن نحارب فرنسا التي تسعى لتجهيلنا، أعلم فيها أبناء الجزائر وأبناء القرى المعزولة والنائية، وعزمت أن أجاهد في الجبال جنبا مع جنب أمام إخوتي الجزائريين بروح واحدة وإن عشت سأعيش مرفوع الرأس عزيز النفس، وإن مت فسأمت شهيدا وأموت وفيما من أجل تحرير هذه الأرض الطيبة. اشتدت رغبة ماسون رنجير لسماع قصص الثورة في القرية فراح يطلب من لالة خديجة أن تروي له تفاصيل الأحداث:

- هلا سردت لنا بالتفصيل الممل كيف بدأت هذه الأحداث، زما الذي حصل بالضبط، كرر ماسون رنجير سؤاله في إلحاح سأل ماسون من جديد مستقصيا عن هذه الأحداث علّه يجد يد والد فيها:

أجابت لالة خديجة بقلب موجوع:

- إنها أحداث جرائم فرنسا فينا، إنها جراح لن تندمل وأرواح لن تُخلف، وأيام سرقت منا وتركت فينا ندوب وعاهات نفسية ومادية وصحية لازالت تفجعنا، يا ولدي إنها أحداث على لسان الشاهدين وقصة تُروى على السنة

الخلف اسأل من شئت في القرية سيحدثك كل بمشاعره عن رهبة ذلك
اليوم الشديد البأس والبطش.

أغمضت عينيها ثم فتحتهما وأردفت قائلة:

- كان رجلا ن يدعيان الصالح أوسعي ومحمد السعيد أوسعي يشتغلان في
التجارة، ينجران من الخشب عصيا وأدوات خشبية للفلاحة والحراثة، هيئ
محمد السعيد أوسعي أدواته وحمل على قافلته على الحمار وشق طريقه إلى
بلدية فرعون ليبيع ما صنعته أيديهما في بلدية فرعون يوجد فيها أهم وأكبر
ضباط فرنسا وأشرسهم وأكبر ثكاتها، عليها نقيب جبار متسلط لا يعرف
الرحمة

عاد محمد السعيد أوسعي في اليوم التالي من فرعون توجه إلى المسجد القديم
ونبه سكان القرية:

- سامحوني يا إخواني وضعت عساكر فرنسا البندقية على نبض قلبي والخناجر
على رقبتي كي أحدثهم عن قريتي ورجالها الثوار، يا أهل القرية اسمحوا لي
واسمعوا خذوا حذركم، يا أهل القرية إني لكم من المخدّرين، لقد ذهبت
البارحة باكرا إلى بلدية فرعون أسترزق من تجارتي هناك في السوق، قادوني
جنود فرنسا إلى الثكنة واستجوبوني عن أصلي وقريتي مستقصين عن وجود
المجاهدين أم لا، وإني أشك أنهم سيأتون لتطهير القرية قريبا

فقال له سكان القرية:

- إنا نحن لهم لبلهرصاد وإنا لأرضنا لحامون، لن نغادر أرضنا هذه ولن نتركها للمستعمر سككت خديجة، أصرّ ماسون على أن تسرد بقية الأحداث، فأبت وقالت أنها ستسردها في وقت آخر لما تجمع قواها فكل هذه الذكريات الأيمة وأحداث جرائم فرنسا في القرية لازالت تولد في نفسها المأساة والبث والرهبه

خرج ماسون ونجبر والسيد القعمور من بيت الريفيج وصعدا إلى المسجد، وجد هديّة رفقة عمّتها وأبناء عمّتها في فناء المنزل، كانت عمّتها في جدال حاد مع زوجها سي الجلي منعه من أن يقطع شجرة بلوط كبيرة أمام بيتها ليوسع بيته فقالت له محاولة إقناعه:

- يا رجل الله يهديك، الله يستر عليك، لا تقلع هذه الشجرة الكبيرة كانت سترا لي، كانت ملاذي إبان حرب التحرير، كنت أتسلق هذه الشجرة العالية عندما يهجم عساكر فرنسا القرية في عمليات التفتيش، أسلقتها وأختي بين أغصانها وأستتر بأوراقها الكثيفة أختي من الجنود خشية من أن يغتصبوني، أتذكر أنني لبثت ليال متتالية أتغذى على ثمار البلوط، وأنا عليها بين الطيور والبوم يحوم حولي لا أتحرك من مكاني ولا أهبط منها حتى أتأكد أن عساكر فرنسا قد غادروا القرية

ثم طلبت جقيقة من قريبتها أم كلثوم أن تساعدني في الإقناع وتمنع قطع شجرة البلوط:

- يا أم كلثوم أنت شاهدة على فضل هذه الشجرة على فتيات القرية اللاتي يتسلقنها ويختبئن في ثنايا أغصانهن ويتسترن بشرفهن من عساكر فرنسا، كما

تتغذى عليها لما لا نجد شيئاً نأكله، كان المجاهدون يتغذون على البلوط، كما
نسد جوع أبنائنا بثمار البلوط في أيام المسغبة ويوم أحرقت فرنسا مزارعنا
كلها وسلبت مئوتنا في بيوتنا

فقال أم كلثوم:

- كانت هذه الشجرة مجاهدة تحمي فتياتنا وتطعم جيعنا إبان الحرب
الجزائرية.

نظرت هديةً إلى ماسون رنجير احمرّ وجهها وتلبّكت من نظرات ماسون
رنجير لها، شكرها قائلاً:

- أشكرك على هذا البرنوس الذي خيطته لي، وشكراً على طبق الكسكسي
الذي بعثته لي مع البرنوس إنه طبق كسكسي لا يشبه الذي تذوقته في
مدن أخرى

ردّت عليه هديةً بجعل وزاد احمرار وجهها:

- العفو، أمل أن يكون البرنوس على مقاسك وأمل أن ينال إعجابك، وأمل
أن طبق الكسكسي أعجبك، إنه ليس كغيره من أطباق الكسكسي فهذا
خاص بتقاليدنا القبائلية يدعى (كسكس أو ذرييس أو سكسو أو ذرقيس)
نحضر الطبق بالاعتماد على المحاصيل الزراعية من كل الخضر دون استثناء
ونفوره على سبعة أعشاب وتكون عشبة أذرييس الرئيسة وزينه بالبيض
ونستغني عن المرق، نحضره في أول أيام مارس احتفالاً بمجيء فصل

الربيع، وترى الأطفال يحمون عادة (بوعفيف طيرا⁶) هي عادة قبائلية من الموروث اللامادي الشعبي قاطعها ماسون رنجير قائلًا:

- أولائك الأطفال الذين اجتمعوا ينددون (بوعفيف طيرا، قدموا بيضة لبوعفيف) وقصدوا كل بيت في القرية لجمع البيض يتوسطهم طفل متزين بلباس تقليدي وواضع على وجهه لثاما يحمل في يده دلوا ملئا بالبيض، ويرقص تحت نشيد (بوعفيف طيرا)

ابتسمت هدية زاد وجهها احمرارا وقالت في حياء:

- أجل، هذه عادتنا في أول مارس، وقد اخترت أن يكون ذلك اليوم هو يوم حياكتي لك ذلك البرنوس لكي تكون أيامك كفصل الربيع وحظك أبيض كلون البرنوس وروحك دافئة مثله، ومن عادتنا لما نهم بخياطة الزرابي والبرنوس أن نطهو طبق (إلثاين) يكون بمحاصيل البقوليات، ذلك الطبق الذي بعثته لك مع الكسكسي

فقال لها ماسون رنجير أنه تذوق مثل هذا الطبق:

- طبق إلثاين أتذكر أنني تذوقت مثل هذا الطبق في تيزي وزو، وتذوقته في مدينة بسكرة كنت بين نخيل طولقة يدعى أيضا (الشرشم)، أنا أشكرك

⁶ - عادة أمازيغية قديمة من الموروث الشعبي اللامادي، يقوم بها الأطفال ليلة أول مارس يجولون البيوت يطلبون بيضة من كل بيت تيمنا لأن يكون ربيع خير وتكاثر الأرزاق، هذه العادة اندثرت في المدن ولا زالت تقام في القرى

وأشكر الناس الطيبة ، عظيم هذا البلد الكبير إن كل رقعة فيه يتنفس بثقافة تميزه عن رقعة أخرى إنه ثراء ثقافي عظيم

دخلت هدية إلى المنزل بأمر من عمّتها، تبعها ابنة عمّتها الصغيرة وقالت لها:

- لم احمرّ وجهك حين قدّم ذلك الرومي، يبدو أنك معجبة به

نفت هدية الأمر جملة وتفصيلا:

-لا، لا أبدا ماذا تقولين يا زهرة

رضخ زوج جقجيقة لأمرها وامتنع عن قطع شجرة البلوط وبدأ يستذكر أيام حرب التحرير، طلب ماسون رنجير منه أن يسرد أحداث 10 ماي 1958م، استذكرت أم كلثوم خطاب محمد أوسعيد لرجال القرية في المسجد وقالت:

- والله كنت حاضرة ذلك اليوم وأتذكره كأنه اليوم، كنت ابنة الرابعة عشر عاما، الله لا يعيد الحرب الله لا يعيد ذلك اليوم الرجال قُتلوا النساء ترمين وعُذبن، البيوت والمزارع والمحاصيل أحرقوا، الشباب والأطفال سُجنوا ويَتَّووا، الممتلكات نُهبَت وسُرقت، 10 ماي 1960م يوم قتلت فيه القوات الفرنسية رجال القرية بالشقيقين بير أحمد وبير محمد أكلي، وعمهما عبد الله بير، وقتلت تيغليت لحسن، محمد أكلي سيدي عبد الله الحاج، محمد أكلي محمد عبد الله، محمد أمقران وطاهر شرفة وابنه علي وطاهر شرفة، محمد شرفة، عبد الله سعيد أوبسعي، هواربي محمد الزين، وقامو بسجن بير السعيد، وزا شرفة، والحמיד شرفة وآخرون، وقتلوا في قرية ثوريرث الأخوين عبد الله

عبد القادر أولمولود، عمر عبد القادر أولمولود، علي تويريرث، محمد شريف تويريرث، وآخرون علي أورزقي علي، محمد الصغير أوسايد، المولود عبد القادر أولمولود تشرفيوث، العربي هواري. شريف محمد عبد القادر، سي بلعيد، وآخرون

تحمس ماسون رنجير واتبه القلق والحرج من جنسيته، لكن كان مضطرا لأن يستمع لأم كلثوم التي أعادت سرد تحذير الطاهر أوسعي بالتفصيل حين عودته من بلدية فرعون لأهل القرية من جنود فرنسا الذين يتهبثون إلى عملية تطهير للقرية:

- بعد أسبوع من تحذير الطاهر أوسعي لأهل قرية البير إوهرايان الموافق ليوم 10 ماي 1958م، نهض أهلها كل اتخذ وجهته إلى حاجته فمنهم من ذهب للتجارة ومنهم من راح يخدم أرضه ومنهم من انتقل إلى الجبل يجاهد في صفوف جيش التحرير كل قاصد حاجته، كان ذلك الصباح هادئا جدا كهدهوء ما قبل العاصفة، أربعون شاحنة صفراء تسير في موكب سريع محملة بخدّام الموت وأعاونهم تفوح منهم تنانة القتل والموت، عساكر أشداء لا يعصون فرنسا في أوامرهم، امتطى المجاهد محمد أكلي سيدي عبد الله الحاج فرسه اتجه إلى منطقة قامات وصل إلى منطقة تامدا حواين التي تطل على قرية البير وتطل على منطقة قامات لمح شاحنات فرنسا المستعمرة تتقدّم نحو قرية البير إوهرايان، عاد أدراجه مسرعا بفرسه، ينادي زميله في الجهاد محمد أكلي أوشرشور محذرا:

- وا محمد أكلي، وا محمد أكلي أخرج الأنعام التي بالقرية، يا محمد اكلي أخرج الأنعام التي بالقرية

كانت كلمة (الأنعام) كلمة سر بين مجاهدي القرية محمد أكلي سيدي عبد الله الحاج يقصد بالأنعام المجاهدين والأسلحة، ويقصد أن يسرع بإخراج المجاهدين ويخفي الأسلحة ويخفي الخنادق التي تحمل في باطنها أسلحة وملابس المجاهدين، اتجه محمد أكلي أوشرشور في عجالة حمل بنديته أتجه نحو الجبل ليُعلم المجاهدين بقدم عساكر فرنسا، سمعت القرية صراخ محمد أكلي بأن يخرجوا الأنعام ففهمت أن جنود فرنسا في طريقها إلى القرية، لحقت شاحنات فرنسا بفرس محمد أكلي سيدي عبد الله الحاج أطلقت عليه الرصاص الحي لم يمت فاقتادوه معهم، وصلوا عساكر فرنسا مدججين بأسلحة وآلات تعذيب كان في صفوفهم جنود من الأفارقة بشرتهم سوداء الغضب في ملامح وجوههم، مطيعين لفرنسا التدميرية لا يعصون أمرها أرفقوا معهم كلابا شرسة يستعملونها في البحث والتنقيب عن المجاهدين والأسلحة، داهموا بيوت القرية مع الخونة أخرجوا الأهالي وربطوا أعناقهم بحبال وجروهم كما تجر الأغنام إلى المسجد العتيق نهبوا كل ممتلكاتهم، في البيوت من أفرشة وثياب وفضة وذهب، ألقوا بمئوتهم أرضا وسكبوا زيت الزيتون على الأرض، وقاموا بصبّ البترول على كل أكلهم ليفسدوه، نهبوا ثيرانهم ومعزهم وكباشهم وكل غنمهم وضأنهم وخنقوا الدجاج ونهبوه، وقال لهم ضابطهم:

- جميل ستكون لنا مآدب عشاء بلحوم كثيرة، قرية ثورة وفلاحية، الفلاحة يُحسبون خدمة أرضهم، هيا انهبوا كل شيء من محصول ولا تُبقوا عنزة واحدة ولا دجاجة واحدة، لا أريد أن أرى قطا واحدا متروكا هنا.

نهدت أم كلثوم وأكلت السرد:

امتأأت غرف المسجد عن آخرها بالنساء وتركوا رجال القرية خارجه أأأأر جيداً سلفتي حملت ابنها وهربت مخافة أن يستجوبوها ويعذبوها لكي تعترف عن مكان زوجها المجاهد الذي صعد الجبل ليحارب مع المجاهدين، كنت مع حماتي لما دخل عساكر فرنسا تعدادهم كثير أسقطوا كل أأواتنا وسلبونا كل أفرشتنا وملابنا وما نملك، كنت عروسة جديدة دخلوا غرفتي فتحوا (أفنيق⁷) الخالص بي وأخذوا كل ملابسني كلها وحوائجي، اقتادونا إلى المسجد، وأحرقوا القرية برمتها، أأدخلوا الرجال إلى بيت (الجيدة أوحداذ) عذبوهم بصعقات كهربائية وضرب مبرح ليعترف رجال القرية عن مكان المجاهدين، ويدلّوهم عن مكان الخنادق والأسلحة، تصدر صيحات عالية من شدة الألم... ولا ييتوقفوا عن الصراخ إلا بعد أن أطلقوا عليه الرصاص، قال عبد الله بير لشباب القرية وأطفالها الذين يصرخون من شدة ألم التعذيب:

- يا أبنائي لي ليس لي سلطان وليس لي ما أفعله لأجلكم اصبروا واحتسبوا أمركم إلى الله فإنه السميع البصير

أأجه عساكر فرنسا إلى عبد الله بير الذي كان المسئول على جمع اشتراكات وتبرعات القرية من أجل تمويل الثورة والثوار، من مأكل وملبس وعتاد وسلاح وغيره، ضربه عسكري فرنسي ببندقية على جبهته سقطت عمامته على عتبة بيته، أأخرج عبد الله بير منديلا من قماش من جيبه مسح الدماء عن جبهته ووجهه، اقتادوه إلى كرسي التعذيب حاولوا استنطاقه بكل طرق

⁷ - صندوق مستطيل الشكل مصنوع من الخشب، يوضع فيه الملابس قديما قبل استعمال الخرائن مكانها

التعذيب لكن لم يفلحوا في استنطاقه فقتلوه، ولم يفلحوا في استنطاق رجل واحد فيهم فأجمعوا على أن يقتلوهم أجمعين بعد أن يسوا عن كشف الثوار والخنادق التي فشلوا في إيجادها بعد أن بحثوا كثيرا عنها، ففعلوا ذلك فقتلوا أحمد بير وجوده بين حقول الفول فأطلقوا عليه الرصاص وسقط جثة في مكانه، اقتادوا أخاه بير محمد أكلي حافيا الأقدام قال لزوجته وهو بين عساكر المستعمر:

- أوراق الزيتون لصاحب الكوفية هي بداخل معدة الشاة

كان يقصد بأوراق الزيتون الأوراق التي طبعها وكتبها على المِرْقنة آلة الكتابة، ومعدة الشاة يقصد بها الخندق، اقتادوه مع رجال آخرين محمد أكلي عبد الله، محمد أمقران وطاهر وهواري العربي قتلوهم في أمكنة متفرقة، وآخرين وذهبوا بهم إلى وجهة مجهولة، وبعد مدة قال شاهد عيان أنهم قتلوا، منهم من قُتل في القنطرة الحمراء، وأخذوا محمد أكلي إلى إحدى ثكناتهم، وجدوا بحوزته قلمين جافين، استجوبَ هناك واكتشفوا أنه رجل غير أُمي يُتقن الكتابة والقراءة، وتسربت معلومات من الخونة عن محمد أكلي بير أنه كان في فرنسا ضمن المنادين لتحرير الجزائر، وأصبح الكاتب الذي يخط الرسائل على المكّاب التي يتبادلها الثوار فيما بينهم من أجل التنسيق للثورة بعد أن عاد من فرنسا وانظم إلى جبهة التحرير الوطني رفقة شقيقه أحمد الذي قُتل في نفس اليوم في أحداث 10 ماي 1958م، والكثيرين من أبناء القرية، واكتشفوا أنه عاد من باريس من أجل تدريس أولاد المجاهدين ومن أجل تجسيد مشروع إقامة مدارس في القرى والمداشر ومحاربة الأمية، أدخلته فرنسا إلى غرفة التعذيب ومارست عليه كل أنواع التعذيب لكي يعترف

بذلك ولكي يُقر بخطّة المشروع ويُقر بأسماء المجاهدين وأسماء المؤسسين لهذا المشروع، لكن بقي صامدا وصامتا وساكتا مرفوع الرأس ولم يتفوه بكلمة واحدة رغم تخضه بالدماء، بعد أن قنطت فرنسا منه قام عساكر فرنسا بكّابة فلاقة على جبينه وقال قائدهم يجب أن يقتل بشر. اقتلعوا أظافره من يده ثم سلخوا جلد يديه وقطّعوا أصابعه إربا إربا وهو حي يرزق، ثم دقوا في رأسه مسامر من حديد وقالوا له متوعدين:

- هذا جزاء من تُسول له نفسه أن يحمل قلها ويكتب وينسق بين الثوار في مختلف المناطق، هذا جزاء من يحاول أن يتعلم ويُعلم نكلوا جسده، وعذّبوه وأمر كبيرهم أن يلقوه في النهر:

- هذا الشخص متعلم ويحاول نشر التعليم والقضاء على الأمية والانحرافات، ألقوه في النهر، يحمله ماءه المتدفق فيغرق إلى باطنه، أو تجرفه مياه النهر المتدفقة إلى البحر، لكي يغرق العلم معه، ولا تجعلوا له قبرا فليكن نسيا منسيا، مثله خطر وشر على فرنسا فلا يجب أن يُنشر العلم في الجزائريين ولا يجب أن يتعلموا الكّابة والقراءة، فهذا الأمر لا يخدمنا لأن علمهم سيهزمنا ألقوه في النهر، وبعدها طلب منهم أن ينظفوا الثكنة من دمائه

- لا يجب أن تبقى قطرة دم من دمه، يجب أن يندثر ويندثر معه العلم بدأ عسكري من عساكر فرنسا بتنظيف الأرضية من دمائه وقال لرئيسه وهو مقشعر البدن الشيء الوحيد الذي قاله بير محند أكلي حينما همّوا برميّه في النهر الأسود:

- مهما قتلتمونا، ومهما حاربتم العلم والتعلم، سيسيل حبر العلم في الجزائر الحبيبة كما سالت دماءنا الطاهرة رغم أنوفكم ورغم أنوف الأعداء وستطلبون علماءنا كما تطلبون ثرواتنا، وستستعينون بأدمغتنا كما تستعينون بخيرات بلادنا

وفي ذلك اليوم من أحداث 10 ماي 1958م قتلوا أيضا الشيخ لحسن أوبسعي تيغيلت وسلبوه بقرة كان يرعاها، وقتلوا عبد الله صالح أوبسعي وآخرون، وسجنوا بزا شرفة والحميد شرفة والسعيد بير، وفعلوا بقرية ثاوريرث خلفا ما فعلوه بقرية البير إوهرا تيان قتلوا رجالهم ونهبوا ممتلكاتهم وغنمهم

كان بير حمو محمد أحمد شيخا كبيرا ضريرا وطريح الفراش، ملقى بجسده على زربية في غرفة بيته، تحت باب الخندق، تلك الزربية غطت باب الخندق الذي يخفي فيه المجاهدون عتادهم الثوري، دخل عساكر فرنسا البيت أخرجوا نساءها ورجالها، ولم يجدوا الخندق رغم تفتيشهم الشامل للبيت، ولم يتوقعوا أن باب الخندق كان فراش حمو محمد أحمد عليه، وجه عسكري بندقيته نحو الشيخ الكبير ليقتله أوقفه زميله قاتلا وهو يضحك:

- لا تقتل هذا الشيخ الكبير بالرصاص، فإنك هكذا أنت ترحمه في موته، سنحرق البيت وسيحترق معه هاهاها وسيتذكر موته بعد موته هاهاها

أحرق فرنسا بيوت القرية، بما فيها بيت بير حمو محمد أحمد وهو أول بيت ريفيج في كنديرة هو البيت الذي يُطهى فيه الطعام للمجاهدين سمع صرخات الرجال وعويل النساء وطلقات الرصاص في الخارج شمّ راحة الحريق وأحسّ بحرارة شديدة تقترب منه، سمع صوت احتراق سقف بيته المصنوع من القش وصوت أكل النار لأغصان الشجر وأوراقها المحيط

بالمنزل، بحظ عينيه المبيضتين من العمى عله يرى شيئاً لكن لم يستطع أن يرى نقطة من الوجود، لم يترك العمى ذرة نور في عينيه، نادى على ابنه محمد أكلي وأحمد، ونادى على إخوته وعلى رجال القرية لكن بدون جدوى لم يرد عليه أحد ولم يسمعه أحد، جمع قواه ونهض سمع صوت حفيدته الرضيعة حسينة من غرفة مجاورة وجد باب الغرفة بصعوبة شديدة تبع صوت الرضيعة دخل إلى الغرفة وقتش عن مكان الرضيعة حملها وخرج إلى فناء المنزل المكشوف لم يبني عليه السقف، حامت حوله النيران، كان كلما أحس باقتراب النار إليه يبتعد إلى جهة أخرى احترقت قدماه من أثر الجمر والرماد المحترق، لبث ساعات واقفا يتهرب من ألسنة النيران بالاعتماد على حاسة الشعور بالحرارة.

خطب قائد العسكر الفرنسيين قائلاً:

- لم نجد البيّنة التي تدينكم، لكننا معرف حق اليقين أنكم فلاة رجالا ونساء شيوخا وأطفالا، لو وجدنا دليلا واحدا أو وجدنا مجاهدا واحدا أو سلاحا واحدا لقمنا بتفجيركم بهذه المروحيات المركونة هناك من فوق هذه السماء، يجب عليكم إعلامنا بكل شاردة وواردة في هذه القرية، يجب الإخبار عن كل فلاة يرتاد القرية، هذا أمر هل فهمتم اليوم قتلنا الرجال، وغدا سنقتل النساء والأطفال إن لم تعلمونا بما هو كائن هنا، على العموم لم نجد الأسلحة والخنادق فمن واجبكم إعلامنا بمكانها.

من حسن حظ القرية أن المجاهدين خبثوا بإحكام بنادقهم وأسلحتهم، ومن رحمة الله أن عساكر فرنسا غشيت أبصارها عن الخنادق وغشيت أبصارها عن المجاهد علي أجماتي الذي تسلق شجرة خروب حاملا بندقيته على خصره

وحزام الرصاص على خصره، لو وجدوه لقاموا بتفجير القرية بأكملها وبمن فيها من، بعد أن غادرت فرنسا بعساكرها من القرية. وحلقت المروحيات بعيدا عن القرية بعد عدولها عن أمر تفجير القرية. قامت نسوة القرية بجمع جثث الشهداء وتركوها في المسجد العتيق، ابتلت ثيابهن بدماء الشهداء، عاد أهالي القرية إلى بيوتهم ليكونها وجدوها خاوية على عروشها، أصبحت ككلا من الرماد ولم تُطفئ النار في بعض المنازل مدة ثمانية أيام، بات الناس جياعا وحلت المسغبة في ديارهم، من شدة الجوع الشديد انحنى الأطفال نحو الشعير المحروق أرضا والطعام المسكوب المحترق والمحاصيل الزراعية المحروقة يلتقطونه بأيديهم يأكلون منها رغم احتراقها، واضطروهم الجوع إلى أكل الحشيش وأوراق الشجر، انبطحوا أرضا يلعبون الحليب المسكوب أرضا ويلعبون زيت الزيتون المسكوب أرضا من شدة الجوع الذي مزق أمعاءهم، فتمزقت ألسنتهم وجرحت من الفخار والزجاج المنكسر والمختلط بالزيت والحليب فابتلع الناس دماء ألسنتهم مع الحليب والزيت الملتصقين بالبترو ورماد الحرائق، ومن شدة الجوع انحنى الأهالي إلى ضرع الشاة المحترقة يرضعون منها ويرضعون من ضرع المعز الميتة احتراقا بفعل المستعمر عساهم يصفرون ببعض الحليب منها ليسكتوا جوعهم، وأكلوا الزيتون المر وأوراقه، توجهوا إلى منبع الماء وشرعوا يشربون الماء كشرب الهيم من شدة العطش ولم يرتووا من شدة الظمأ

في تلك الليلة سمعت النسوة أيننا منبعثا من المسجد، قالت فاطمة أوسعلي للنسوة:

- ربما بقي أحد فيهم على قيد الحياة

فردت النسوة في بث وبكاء :

- آه لقد فرغت القرية من رجالها، لقد ماتوا جميعهم قتلوا كل رجل التقوا به في طريقهم، إلا من كان خارج القرية

ألقت فاطمة أوسعلي نظرة إلى داخل المسجد فرأت طيفا من نور بأجنحة كبيرة، ينتقل بين جثث المجاهدين ويقف أمام رؤوسهم، ويطير بأجنحته يلف المسجد. في اليوم التالي أتى رجال القرى المجاورة، دفنوا الشهداء في مقبرة جماعية تحت زغاريد النسوة في هدنة ميلكونية، كان عساكر فرنسا تيفقد القرية كل يوم قرابة الشهر بعد الأحداث الدامية تبث عن أثر للمجاهدين، فسجنت نساء القرية زوجات المجاهدين وأمهاتهم، ساقوا لالا فاطمة من قرية البير ليلا جارة معها بقرة إلى سجن أميزور عذبوها كي تُقر لهم عن مكان زوجها المجاهد صالح بير، أعادوها بعد أسبوع وسجنت والدته لالة منانة، وسجنت العمدة أم العز في سجن برباشة مدة عام وثلاثة أشهر وعذبت هناك ثم نقلوها إلى سجن طورنو بأقواس، وعذبوا نساء القرية والقرى المجاورة.

جاري البحث عن الخنادق

قَدِمَ عساكر فرنسا بمروحياتهم وشاحناتهم، وبمعية محندو أورمطان وأتوا بالسجينين سي سعيد بير وخالي سليمان نتويريث من سجن طورنو بأوقاس وطلبوا منهما أن يدلهم عن مكان الخنادق الموجودة في القرية، لكن سي سعيد وسي سليمان قاموا بتوبيههم وحضروا بعيدا عن مكان وجود الخنادق ولما أيسوا منهما قال محندو أورمطان لعساكر فرنسا:

- من الأفضل أن تعودوا إلى الثكنة فلا وجود لأي خندق هنا

وهمس في أذن السجينين:

- لو اكتشفوا أمر الخنادق لن يتركوا إنشا واحدا من القرية بل سيبيدون القرى المجاورة وكل المدينة

- انصرفوا وأعادوهما إلى السجن، ولم يخرجوهم إلا بعد قرار توقيف إطلاق النار واستقلال الجزائر. لقد أكثرت فرنسا من عملياتها التفتيشية ليلا ونهارا في تلك الأيام، لم يهضموا عدم عثورهم على بقية المجاهدين وعدم عثورهم على مكان الخنادق فقاموا بعد مدة وجيزة بإعادة تفتيش القرية وكل بيوتها برمتها وتسلطوا على النساء بالعذاب من أجل أن يعترفن بمكان الخنادق،

داهموا بيت بير حمو محمد أومحد وهو بيت الريفيج الذي يحوي في باطنه على الخندق الكبير، طلبوا من نساء البيت لالة خديجة ولالة منانة ومجموعة النساء اللواتي كن داخل البيت أن يتحنين جانبا ويرفعن أيديهن على رؤوسهن، تقدم الخونة على رأسهم الحركي أحمد كولمار وقالوا:

- هنا في هذا البيت يفوح عبق طعام المجاهدين، هنا في هذا البيت يوجد الخندق الذي يجمع الأسلحة ويحتمي بداخله الثوار الفلاقة

أطلقوا العساكر كلاهم يشمون وينقبون عن مكان الثوار والخندق والمجاهدين، بالغ كلب في النبح في الغرفة الصغيرة للهنزل أمر قائد العسكر أن يُفتشوها قلبوها رأسا على عقب لم يجدوا دليلا يدينهم، دخل القائد ورهط من العساكر إلى الإسطل الذي كان غرفةً لحمو محمد أومحد قبل أن يحولوه إلى إسطل والذي أُقيم فيه الخندق، تسارعت ضربات قلوب النسوة وكادت تنفجر أفدتتهن من الملح لدخول العساكر الفرنسيين إلى الإسطل الذي يحتوي الخندق، طفقوا يبحثون عن الخندق امتلاً الإسطل بالكلاب الشرسة المدربة يشمون كل رقعة منه، طاف القائد داخله وقف على باب الخندق الذي وضعوا عليه صفيحة حديدية عَشَّشت عليها الدجاجات، أبعده القائد البيض برجله وكسّر بعضه بالدهس عليه، ثم عاود الطواف في الإسطل، مشيت الدجاجات على الصفيحة الحديدية التي على باب الخندق راحت الصفيحة تتحرك وتصدر صوتا باحتكاك الدجاج بها، انبطحت لالة عداة أرضا واتتابتها هيستيرية صراخ شديد من شدة الخوف والرعب من أن يُكتشف أمر الخندق، خرج القائد والعساكر والخونة وجمعوا النسوة في ساحة المسجد وقام الحركي أحمد كولمار بصفع لالة عداة وضربها بشدة

من أجل أن تعترف عن مكان الخندق ومكان تخزين الأسلحة أشارت إلى مكان بعيد لا وجود فيه للخنادق لتمويههم حفروا فيه ولم يجدوا شيئاً، فعادوا إليها منتقمين منها فأوسعوها ضرباً حتى تخضت بالدماء أمام مرأى الحشد من الناس، واقتادوها إلى السجن، واستجوبوا الطفل بير محمد الصغير حفيد حمو محمد أومد عن مكان الأسلحة والخندق ظل ساكناً فضربه وكسروا رباعيته وسألوه عما إذا يأتي الثوار إلى بيت الريفيج ليأكلوا، وسألوه عن والده إذ ما هو انظم إلى صفوف الثوار والمجاهدين فأجابهم أن أبوه يدعى بير محمد أكلي وقد قتله عساكر فرنسا في أحداث 10 ماي 1958م، بكّوه وسألوا ابن عمه بير المولود نفس الأسئلة ولم يجب فضربه على رأسه بالبندقية فكسروا عظام جمجمته أصيب بنزيف داخلي بمعجزة من الله لم يفقد حياته، سألوه عن والده فأجابهم عن اسم والده بير أحمد الذي قُتل في أحداث 10 ماي 1958م فكبّوه، وعذبوا أطفالاً آخرين واقتادوا الطفلين بير محمد صغير وبير المولود أبناء التسع سنوات إلى سجن برباشة أين تم تعذيبهم بوضع رؤوسهم في الصابون وصعقهم بالكهرباء ليعترفوا على مكان الخندق، ألقى القائد الفرنسي خطابه على أهالي قرية البير إوهرايان:

- لم نجد البينة والدليل الدماغ الذي يُدينكم لكن كثرت الوشائيات عليكم، إنكم قرية ثورية وغياب الرجال عن القرية يفتح لنا باب الشك واليقين، وهذه القرية من القرى التي وضعناها في القائمة السوداء لأنها قرية ثورية قرية فلاقة.

حظرت المروحيات لإلقاء الصواريخ على القرية لكن غيروا اتجاههم بعد أن تم تفجير ثكنة في بني ورتيلان فغيرت المروحيات طريقها إلى بني ورتيلان، أكل قائد عساكر فرنسا قاتلا:

- نحن نعلم علم اليقين أن قرية البير إوهرايان قرية ثورية بامتياز والدليل أنها خالية من رجالها، لأنهم اختاروا أن يكونوا فلاة، ونعلم حق اليقين أن المجاهدين يرتادون القرية وأنتم من يدعمونهم وأنتن أيتها النساء من يُعددن الطعام لهم، ونعلم حق اليقين أنه يوجد أكثر من ثلاث خنادق كبيرة جدا في هذه القرية كل خندق أكبر من الثاني يحمل أسلحة خطيرة، وعتادا محرما، لهذا قمنا بتحويلكم إلى قرية خمبينة لكنكم بقيتم مدة شهر ثم رجعتم إلى هنا لتثيروا الشعب وتعينوا الفلاة المجاهدين يا أهل القرية إن أنتم تعاونتم معنا واعترفتم بمكان المجاهدين واعترفتم بمكان الخنادق سأضمن لكم حياتكم ولن نقتلكم، وإن أنتم أسررتكم على الجهاد والكتمان سنحرقكم أجمعين ولن نترك فيكم أثرا.

بعد أيام قليلة من حادثة 10 ماي 1958م وحملات تفتيشية عن الثوار والخنادق همست القرية:

- لقد اختفى الأخوين الطاهر أوسعي والسعيد أوسعي

تنهدت أم كلتوم ودعت:

- الله يرحم كل الشهداء، الله لا يعيدها الله لا يذق الحرب لأحد

قالت جقجيقة:

- كانت الحرب حريين، مسؤولية عظيمة يحملها المجاهدون مسؤولية حرب ضد فرنسا ومسؤولية حرب أكبر ضد الخونة الذين باعوا وطنهم، كان الخونة والحركي يأخذون نساء المجاهدين بالقوة إلى ثكنة برباشة ليستغلوها ضباط وعساكر فرنسا.

تهتت أم كلتوم مرة أخرى في أسف وقالت:

- الحركي كانوا هما السابقين للسرقات والقتل والكشاي... كانوا يتبعون أخبار المجاهدين ويسرعون لإخبار فرنسا عن تحركاتهم، أثارت حفيظة المجاهدين ونخوة الرجال هذا الأمر الفظيع الذي مس بكرامة النساء وكرامة أزواجهن، استهجن المجاهد واري بقية والكثيرون من الثوار جرائم الحركي والخونة فأعلنوا الحرب ضدّهم، طالب بن يحي محمد أكلي ضابط ثكنة برباشة برفع الحصار المقام عليهم وأخذته الجرأة لطلب رؤوس الخونة لما رأى الفقر والجوع والمسغبة والأمراض التي حلت بأهالي برباشة وكنديرة والقرى المجاورة وهناك من راح ضحية التلقيق والافتراء وشهادة الزور، تداولت أخبار بين أهالي عن زي محمد لحسين كان ضحية النساء منبوذ من قبل النساء، كان فلاحا يحرق الأرض، في آخر أيام حياته كان يعمل في بيت أوشرشور بأجر طلبت منه نساء أوشرشور أن يبيت ليتسنى له إكمال الحرق في اليوم الموالي مبكرا ولبعده عن منزله، فأبي وقال:

- لا، وحق الله لن أبيت هنا يا بناتي، سأبيت في منزلي بين أولادي، الذي قدره الله مرحبا، ومن يسأل عني سيجدني في منزلي ولن يُقال عني خائف

أو هارب، يا بناتي إن امتت فالنساء هن اللواتي يقتلنني ظلنن يُلفقن الأكاذيب عني ويسرعن بالوشاية للمجاهدين لتفريقا أنني خائن وما أنا إلا فلاح بسيط، طريق رجلاي تَحْمَلانني من الحقول إلى المنزل ومن المنزل إلى الحقول، ولكن لست خائفا.

في تلك الليلة قدم إليه عشرات المجاهدين لتصفيته، طرَقوا الباب وخرج، نصحه أولاده أن يترِث أو يفر، فأبى قائلاً:

- سأفتح الباب، الخير بالوجه والشر بالوجه، ورأسِي على رأسهم، لا تخافوا ولا تجزعوا عليّ يا أولادي وللآخرة خير من الأولى

فتح الباب استجوبه المجاهدون عن تنقلاته وأعماله، هاجمه اثنان وأرادوا أن يُقيدوه، لم يتحمل فكرة تقييده وقتله تكأّن أو مشتبه به، أطلق الأمر لقدميه وجرى مسرعا دخل إلى بيت محمد أورزقي عليّ، هم زي محمد الحسين بصعود صور البيت ليقفز أمسكه البشير بولجيس وأسقطه أرضا تعاركا وقتله البشير بولجيس بالرصاص الحي في وسط البيت أمام أهل محمد أورزقي عليّ، سقط أمام الكانون الذي كان عليه طبق العصبان، فرّ البشير بولجيش بعد أن قتل زي محمد الحسين

أردفت أم كلثوم تروي قصص الحركي التي سمعتها عن سي محمد شرفي:

- ابن محمد أوعبد لقادر اكتشفوا البطاقة البيضاء التي ثبت تعامله مع فرنسا وضباطها الكبار والعقيد والنقيب، كان يخبئها داخل جورب رجله انفجر بطنه دما من الهلع وراح الدم يخرج من قُبْلِهِ ومن دُبْرِهِ ويتقيأ الدم لبث ثلاث أيام بهذه الحال ومات.

نساء مزغنة مذلت كل محنة

في كل قرية وفي كل شبر نجد نساء مزغنة مذلات كل محنة يجاهدن جنباً أمام جنب المجاهدين في قلب الجبال فتلك مليكة زوجة المجاهد ربيع هواري الملقب بربيع شامبيط وكان ربيع هواري مجاهداً في صفوف الجيش والمسئول في نقل الرسائل بين المجاهدين للتنسيق بينهم، خرجت مليكة إلى الجبل برفقة سبعة من أخواتها المنحدرات من مدينة بجاية تركزن بيت والديهن ودموع الفراق تسيل على وجه والدهن ووالدتهن خرج معهن شقيقتهن إلى الجبل مات برصاص فرنسا أمام أعين شقيقته مليكة دفنته وأكملت مسيرتها حاملة البنادق تجاهد في سبيل استرجاع السيادة الوطنية واستقلال الجزائر، كانت لالة باية طفلة كينات الجزائر تحمل الرسائل وتنقل المعلومات بين المجاهدين فتسير على الأقدام بين قرى آيث عمارة وثالا واديف وبين القرى البعيدة ونفس الحال لكثير من بنات القرى وفتيات الجزائر ونسائهن الحرائر. ولالة عداة أحموش كانت الحارسة على قريتها وتعلم الثوار بقدم الثوار فكلمها صاحبت:

- يا مريامة أعطيني الغربال الواسع

فهبذا تقول للمجاهدين تقدموا وادخلوا إلى القرية دون وجل ومقصودها من الكلام عدم وجود عساكر فرنسا، وإن صاحت:

- يا مريامة أعطيني الغربال المربوط

فهنا تحذر للمجاهدين، وتقول لهم اختبئوا وإياكم من ولوج القرية لأن فيها الخونة وعساكر فرنسا وعمليات تفتيشية. وامرأة أخرى من حرائر الجزائر يقع بيتها في أول القرية، تُعلم الثوار بوجود القوات الفرنسية من عدما في القرية عن طريق مندبلين، تُعلق المندبل الأبيض على باب بيتها حينما تكون القرية آمنة وخالية من عساكر المستعمر فهذا يتمكن المجاهدون الجزائريون من ولوج القرية، ويتسنى لهم الأكل والشرب، وإن وجدوا المنيل الأسود معلقا على باب البيت فيفهم ويعرف الثوار أن القرية غير آمنة بها عساكر فرنسا فيتخذوا الحيلة ولا يدخلوها ويغادرون حتى تُعلق المندبل الأبيض.

وهذه ناورذية من برباشة التي كانت تساهم في جمع المعونات للثوار وترسلها للمسبلين أمثال سي احمد زياني المكلف بجمع المال لتمويل الثورة ومحمد ارزقي، وسي عمار الذي أكتشف أمره من طرف القوات الفرنسية فسجنته مدة طويلة في سجن طورنو بأوقاس. وفي حادثة مأساوية حضرتها نا طاطا يوم تم ترحيل أهالي آيث مليخا الى برباشة انقلبت الشاحنة إلى الوادي وماتت عائلة من المدنين بأكلها المكونة من الجد والجدة والأب والأم وكل الأولاد، خافت نا طاطا على ابنها الذي لم يبلغ العشرين عاما من أن يموت في السجن، ذهبت إلى الثكنة العسكرية تطلب أن يفكوا سراح ابنها، ثم توجهت إلى السجن تبكي ابنها وتطلب العساكر بجرأة أن يطلقوا سراح ابنها الموجود في السجن فقال لها أحد العساكر:

- حتى أمي تبكي علي من وراء البحر في فرنسا. اطمئني لن أقتل ابنك، ولن أقتلك ولن أقتلكم أريد أن أعيش بسلام حتى ولو اجتمع الفلاقة كلهم هنا لن أحرك ساكنا، فأنا أنتظر إنهاء مهامي هنا وأغادر لا شأن لي في كل هذا الدمار والتقتي

ونجد نساء جاهدن بوقتهن وأصبحن مجاهدات ومسبلات فرحن يطهون الأكل للمجاهدين ويسعفنهم ويغسلن ثيابهم، نا وردية إحدى نساء الثورة التي فتحت بيتها للمجاهدين ونا شالا من قرية آيتارعا التي حاصرها عساكر فرنسا لأنها من مساعدات الثوار وطاهية طعام المجاهدين فحاولوا قتلها مرارا وتكرار لكنها نفذت منهم، وفي خمبئة قُتل المجاهد شربان كمال من قرية بوقاعة من ولاية سطيف بعد أن طردته القوات الفرنسية على الساعة الثانية ليلا فذبحته نحرا من الوريد إلى الوريد في بيت الهاشمي أوقاط الذي كان قبلة للثوار، تُعد والدته الطعام للمجاهدين وفي مطلع الصبح أحرقت القوات الفرنسية ذلك البيت الذي كان يرتاده المجاهدون والتقطوا بعض الرجال وعذبوهم بغطس رؤوسهم في الصابون والضعقات الكهربائية كي يعترفوا عن مكان الثوار، وطاردوا العساكر الفرنسيين الصالح أوهراي وأحمد الموسطاش، وواراي بقعة، وعلاوة بشير محند والحاج، وجنود آخرين في منطقة إيرم همزة وصل بين القرى الثلاثة تاويرث آيت ترعا والقبة، فأطلقوا الجنود الرصاص على عساكر فرنسا فقتلوا قائدهم وبعض العساكر، وأصيب آخرون وسقطوا في الأودية، أصيب واري في يده وصالح بير أوهراي في ظهره، ثم اتجهوا إلى بيت نا شالا أعطتهم العشاء واتجهوا إلى قرية عفرون وانظموا إلى المجاهدين هناك مع طيب بوزلاطن وسي حميمي وسي لعربي تواتي.

الخوننة في قصة الثوار والقادة الحمر اوفي جيد الختاما

كان المجاهد عباس عبد الله صياد الخونة والحركا يفتك بكل حركي داهم حصن الخونة في كنديرة وقتل كبيرهم وقتل آخرين، وجمع إحدى عشر بندقية غنيمة لهم، ونجح الجنود الأربعة سي واري بقعة وعبد الله بن سيدهم وسي صالح بير وعباس عبد الله في قتل الخونة في قنطرة فالتين في واد يفرس بين الحدود بين بجاية وسطيف التقوا وجها بوجه بالقائد فالتين في شاحنته مرفقا بخائن وممرض هاجموه وأطلقوا عليه الرصاص قتل القائد فالتين، أكلت الشاحنة سيرها وسقطت في الوادي تحت الجبل تحطمت كليا، نزل الجنود الأربعة إلى الوادي متبعين الشاحنة وجدوا الممرض مقتولا والخائن على قيد الحياة قتلوا الخائن وانتزعوا منهم السلاح.

وفي حادثة أخرى في تصفية الحركي وتصفية الثورة من الخونة ذهب ثلاثة مجاهدين الطاهر بوعبوط، واري الحاج العربي، سي محمد الطاهر، إلى فيفي يهدونها:

- قولي لزوجك أن يغسل رجله من طريق ثكنة برباشة، إن تبرأ من فرنسا ووقف إلى جانب أبناء وطنه سيكون من الجيد له، وإن بقي منصاعا يأخذ

ويأتي متعاطيا مع فرنسا وعساكرها مرتادا ثكنة برباشة ينقل لهم كل شاردة وواردة من كنديرة وضواحيها سنعلق له القلادة الحمراء، هذا آخر إنذار له وكانوا يقصدون بالقلادة الحمراء المشنقة وقلادة الموت، بكت وترجتهم أن يتركوه بحاله لأنه ليس بخائن لكن المجاهدين تولوا اسمه عليها في قائمة الخونة وهم في صدد تصفيتهم، لقد حدث العجب العجاب لو أتيت بسبعة أبحر قلبا لجنفت الأبحر ومازال من حديث الثورة الكثير. لم يتوقع الأهالي أن تنتهي الحرب آنذاك من شدة شراستها ومن فذارة الخونة الذين قاوموا الثوار وقتلوهم، ولم يذوقوا طعم النوم والهناء والأمان إلا بعد الاستقلال، الحرية نعمة سقاها رجالنا ونسائنا بدمائهم الطاهرة.

وإن جنود الجزائر في كل ربوعها شنوا حروبا ضد الخونة ففي أحد مناطق شرق الجزائر مع الحدود بتونس ألقوا القبض على الخائنة الملقبة بالفينقا، هيؤا لها قبرا، قادوها ليلا إلى جبل بعيد رموها إلى قبرها المحفور سلفا، راحت تناجي جارها:

- يا سي الحواس اشفع لي أمام أصدقائك الجنود، تريننا في حي واحد وكبرنا في حي واحد وكنا خير الجيران، اشفع لي واعتق روعي منهم، لا تدعهم يقتلونني

أدار سي الحواس جسده كي يمنع بصره من رؤية مقتلها، ضربها المجاهد لخضر الخلاصي بفأس قسم رأسها إلى نصفين وغطوها بالتراب.

صُحْبَةُ النُّجَاةِ مِنْ مَقْصَلَةِ فَرَنْسَا

تكلم مقران أوشرشور يستذكر أيام الحرب ومعجزات نجاته من موت

محقق:

- أتذكر أحداث 10 ماي 1958م لقد نجوت وقربي محند بأعجوبة، في ذلك اليوم أخرجت المعز أنا ومحند وهبطنا إلى منطقة نخساف تحت قرية البير إوهرايان سمعنا الرصاص والصراخ وأنين التعذيب، ولحنا ألسنة اللهب تعلوا لتحرق السحاب أدركنا أن القرية تحت وطأة المستعمر الغاشم فبقينا هناك في نخساف ولم نطلع إلى القرية، واتجهنا إلى إعباسن قرية بعيدة عن البير إوهرايان، حياتي كانت معجزة بحد ذاتها كم مرة حاولت فرنسا أن تقتلني فنجوت، ذات مرة طاردوني عسكر فرنسا في قرية البير إوهرايان فأطلقت العنان لرجلي وأسرعت هاربا منهم نحو خليل تبعوني كنت كلما أتزع رجلي من الأرض ترتطم الرصاصة على أثر رجلي، كنت أسرع منهم في الجري ألقيت برونوسي أرضا أوقفوا إطلاق النار عليّ لأنهم ظنوا أنني متت عندما رأوا برونوسي ملقا على الأرض أدركوا أنني نجوت، فعضوا أناملهم من الغيظ، أسرعت بالفرار إلى قرية ثالا إوكسار، اختبأت بين الحشائش الكثيفة، أكثر من خمسة مائة عسكر أو يزيد معهم كلاب مفترسة مروا بالقرب مني جلست مطويا جسدي كجلسة الضفدع ومن

المستحيل أن أتحرك لضمان سلامتي لكي لا يجديني جنود العسكر فيقتلونني ويتركونني طعاما للذئاب، انتظرت لساعات حتى عاد العسكر أدراجهم ولبث ساعة أخرى بين الحشائش، ولما أيقنت رحيل العساكر كلهم خرجت من الحشائش ومشيت قليلا وجدت مزارع بطيخ وorman أكلت حتى شبعت، غربت الشمس اتجهت نحو قرية خليل كانت مكتظة بالناس، تمّ ترحيل أهالي القليعة وإغيل لاربعا، وإغيل معقلا إليها، دخلت بين حشود الناس ألف يميننا وشمالا، لا أعرف أين أتجه كان عساكر فرنسا مدبجين بالأسلحة يحرسون القرية ظنوا أنني من الأهالي المرشحين بدأ الأهالي بالدخول إلى المنازل التقيت أكلي نبلا في الخارج تجنب دعوتي إلى منزله مخافة من العسكر تبعته رأيت المنزل الذي دخله، طرقت الباب فتحت لي خالتي طاطا الباب، وما إن رأيتي اندهشت وكادت أن تُسَلَّ من الخوف، طلبت منها أن أبيت الليلة في المنزل فقالت في خوف:

- عساكر فرنسا أملوا علينا قواعد وقوانين نسير بها هنا، ممنوع علينا أن نستضيف الضيوف، ويجب أن نُعلمهم بكل من ولج القرية ويجب أن نخبرهم عن كل غريب دخلها
فقلت لها ولزوجها:

- لا داع لإخبار عساكر فرنسا عني، سأبيت الليلة فقط دون علم أحد وسأحمل نفسي وأغادر

أباتوني تلك الليلة وضيّفوني عشاءا لذيذا، وفي اليوم التالي خرجت مع الأهالي وذهبت إلى مدينة بجاية

أتذكر ذات مرّة أمسكني عساكر فرنسا في منزلي، وأرادوا أن يسجنوني ويقتلوني، كانوا العساكر يتكلمون عن طريقة القتل التي سيقتلوننا فيها وقال لهم القائد أنهم سيقتلوننا بالمقصلة، أدخلوني إلى بيت محمد ساذق بير تركوني واقفا في بهو البيت وشرعوا في تفتيش البيت باغتتهم وفررت من الباب الثاني للبيت ولم يجدوني.

وذاث مرّة كنت في قرية ثاوريرث خلفا داهمت علينا عساكر فرنسا في حرم المسجد وقت صلاة العشاء، جعلونا صفوفنا وأخرجونا من المسجد وهم في صدد أن يقتادونا إلى المقصلة، وصلنا إلى بيت نظرت حولنا عساكر من أمامي وعساكر من خلفنا جنحت عن أهالي القرية ورجالها المقتادين من طرف عساكر فرنسا دفعت الباب ودخلت إلى ذلك البيت دون أن يراني عساكر فرنسا، كان ذلك البيت بيت الخلال لحسن ألبيستي ألبيستي الخلالة فاطمة فستانها ولفت رأسي بانخمار وخبأتني في المطبخ.

ذكرى شهيد

ثم راح سي مقران يستذكر أخاه الشهيد محمد أكلي شرفة:

- الله يرحمك يا أخي شرفة محمد أكلي، كان رجلا بألف رجل لا يهاب الموت بل الموت يهابه، كان طويلا وممتلئ الجسم ومكشر الوجه من شدة غضبه على وطنه، لم يذر الجبل ولم ينكس البنادق عنه، جاهد طويلا وجاد كل هذه الجبال، لقد مات في منطقة آيث وجهان في سطيف مع الحدود مع بجاية بعد مطاردة عساكر الاحتلال للجنود صعد إلى جبل ثاقطوش والتقى بعسكر فرنسا وجها بوجه أطلقت على جسده الرصاص وسقط ميتا قبل تسعة أشهر من نيل الاستقلال، في ليلة ظلماء نعت لا عداده زوجة محمد أكلي شرفة لا حورية لموت زوجها الشهيد تاركا لها أيتاما صغارا صبرت واحتسبت وقالت:

- لن أحزن ولن أنوح لأنه مات على دينه وفي سبيل وطنه مات شهيدا شريفا تاريخه مخطوط على كل هذه الجبال

أما أمه لا زهوة كادت تنفطر كبدها حزنا وألما عليه، لقد دفن في جبل ثاقطوش، ونقلوه بعد الاستقلال إلى مسقط رأسه ودفن في مقبرة القرية، تعجبت من جسده لم تأكله الديدان بعد أكثر من تسعة أشهر من استشاده

نُقل رفاته إلى قريته البير إوهرا نيان ولم يتآكل جسده داخل التراب كأثما هو حي، كان يرتدي ساعة في يده ودفنت الساعة معه وبقيت الساعة تسير وتندق عقاربها تحت الأرض، نزعوا منه الخاتم الذين كان في إصبعه وأرادوا أن يعطوه ذكرى لزوجته لكن القدر قال كلمته سقط الخاتم إلى قبره ودفن من جديد معه، العجيب في الأمر أن ابنه الصغير مرض مرضا شديدا وبعد ثلاث أيام من دفن محمد أكلي شرفة مات ولده الصغير ودفن أمامه، يا لغرابة القدر

كان ماسون رنجير يريد أن يسأل عن الضابط إريك وميشل فرونسوا لكن تردده حال بين ذلك، شجّع نفسه وسأل بشكل غير مباشر:

- حسب معلوماتي أن الضابط ميشل فرونسوا قد مر من هنا وأجرم في البلاد ونال عقابه في هذه القرية

ردّ عليه سي مقران:

- عشرات الضباط، مروا من هنا

تكلم السيد القعمور قائلا:

- قوساس والرضيع، الرضيع كان يبكي هنا، الرضيع ساوموه وراهنوا عليه الضباط سرّقه باعوه واشتروه، الرضيع تشبثت به جدّته فتمزقت بذلته نصفين نصف قابع في الخندق والآخر رحل به

لم يأبه ماسون لكلام السيد القعمور ولم يسأل عن ما يقصده من كلامه هذا.

معركة قامات الكبرى 29 فيفري 1960م

خرج ماسون رنجير يتمشى وصل إلى منطقة قامات الواقعة في الحدود بين بلديتي كنديرة وبرباشة، لاحظ اجتماع عدد كبير من الرجال من أبناء القرية وأبناء القرى المجاورة من مختلف الأعمار وبحضور الأطفال وأبنائهم، شرعوا في تنصيب لوحة تذكارية وتاريخية لمعركة قامات الكبرى وهم يتحاورون، قال سي صغير أحد أبناء الشهداء لمجيدوش كان من خونة الثورة والوطن إبان الثورة التحريرية:

- كنت تأكل ثيراننا وتنهب ممتلكاتنا إبان الاحتلال والآن أتيت بكل وقاحة لتدشين لوحة معركة قامات الكبرى

رحل الرجل من نجله وناداه رهط المجاهدين المشاركين في معركة قامات 29 فيفري 1960م، قف مكانك وتعالى نُسمعك تفاصيل أحداث المعركة، وقف ماسون رنجير أمام الشاب عبد الحفيظ نصري ابن برباشة إحدى الشباب المتشعب بالوطنية والهوية الذي قَدِمَ بكاميرا يوثق الحدث كما كان معروفاً عليه أنه يوثق كل حدث ومناسبة متعلقة بالوطن والهوية والثقافة ويتعقب التاريخ بالكاميرا والتسجيل الوثائقي أفلاماً وتقارير ينشرها مجاناً لخدمة الوطن والتاريخ والثقافة.

في صبيحة يوم 29 فيفري 1960م هياً الضباط الفرنسي بيغا هذا الضابط الذي يأمر عساكره بعدم المساس بالأطفال والعجائز بأذى، جند عسكره واستقلوا شاحناتهم العسكرية توجهوا إلى بلدية كنديرة التي زُرعت فيها الحرب التحريرية بداية عام 1955م وامتدت إلى آخر يوم لها بعد نيل الاستقلال، مرورا ببرباشة والقرى المجاورة التابعة إلى الولاية التاريخية الثالثة، بعد مدة زمنية تبعهم موكب العسكر الفرنسي بشاحناتهم الممتلئة عن آخرها بعساكر مدججة بالأسلحة والكلاب المفترسة المدربة بقيادة الضابط الفرنسي لوغون هذا الضابط الذي يتسم بالقسوة وتعذيب كل جزائري أمامه طفلا صغيرا كان أو عجوزا أو شابا أو مريضا أو مجنونا أو معاقا لا يعرف الرحمة ولا الشفقة متبرئ من كل معاني الإنسانية في عمليات تطهيرية وتفتيشية لقرى المنطقة، اجتمع إحدى عشرة من الجنود الجزائريين بير صالح الملقب بصالح أوهان نسبة إلى قرية البير إوهانين وإبراهيم أوعباس الملقب بولحية، بن سيدهم محمد أعراب من قرية تعزيبث برباشة، بن يحي محمد الصادق من برباشة عباس علوي الملقب إبراهيم البلوطي نسبة إلى قرية إبلوطن، بقة عيسى وبقة الحاسن من كنديرة، إسماعيل آيت حمودة من سقالة بجاية، باكلي تبولوط، ، علي مرناش من قرية خليل، المولود الخراطي نسبة إلى قريته من خراطة

في جبل من جبال البابور العالية جبل قاماث بأعلي قرية البير إوهانين، اتفقوا على إطلاق الرصاص على شاحنات العسكر الفرنسية، هبوا مدججين ووضعوا خطة محكمة بالانتقاض على العسكر وكانت خطتهم أنهم يطلقون النار على الشاحنات لما تصل إلى المنعرج في طريق قاماث وهدفهم إصابة

قائد الشاحنة ليفقد السيطرة على الشاحنة فتسقط إلى الوادي بالتالي سيقتل الكثير من العسكر بدون نفاذ الرصاص.

صوب المجاهدون الذين كانوا على الجبل بنادقهم من نوع (لازي بي)، نحو الطريق منتظرين قدوم شاحنات المستعمر حين عودتها من بلدية كنديرة، عادت شاحنات العسكر وصلت إلى المنعرج ونبه علي مرناش رفقائه المجاهدين:

- سأطلق الآن الرصاص، سأطلق الآن استعداداً

أطلق علي مرناش أولى الرصاصات على الشاحنة وتبعه رفقائه المجاهدين وأفرغوا بنادقهم على عساكر فرنسا، توقفت الشاحنات عن السير ولم تسقط إلى الوادي، فاضطر المجاهدون إلى إطلاق كل الرصاص بحوزتهم، قفز محمد أكلي تخليصاً الذي كان في شاحنات فرنسا مرافقاً عسكر فرنسا وأبدى الولاء لفرنسا واقفاً في صفها، فرّ بجلده خوفاً من تصفية المجاهدين له بعد أن تم القضاء على خمسة وعشرين رجلاً من عساكر فرنسا، قُتل الضابط بيغا برصاص المجاهدين، وفرّ من نجا من العساكر إلى الأودية واختبئوا بين الحشائش، لم يبق في الشاحنات إلا ثلاث رجال مولود شرفة الملقب مولود وامغار، أرزقي شرفة الملقب أرزقي وامندون أولحسن من قرية البير وأحمد أومبارك من قرية تالا وكسار، كانوا رهائن فرنسا اقتادتهم عساكرهم من عملياتهم التفتيشية تريد أن تقتادهم إلى السجن، أراد عسكر فرنسا أن يقتلوهم لكي يثأروا على أنفسهم فقال لهم الضابط بيغا قبل مقتله:

- الرجال الثلاثة أتيننا بهم من بيوتهم إذا أردتم الثأر فاصعدوا إلى جبل قامات وقاتلوا المجاهدين الذين رموا عليكم رصاصهم

ترك العسكر أمر الأسرى الثلاث فنجوا من السجن وسلخوا من قتل فرنسا لهم، وهم عساكر فرنسا بالفرار نحو الوادي تبعهم الجنود وأطلقوا النار عليهم فأصيبوا على مستوى الظهر منهم من مات ومنهم من سقط أرضا من الإصابة

سمع الضابط لوغون بمقتل الضابط بيغا وخسارة فرنسا المادية والبشرية في معركة قامات، لم يعد في طريق قامات أمر عساكره أن يسلكوا طريقا مخالفة فعبروا من قرية عفرون زكا، وتنكر الضابط لوغون بلباس أهل الجزائر فلبس قشايبة وعمامة وهبط من الشاحنة العسكرية التي تقله في تيزي أوفلا وهرب مشيا على الأقدام نحو عفرون زكا ومنها إلى بجاية لينجوا بروحه. سلك الجنود الجزائريين طريق قامات أوفلا ثم هبطوا إلى واد عيسى،

وصل صدى البارود وصوته المدوي إلى مسامع قرية البير إوهرايان وقرية ثالا إوكسار فباتوا متيقظين، منتظرين ردة فعل فرنسا، في اليوم التالي بعثت فرنسا مروحيات إلى قامات انتشلت جثث قتلاهم واستردت شاحناتهم، وأرسلت جنودا مدججة تعد بالآلاف بشاحنات عسكرية وامتلأت سماء المنطقة بالمروحيات الفرنسية العسكرية الحربية وقاموا بعمليات تفتيشية في كل قرى برباشة وكنديرة وقرى ولاية سطيف التي على حدود بجاية فقتلوا عبدش حسين في قرية خليل، وداهوا كل المنازل دون استثناء ولم يجدوا سوى الحریم والرضع، فساقوا الكثير من النساء إلى السجن وعذبوا العذاب الأليم من طرف عساكر فرنسا من أجل أن يعترفن

بمكان أزواجهن الجنود، وبيّحت الحريم بسبب طهوهن الطعام بكميات كثيرة فأيقن عساكر فرنسا أنهم يطهون الطعام للجنود، فاستجوبوهن بالتعذيب ولكن النساء لم ينطقن ببنت كلمة فقتلن، اقتادوا الأطفال أبناء الثامنة والتاسعة إلى السجن وعذبوا ولم يخرجوا من السجن إلا بعد قرار وقف إطلاق النار وكذلك النساء لبثن في السجن سنين ولم يذفن طعم الحرية إلا بعد نبيل الاستقلال وتحرير الوطن.

ثم ترحم سي صغير على شهداء عفرون من آل مسعود الذين كانوا يجتازون خطّي موريس وشارل يدخلون السلاح من الحدود التونسية والمغربية ويوزعونه في ربوع الوطن، خرجوا إلى الجبل برمتهم الأخوين علي والطاهر شرفي، وأبناء الطيب سي لمسعود شرفي وأبنائه الأربعة استشهدوا برمتهم محمد أويحي، ربيع، محمود، أحمد ومحمد أرزقي شرفي الذي لبث في سجون فرنسا طويلا.

كان المجاهد الطاهر شرفي الملقب بالطاهر أعيان (الطاهر المعاق) مجاهدا مغوارا أسرته عساكر فرنسا في السجن وعذبته وغرست نصف جسده في التراب والثلج رغم التعذيب الشديد له أبي أن ينطق ببنت شفة، أخرجته عساكر فرنسا من التراب المختلط بالثلوج فقد رجلاه الاثنتان واضطر الأطباء إلى بتر قدميه، عاد إلى مسقط رأسه عفرون بلدية كنديرة مع الحدود مع برابشة، تعمدت عساكر فرنسا إعادته وهو مقطوع الأرجل ليكون عبءا لجنود الثورة، ولكن الطاهر شرفي رغم إعاقته وسجن زوجته فروجة من قبل فرنسا ازداد عزيمته وإصرار لطرده فرنسا من الأراضي الجزائرية فعاد إلى الجبل مرة ثانية وجاهد على الحمار، كان الحمار مطيعا جدا لسي الطاهر

بجرد ما يصفر له يأتيه وكان الحمار جنديا فكلمها أحس بوجود عساكر فرنسا يقف مكانه ولا يتحرك ويأبى أن يسير ولا ينهق أبدا.

فأكل محمد شرفي سرد بعض التفاصيل عن قريبه الشهيد محمود شرفي الذي قُتل من طرف عساكر فرنسا في أعالي الغابات دفنه الثوار في مكانه وبعد أيام وجيزة مرّوا على قبره وجدوا القبر منبوشا ولم يتبقى من جثة الشهيد إلا عظما واحدا رجّحوا إلى أن الذئب قامت بندش قبره وأكلوه ولم يتبقى من القبر إلا عظما واحدا يفوح منه ريحة طيبة كأنما العظم عود مسك أو عنبر، مات وأخوه شابين عازبين، أمّا بقية أقاربي لا نعرف مكان قبورهم ولا نعرف مكان مقتلهم أغلبهم شهداء عزاب، خرجوا إلى الجبال ولبوا نداء الثورة واحتضنوها أطفالا لم يبلغوا الحلم بعد، اختاروا بلادا بعيدة يشاركون في المعارك وينقلون الأسلحة في كل ربوع الوطن، منهم علي شرفي مات بالقتال في غابات أوقاس، طارده مروحيات فرنسا بعد عودته مع شقيقه من تونس من أجل جلب الأسلحة ومات رفيقه في كاب سيقلي، والظاهر شرفي استطاع الإفلات من المروحيات وذهب إلى أزرو بنشار تلقى تلقرا من تيزي وزو تطالبه بتزويد المجاهدين بالأسلحة أكل طريقه إلى ثندا أوقليم ثم ميشلي ثم إلى ثخلجين وفريجة، بتيزي وزو، نجح في توزيع الأسلحة للمناطق، بعدها اتجه إلى جبال جرجرة أين حوصر بمروحيات عساكر فرنسا ألتقت عليهم القنابل والرصاص ولم يُسمع عنه أي خبر من يومها.

الله يرحم قاسي هواري الذي تنبأ بموته عبر رؤيا راودته في منامه: حيث قال بلسانه لأهل بيته:

- قال لقد رأيت في منامي الله يؤولها على خير:

- حملت أنني ذهبت إلى إحدى القرى دخلنا بيتا فيها طبخوا لنا الكسكسي لكن عدد حبات الحمص أكثر من عدد حبات الكسكسي، وأما أنا سأؤولها، الحمص هو الرصاص الله يؤولها على خير

فلم تمر أياما قليلة ذهب قاسى هواري برفقة مجموعة من المجاهدين إلى قرية آيث مليخا بمنطقة بايو ببرباشة القريبة من مينا بوعمران المنطقة التي استغلتها فرنسا لنهب أطنان الحديد وبعض المعادن النفيسة ونقلته إلى فرنسا، دخلوا منزلا هناك وأكلوا الكسكسي، أسرع خائن من خونة الوطن وأخبر عساكر فرنسا بقدوم المجاهدين إلى بايوا قدم العساكر بسرعة شرع المجاهدون بالخروج من البيت سراحا تبعهم العساكر والخنونة جريا ورائهم بين غابات بايو قُتل أغلب الجنود الجزائريين وأصيب قاسى هواري إصابة بليغة منعتة من الجري فسقط أرضا وصلت إليه عساكر فرنسا بمعية الخونة وجدوه لم يمت فذبجوه بالسيف،

ثم ترحم المتواجدون هناك على بقية الشهداء:

- الله يرحم الشهيد الضابط موسوني البشير، الله يرحم كل من ذكرناهم وكل من لن نذكر أسمائهم لكن التاريخ ذكرهم الله يرحم كل شهداء الجزائر الأبرار الرجال الأحرار الله يرحم نساءنا الشهدات والمجاهدات... الله يرحم لالة فاطمة نسومر الله يرحم الشهيدة لالة علفية فوغالي التي حُكم عليها بالإعدام من طرف القوات الفرنسية بعد أن قضت على 13 فرنسا بقنبلة يدوية عام 1957م.

أكل المجاهد واشك محمد الشريف سرد الثورة في منطقة برباشة والمناطق
المجاورة لها وذكر المجاهدين وترحم على الشهداء وسرد تفاصيل السجن المغلق
الملغم في بباشة.

زواج ماسون رنجير

كثُر تفكير سي الجبلي في شأن هدية فقال لزوجته جقجقة محاورا:

- أنا أقترح أن نزوج هدية بماسون رنجير، هي في سن الزواج يتيمة لم تتعلم، سنزوجها بالرومي وستعيش في بيت والديها وسنوظف ماسون رنجير في الفلاحة أو يبحث عن عمل، استشيرني رأي هدية

- والله يا رجل أفرحتني بهذا القرار، ستقبل لا محالة، الفتاة واقعة في الحب، ألم تلاحظ كيف تتمر نجلا وتوتر عند رؤيته وتثلاً لعيناها عشقا، ألم تلاحظ كيف تقف لساعات تحتلس النظر من النافذة المقابلة للمسجد لترى الرومي ماسون رنجير، عجل بتزويجها يا الجبلي، يا ترى ماسون رنجير سيقبل؟

- ولم لا يقبل؟ سيقبل، سيقبل، زواجه من فتاة من أهل القرية يضمن تواجده هنا، إنه ضيف غير عادي يحمل في جعبته سر كبير مجيئه إلى القرية ليس عبثا، الأيام كفيلة بكشفه

في صباح يوم زفاف ماسون توجه إلى كريستيان دق على باب بيته ففتح
كريستيان الباب ثم أغلق الباب مباشرة على وجه ماسون رنجير نفاطبه خلف
الباب:

- إلى متى تهرب مني يا كريستيان؟ إنه يوم زواجي ألن تبارك زواجي أيها
القس؟ نحن الاثنان من جنسية واحدة سافرنا إن حضرت

- فليبارك الرب زواجك، عد أدراجك لن أحضر، ولن أفتح لك الباب،
لا تحاول العبث معي ولا تستنطقي، فالماضي وضعت عليه التراب، وغطيته
بجرة النسيان، أنا ابن اليوم وابن اللحظة وابن صومعتي هذه، فلتغادر لا
أريد رأيك من جديد دعني أعيش بسلام أغرب عني إياك من أن
تلاحقني من جديد

ذهب ماسون إلى بيت الريفيج قديما وهو بكل زينته كأبي عريس، ففتح
باب الخندق ودخل في جوفه أشعل مصباحا وراح يتفقد ما في داخله،
وجد أوراقا قديمة ووجد فردة حذاء أسود واحدا يناسب الرجل اليمني،
لبس ماسون رنجير الحذاء وابتسم لأن الحذاء كان في مقاس رجله بحث
عن فردة الحذاء الثانية في الخندق ولم يجدها، وقال في نفسه:

- ترى أين فردة الحذاء الثانية التي تخص الرجل اليسرى، لو كان هنا
للبست الحذاء في يوم فرحي، إنه لشرف عظيم أن أزف بحذاء الأبطال
والثوار، لا بأس سأعيد الحذاء إلى مكانه

نزع الحذاء من رجله ونظفه من أثر التراب وتركه في الخندق، لازم البحث
في الخندق العميق والطويل وجد قلم حبر أزرق، خطّ على يده ليري ألقلم

مازال يكتب أم لا، تبسم ماسون وكتب في يده كلمة (دزيري) ثم كتب تحتها كلمة (الرومي) ضحك من نفسه وقال:

- عظيم أن يبقى الخبر وفيا لهذا القلم، كما كان وفيا للثورة، دزيري رومي، أين أنا بين هاذين؟ لا أعرف إن أنا دزيري كما ينعتني والدي وعائلي، أم أنا رومي كما ينعتني الجزائريون هنا، ما أعلمه أنني متخطب بين الاثنين، لا أعرف كيف أكون دزيريا ولا أعرف كيف أكون روميا عجيب أمرك يا ماسون رنجير با الديرزي عجيب أمرك أيها الرومي

قلّب بين الأشياء والأدوات القديمة في الخندق وجد نصف بذلة رضيع حملها مستغربا كيف تم شدق البذلة هذه ولم خبئت في الخندق؟، وجد بعض الرصاص القديم وأشياء أخرى

خرج ماسون رنجير من الخندق نفض عن نفسه الغبار والأتربة ذهب إلى بيت الجبلي أين أقيم حفل زواجه بهدية قال له سي الجبلي:

- أين كنت؟ لقد تأخرت كثيرا كل المدعويين هنا، اسمع جيدا يا ماسون رنجير أب وأم هدية رزقا بابنة أول زواجهما، من الصفات المذمومة أن الأزواج والمجتمع في تلك الفترة يفضلان الذكر على البنت، كان والد هدية يتلقى التعازي بدلا من التهاني لأنه رزق بطفلة، لكن كان أشد الرجال فرحة في زمانه بهذه الطفلة فأسمها هدية واعتبرها هدية من الله عز وجل وكان شديد الدلال لها... حزني عليهم كبير ماتا والداها في حادث مروع ونجت هدية وكفلتها، كنت رجلا بعقلية رجعية حرمت هدية من التعليم والاستقلالية ضميري يؤنبني والآن أرجوا أنني على صواب في تزويجها لك.

تزينت هدية ولفت حولها النساء والبنات يصفقن ويغنين ويرقصن،
تهامست فتاتين فيما بينهما:

- مساك وتزوج وأنا زهرها معوج، لا أعرف من أين أتت هدية بهذا الخط،
لا تعليم ولا دراسة كانت مجرد خادمة وفلاحة تربي البقر وتزرع الزرع في
وفي الأخير تزوجت... وبمن تزوجت؟ برومي إنها ذات حظ عظيم

- أي حظ تتكلمين عنه؟ لن يكون وفيا إنه ابن فرنسا المستعمرة لن يختلف
عنهم

- لا عزيزتي، الأمور اختلفت الآن ألم تري أن الكثير هاجروا إلى فرنسا،
سيصطحبها إلى بلده وسيكون رومانسا معا وستعيش حياة شبيهة بحياة
أبطال مسلسلات مصر

غادر المدعوون وانتقل ماسون رنجير وهدية إلى بيت والد هدية بيت منفرد
عن بيت كافلها سي الجبلي، بدأت هدية بترتيب أغراض ماسون رنجير في
الخزانة، وجدت بين أغراضه صورا قديمة باللون الأبيض والأسود لعساكر
فرنسا وصورا للمجاهدين وصورا لتعذيب عساكر فرنسا للجزائريين إبان الثورة،
وبعض الوثائق التي لم تعرف المكتوب فيها لأنها لم تحظى بالتعليم، دخل
ماسون إلى غرفة النوم نزع قميصه لمحت هدية وشم الصليب في يده ووشما
آخر لصليب في صدره، حملت بندقية جدها المجاهد كانت بحوزتهم وجهت
فوهة البندقية في وجه ماسون وهي مصدومة وتسأله في بكاء وخيبة:

- من أنت؟ من أنت؟ هيا أجب، ما السبب الذي أتى بك إلى هنا؟ ما
هذه الصور القديمة؟ هل أتيت لتقتل أهل القرية وتقتل الجزائريين كما فعل

أسلافك؟ كيف زوجوني بك وأنت لست بنفس ديانتي، على صدرك
ويديك صليب مثل الصليب الذي يحمله قوساس

طردت هدية ماسون رنجير في ليلة زواجهما، وأبت أن تسمع لكلامه ولا
لتفسيره، خرج وقصد المسجد العتيق، لمح سي الجبلي ضوئاً خافتاً منبعثاً من
المسجد قصد المسجد فوجد ماسون رنجير فيه، قص عليه ماسون ما حدث،
ذهب به إلى بيت هدية وأتى بإمام قال الإمام:

- أيها السيد هل تريد حقاً أن تعتنق الإسلام عن قناعة

همس سي الجبلي في أذن ماسون رنجير:

- قل نعم، وانطق بالشهادتين خلف الإمام

نطق ماسون رنجير الشهادتين وتلا سورة الفاتحة وبعض آيات من القرآن
الكريم وقال:

- بعد دراستي وبحثي الحثيث عن الإسلام ومخالطتي للمسلمين لقد اعتنقت
الإسلام في مسجد كتشاوة قبل مجيئي على القرية، لكن لم تسمح لي الفرصة
على نزع الوشم ولم تسمح لي هدية بشرح الأمر لها

تصالحت هدية بماسون رنجير وعاشا أيام عسل، وبدلت اسمه باسم أمازيغي
وراقت تناديه بماسينيسا وصار فردا من أفراد القرية، في صبيحة يوم مشرق
هم ماسون رنجير بخدمة الأرض وزرعها تقدم نحوه شخص حضاري
الهندام طويل وممتلئ الجسد بدأ الشيب يستولي على رأسه قال له:

- ما هو الشيء الجميل الذي يمكن أن يقع للمرء؟ وما هو الشيء الفظيع الذي يمكن أن يقع فيه المرء؟

ردّ عليه ماسون رنجير:

- الشيء الجميل الذي يمكن أن يقع للمرء هو أن يقع في حب وعشق زوجته، والشيء الفظيع الذي يمكن أن يقع للمرء هو عدم البحث عن هويته وانتمائه وعدم تقليب صفحات التاريخ وعدم اقتفاء آثار صناع التاريخ خصوصا إن كان آبائنا وأجدادنا كانوا من صناعه، والأفزع من كل هذا هو محاولة إسدال الستار عليه وجعله سرا وعدم كشفه وعدم البحث عن الذاكرة والإنصات لها وترسيخها في أذهاننا

توجه سي المشري إلى سي الجبلي يلومه على تزويج هدية ماسون رنجير:

- إنه من العيب ومن العار أن تزوج هدية بالرومي، كيف سولت لك نفسك أن تزوج ابنة عمي بهذا الأجنبي؟

- متى أشغلك أمر هدية، لم تسأل عنها يوما كنت أنانيا، الميراث الذي ورثته من والدتك ونصبت مصانع بأموالها على أراضها التي تركتها لكم أعموك، وصنعوا منك شخصا ماديا بلا روح، أنت الذي اخترت أن تبتعد عن القرية واخترت المدائن والعيش في البروج، ما الذي ذكرك بالقرية بعد كل هذه السنين، لا تقل لي أنك تريد أن تسأل عن هدية؟ فلن أصدقك لأن آخر مرة أتيت يوم دفن والديها

على جبل ناقطوش

اجتمع سي المشري بكار القرية وعُقالها نجح في إقناعهم بوجوب تطبيق ماسون رنجير من هدية وطرده من القرية بحكم أنه أجنبي، طلبت هدية من ماسون أن يرحل عنها حفاظا على سلامته ومخافة أن يلحق به أذى، خرج ماسون من القرية جارا معه خيبة وأسفا مشى على الأقدام مرّ بكثير من القرى والمداشر صعد إلى جبل ثاقنطوش واختلى بنفسه هناك أياما، أحسّ بالوحدة الشديدة صنع من الثلج العالق في الجبل رجالا من ثلج راح يكلمهم:

- كل الأمور بنجير، أليس كذلك؟ بلى هو كذلك، نحن سواء نتقاسم هذا الجبل بعيدا عن كل الأحقاد والنعرات بعيدا عن كل التسميات، بشر وفقط أنتم من ثلج وأنا من لحم ودم، أشعل النار ليستوقد بدفئها نهض في الصباح حزينا مكسوف الحال على الناس الذين صنعهم بالثلج أذابتهم النار بجرارتها، عاود ماسون رنجير صناعة أناس آخرين بالثلج، راح يتأمل نفسه في انعكاس صورة وجهه في ويتخيل أنها صورة لوجه آخر ويستأنس به، ويقف أمام الشمس ليخاطب ظلّه واعتبر أن ظلّه صديق له، ويجزن لما يحل الظلام ويختفي ظلّه. صعد إلى قمة الجبل انبطح في الثلج وترحلق حتى أنهكه التعب، صنع كريات كبيرة بالثلج وأسقطها من علوها الشاهق، كان يتغذى على طيور الحمام الذي يصطاده، ويتغذى على الثمار البرية، شرع ينحت في الأرض غرفة تقيه البرد وجد في باطن الأرض على الجبل هياكل

لجث المجاهدين الذين استشهدوا في الجبل ودفنوا ومعهم بنادقهم إبان الثورة، أرجع عليهم التراب، وصلى من أجلهم وغير مكان الحفر إلى أن وجد أرضاً نحت فيها غرفة بمقام جسده يأوي إليها، في ليلة سوداء غاب القمر عن السماء شديدة البرودة أوقد ماسون ناراً ليحتمي من البرد اقترب منه ذئب يبدوا أنه في شيخوخته راح يغمض عينيه ويفتحهما ويلف حول نفسه ويحرك ذيله ويعوي كأنما يطلب النجدة نهض ماسون رنجير وسار خلف الذئب الذي توقف أمام صغيره الذي علقت رجله بالمصيدة فكّ ماسون رنجير رجل الذئب الصغير من المصيدة، وذلك رجله لكن الذئب الصغير بدا عليه التعب والمرض من شدة الألم الذي ناله، أحس ماسون رنجير بشعور غريب خيّل له صوت بكاء أطفال صغار، طلع الصبح ولم يغمض ماسون رنجير عيناه من الأرق، مدّ بصره إلى المناطق البعيدة والجبال الشاهقة وفتح ذراعيه يستقبل أمواج الرياح العاتية التي تهب بقوة وهو في استمتاع بخلوته كأنما هو ملك ذلك الجبل ماداً بصره إلى القرى البعيدة المحيطة به، وإلى البحر البعيد الذي تنعكس منه زرقة السماء، وتلك الطبيعة المحيطة به ملك يديه، ناول مفكرته وكتب:

- أنا على سفح جبل شاهق، جبل ثوري في باطنه تاريخ سجله مجاهدون من هذا الوطن العظيم كثير من شهدائه يرقدون تحت ترابه الزكي، وأنا أتفصح من فوق لوحدي، نعم لوحدي أعاصر الطيور والصقور والنسور الجارحة و أجاور الذئب وسائر الحيوانات، هنا على حافة الجبل أستنشق هواء الحرية المطلقة هنا على حافة الجبل أطلق العنان لطفولتي فأجري كالطفل الصغير أطارد الفراشات وأضحك وأمرح وأقطف الأزهار وأصنع الأكاليل، هنا على حافة الجبل أمتلك النظر وأستمع بشروق الشمس عند الفلق وأقترش

التراب عند غروبها، وأضع رأسي على ثمارق من حشائش وورود، هنا على حافة الجبل أنصت لنفسي وأمارس طقوسي بدون قيد، هنا على حافة الجبل أحاور نفسي جهرا وأبدي برأيي دون خوف ولا ونجل ولا وجل، يسمعي خري المياه المتدفقة بين تضاريس الجبال وبين الوديان، هنا أعترف شرابات ماء باردة من الماء العذب الذي يتدفق وأغتسل به، هنا على حافة الجبل وحدي لا أحد يعاتبني ولا أحد يأمرني ولا أحد يعايرني ولا أحد يفرض نفسه وهواه علي بعيدا عن كل استعباد وبعيدا عن كل تملك وتبعية، هنا على حافة الجبل ارتحت من كل تعب ورحل عني كل وهن وصفا تفكيري بعيدا عن كل نعص من شر البشر، هنا على حافة البشر لم ألمح إنسانا منذ مدة.

هنا على حافة جبل ثاقنطوشث اعتزلت البشر والتجأت إلى الشجر والحجر، هنا على حافة الجبل كأن بيني وبين المدائن وعمارها ألف عام من العزلة.

هبط ماسون رنجير من الجبل بعد أن تشبع من وحدته ومن نفسه اتجه مشيا على الأقدام نحو بوعنداس كان يوم السوق التف الناس حول الجوال سابت راجح الملقب بمحمد أويذير تذكر أنه قد صادفه مرة في وهران ابتم ابتمامة فرح بعد أن لمح وجه إنسان للمرة الثانية في مكان مخالف، بعد أن فرغ الشاعر الجوال محمد أويذير من شعره حمل محفظته السوداء بيد وعكازته بيده الأخرى أوصى وصايته للناس الملتفين حوله:

- أدفوني أيما مت وأيما كنت فكل مكان على أرض بلادي سأشعر بالمتزل.

معركة ثيقوفاف 26 جانفي 1956م

سلك ماسون رنجير طريقا قادتته إلى قرية من قرى شمال سطيف، رحّب به شباب القرية وقال قائل منهم:

- مرحبا بك في بلدية آيث نوال مزادا بم نخدمك؟

- أنا عبر سبيل أردت الاستراحة قليلا وسأكل طريقي

جلس أمامه الشباب يستذكرون أحداث الثورة في المنطقة وراح أعراب عبد الحفيظ أحد شباب القرية الذي يحتفظ بذاكرة التاريخ ويرويها:

- في صباح يوم 26 جانفي 1956م قصد علي زرماني قرية آيث خلاذ لأخذ قسط من الراحة، تبين لحراس المناوبة قدوم العسكر من ناحية آيث عباس كنديرة، وقدوم قوافل الشاحنات والدبابات في الطريق الوطني رقم 75 بجبل بوثوار، أصرّ السي علي زرماني على الاشتباك مع العسكر القادمين من آيث عباس رغم توسلات أهل القرية بعدم الاشتباك معهم خوفا من إبادتهم وقتلهم جماعيا، فنصب جنود الجزائر كميناً تحت القرية بمنطقة إغزر نتبحيرث، ثم انقسم الجنود إلى فريقين صعدوا إلى جبل ثيقوفاف سالكين طريقين مختلفين، الفريق الأول سلك (إغزر نتبحيرث، مزادة، إغيل عبد الله، الواز، ثيقوفاف) والفريق الثاني سلك طريق (بودحان، ثاقليعث)

سقط العسكر في الكمين بين ثيقوفاف وتاقليعث، في حي تامالوت تحت الجبل، فأطلق الجنود الجزائريين الرصاص من فوق جبل ثيقوفاف، وردت عساكر فرنسا المهجوم على المجاهدين برشاشات فقتل المجاهد السي عمر دعيدش المولود بتاريخ 20 ماي 1932م المنحدر من عين دكار بلدية بوسلام دائرة بوعنداس متأثراً بهجمات فرنسا والتحق إلى الرفيق الأعلى أين الشهداء والصدّيقين، وجرح مجاهد آخر فنقل إلى كوخ قريب من مكان المعركة، ثم نُقل إلى أبعاد كوخ في المنطقة لصاحبه هلال أحمد بن موسى.

استمرت المعركة طويلاً وتأججت شرارتها ولم يتوقف إطلاق النار إلا بعد زوال النهار ومغيب الشمس وحلول الظلام، فعززت القوات الفرنسية تعزيزاتها العسكرية بعد أن خسروا أربعين من عساكرهم ودججوا ثكنة سمطة بالحراسة والتأهب لهجوم جديد من طرف الجنود الجزائريين، واتجه الثوار إلى منطقة القلعة حيث الكهوف والمغارات، لكن عساكر فرنسا استطاعت أن تقتفي أثرهم فهربهم المسلمون إلى قرية إجابشن مع الحدود بمدينة بجاية، وتلتها بعدها معركة حلية في مارس 1956م

ولا ننسى هنا في هذه الأرض وفي هذه الرقعة من التراب تفوح رائحة الذكرى كلما عجزت السنة وبلغت من الكبر وأقبلت على الاحتضار تتمخض آلام حادثة سقوط مروحية عسكرية فرنسية على بيوتنا وقتلت أهاليها وجرح الكثير منهم، إنها حادثة 25 ديسمبر 1958م أقلعت طائرة من نوع (N824/AVA H19A)

أقلعت هذه المروحية من قاعدتها بثكنة إينخف نتوريرث بقرية آيث خلاذ بلدية آيث نوال مزادة بعدها حطت بها وأحضرت هدايا عيد الميلاد لعساكر

فرنسا وعائلاتهم المتواجدين بالثكنة اتجهوا نحو دائرة بوعدناس، وعند ارتفاعها عن القاعدة أحس الطيار بعطب فيها حاول الطيران بها باتجاه البير ثم عاد بها ليحطها على ربوة تاقليعث وعند وصوله لاحظ علو الهضبة على مستوى طيرانه فواصل الطيران وقرّر أن يحط بباحة البلدية بلوطاويرم وكان مجموعة من الناس هناك أخرج يده ملوحا لهم بالابتعاد عن المكان لكن الموت كان السباق إليهم، سقطت المروحية في باحة البلدية وقتلت ثلاثة من رجال البلدية الأول كان علوي آكلي من قرية آيث نوال والثاني كان محديد موهوب من قرية آيث نوال والثالث كان بن هلال موسى من قرية آيث خلاذ وجرح الكثير وهدمت بعض البيوت

طلب صاحب أعراب عبد الحفيظ أن يُعيد عليه سرد قصة "الرجل يكون حيث الرجال فلي له طلبه"

فقال له الشاب عبد الحفيظ أعرابا مستذكرا القصة:

إنها قصة حقيقة في يوم من أيام الثورة طوقت القوات العسكرية الفرنسية قرية آيث خلاذ واعتقلت كل رجال القرية دون النساء، كان من الصدف أن السيد عبدلي لمولود عمر أوحمو أحد رجال القرية كان مسافرا يومها، وحين عودته في المساء إلى القرية وجدها خالية من رجالها فاستفسر من النساء عن مكان الرجال وما الذي حدث في القرية عند غيابه فأخبرته أن عساكر فرنسا اعتقلوا كل الرجال واقتادوهم إلى سجن برباشة، هم بالرحيل لكن نساء القرية حاولن منعه وترجيته أن يبقى في القرية كونه الرجل الوحيد المتبقي في القرية، فقال كلمته المشهورة:

- "الرجل الحقيقي حيث الرجال ولو كان في السجن"

ثم انطلق متبعا رجال قريته، سلم نفسه إلى قوات فرنسا العسكرية واعتقل وسجن مع رجال القرية، وبعد مدة أطلقوا سراحهم

طاف ماسون رنجير بين البيوت وجد ثيابا منشورة على خيط في فناء أحد البيوت نزع سروالا وبذلة من الخيط بدل ثيابه المتسخة وصاح نحو البيت معتذرا من أخذ الثياب دون إذن، قاده قدماه إلى بلدية خراطة كانت متزينة بأعلام الجزائر جاء وفد من المجاهدين يتصدره مجموعة من الشرطة والدرك حاملين باقة ورود كبيرة نصبوها وسط المدينة استذكارا وترحما على أرواح مجازر أحداث 08 ماي 1945م، التي راح ضحيتها 45 ألف جزائري، احتشد تلاميذ المدارس صفوفًا مرتبة تقدم تلميذ يحمل اسم شعال بوزيد حاملا العلم الوطني أسماء والداه على اسم أول شهيد في مظاهرات 08 ماي 1945م وبدأ في سرد هذه الواقعة لزملائه التلاميذ، وبعد أن فرغ من السرد أعلنت دقيقة صمت على أرواح الضحايا، وقف ماسون رنجير دقيقة صمت مع الوفد والناس ترحما على الشهداء، وقرأوا سورة الفاتحة وآيات من الذكر الحكيم.

سار ماسون رنجير نحو الساحل وصل إلى البحر، ألقى بنفسه إلى شاطئ تيشي يتقاذفه الأمواج الباردة التي لم تستطع إحماد الحريق الذي في قلبه راح يعاتب حيرته في أمره ويتوسل أن تعتق شباكها عنه:

- يا حيرة تملكتنا فكي نفسك عنا واعتقي رقابنا من أسرك المرهق وسجنك العتي، ولك ذهب الأرض فدية وكذلك الأجار الكريمة والألماس زيادة

نظر إلى السماء يفكر ويستشيرها ما الذي سيقدر فعله، خرج من الشاطئ
وجلس على الرمال نظر إلى جبل يما قورايا يخاطبه:

- انصحيني يا يما قورايا ماذا أفعل؟، هل ستيريني كالشمعة المضيئة كما
أنرت صالداي

ثم مد يده إلى البحر وقال:

- فرنسا بيني وبينك ماء المتوسط، وذاكرة بقوة المتسلط، وبينك وبين
الجزائر دماء رجال ونساء وأطفال وشيوخ مختلط بتراب الجزائر تسيل في
واديان الزمان في قرن وما يزيد

العورة بلي باريس نم بلي نوميّا

قصد ماسون المطار واتجه نحو باريس، تجول في شوارعها وتسابقت ذكريات طفولته التي قضها بين تلك الشوارع وقف أمام نهر السين يتذكر حدثا صادما في طفولته لم يبلغ الخامسة من عمره بعد، تذكر منازة فرنسا للجزائريين الذين خرجوا ينددون باستقلال الجزائر عن فرنسا في السابع عشر من أكتوبر عام 1961م، فقابلتهم الأخيرة بقتلهم ورميهم في النهر، كان ميشل فرونسوا والد ماسون رنجير مشاركا في رمي الجزائريين وقتلهم، كان يرمي الجزائريين إلى النهر ويرهب ماسون رنجير الطفل، يحمله من أصابع يديه ويهدده بأن يرميه إلى النهر وهو يصدر قهقهات شريرة:

- سألقيك إلى النهر، سألقيك إلى النهر سأبعث بك إلى علي

ثم يعدل عن فعلته وأرغمه على نزع حذائه والمشي حافيا وأمره أن يرمي حذائه إلى النهر فعل ماسون رنجير ما طلبه ميشل فرونسوا وأرغمه على مشاهدة الأحداث الدموية ولمح كل الجرائم، خلّفت عليه صدمة نفسية في صغره

دق ماسون رنجير بيت منزلهم في باريس فتح له أخوه الأكبر باتريك فرونسوا الباب وقال له:

- أعرف أنك ستعود خاليا من الإجابة، اقتنع بقدرك أنت ماسون رنجير
- أنا دزيري، أنا ذلك الدزيري الذي لم يفك السر المكون من وراء هذه
الكنية... ما الذي يفسر لي كره والدي لي؟ كنتم أحب إلى والدي مني،
ما سر كره والديك لي، لقد دمروني بحقدهم الدفين لي وأرادوا استعبادي
وتملكي

- هل ستقف طول اليوم على الباب؟ أدخل

- لا، لا أستطيع أن أدخل، أتذكر أن والدي ميشل طردني من هذا البيت
بعث بي لأهتم بمزرعته في نومييا وأتذكر جيدا كيف قال لك:

- سأفعل بماسون أقصد دزيري كما فعل أجدادنا بالجزائريين سأرحله إلى
كاليدونيا كما رحل آباؤنا وأجدادنا الجزائريين إليها وأنفيه عن وجوهنا

وأردف ماسون رنجير يستذكر باتريك سبب اختيار اسمه ماسون رنجير له:

- لقد اخترت اسم ماسون لهذا الحنطي كي يكون بناء لي، واسم رنجير كي
يكون حارسا علينا فأنا بمثابة غابة كبيرة وهو سيكون حارسا لهذه الغابة
هاهاها

طلب ماسون من باتريك أن ينادي دانيال ويأخذه معه، رفض باتريك
رغم إصرار ماسون رنجير ذلك نادي باتريك دانيال وسأله:

- دانيال هل ستذهب مع ماسون رنجير أم تختار العيش معنا؟

اختار دانيال البقاء للعيش مع باتريك وقال لماسون رنجير سائلا:

- أين كنت كل هذه المدة؟ سأبقى هنا

- كنت أبحث عنك وعني علي أجد نفسي بين تلك المدن أو داخل الوثائق
أو ربما بين دفاتر التاريخ

قال له أخوه باتريك:

- لقد انتصرت عليك

غادر ماسون مكسور الخاطر اتجه نحو نومييا بكاليدونيا أحس بالهزيمة تحيط
به من كل جوانبه كتب في مفكرته:

- أرقصي، أرقصي أيتها الهزيمة وجوبي الأركان أرقصي، أرقصي أيتها الهزيمة
وتمايلي هنا وهناك وانثري عواصف قوتك واضحكي وقهقهبي بصوتك العالي
ودوسي على ما تبقى من الأشلاء أرقصي، أرقصي أيتها الهزيمة وتجتري سخفا
لك وألف سخق عليك

وصل ماسون إلى بيته في كاليدونيا دق الباب مرات، فتحت له فتاة صغيرة
الباب سألتها والدتها:

- أنجيلا من في الباب؟

ردت عليها:

- رجل لا أعرفه

أتت أختها كاترين التي تكبرها سنا لترى من في الباب، حظت عيناها لما
رأت ماسون رنجير وقالت متعجبة:

- بابا هذا أنت؟

أُغمي عليها من الصدمة

حملها ماسون رنجير إلى داخل المنزل، وبلل وجهها استفاقت بين ذراعيه
وقالت له:

- أنا لا أصدق عيناى لقد تغيرت كثيرا يا أباى، لقد نحفت كثيرا وشاب
شعرك ما الذى حصل لك

قبلها بين عينيها وهو غارق فى دموعه يطلب العفو منها ومن عائلته:

- كاترين صغيرتى أنا آسف جدا لأننى غادرت وتركتكم كل هذه المدة

تكلمت مرقريت المقعدة على الكرسي المتحرك أمامها ابنتها الصغيرة أنجيلا:

- لا تأسف ولا داع للبكاء كان عليك أن لا تعود، فلسنا بحاجة لوجودك،
الممرضة تهتم بصحتى، والطباخة تطبخ لنا وانلخدم والحشم حولنا نحن بخير
بدونك

نظر إليها ماسون رنجير وقال:

- لم أرسلت دانيال إلى باريس؟ يجب أن يعود، لن أتركه ليستعبده آل
فرونسوا لن أسمح أبدا بهذا

ردت عليه مرقريت بشماتة:

- اسأل عن نفسك، لا تسأل عن دانيال أرسلته إلى باريس ليؤمن مستقبله، انظر إلى حالكثير الشفقة حقاً، غلطة حياتي زواجي منك، لو صبرت قليلاً لتزوجت رجلاً على القليل كان فرنسا

خرج ماسون رنجير من البيت عاتبت كاترين والدتها مرغريت على تصرفها:

- لقد تطلقت من والدي بعد ولادتك لأنجيلاً لأنك لا تريدينه وطلبت منه أن يرحل عنا وبعثت أخي دانيال إلى باريس استجابة لطلب باتريك، أنت من شئت عائلتنا، إذا كنت لست بحاجة لماسون رنجير، فأنا بحاجة إلى والدي فأنا وأختي أنجيلا وأخي دانيال بحاجة له، كان عليك أن ترفضي زواجك منه بالأول

ردت عليها والدتها مرقرت طالبة منها أن تهدأ:

- عليك أن تحترميني أنا والدتك، زواجي من ماسون رنجير كان إرضاء لوالدي... كنت أحب باتريك لكن بعد سقوطي من الخيل شلت رجلي ولم أعد أقدر على المشي، هجرني باتريك ورفض الرجال الزواج مني بسبب إعاقتي، وقبل بي والدك، لهذا بعثت دانيال إليه ليكون ابني نصب عينيه ليتذكرني به، خاف والدي عليّ وقام بتزويجي من ماسون رنجير بعد أن رحلوه من باريس إلى كاليدونيا، لا أنكر أنه أحسن معاملتي كان جواداً معي وحسن المعشر حتى أن النسوة من قريباتي وصديقاتي يحسدني عليه، لكن كنت أمقته طول الوقت

خرجت كاترين وتبعته والدها ماسون رنجير كان جالساً على أرض المزرعة عانقته وحاورته طلبت منه أن يسامح والدتها مرقرت على كلامها فقال لها:

- أنا معتاد على كلامها المسيء لي، ليس بجديد عليّ لا أعرف كيف أرضيها هي دائماً غاضبة وناقمة ومكشرة الأنياب ومتقلبة المزاج نكازن النار، حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أحمي هذا الزواج من أجلكم لكنها أصرت على الطلاق ففعلت ما يرضيها، الحياة معها لا تطاق والعيش معها يشعري بالغثيان

- لقد اشتقت إليك كثيراً يا أبي، لقد تلقيت مفكراتك ورسائلك التي كنت تبعثها لنا، والدتي أمرت أن أرميها قبل أن أقرأها، لكن كنت أقرأها خفية وأخبئها في صندوق جدي الأسود الموجود في المستودع القديم خلف منزلنا، كنت أصلي من أجلك طوال الوقت، وكنت أحدث شقيقتي أنجلا عليك دائماً وأريها صورك، دائماً تسألني عن موعد عودتك وتطلب مني أن أقرأ لها رسائلك

تبعث أنجيلا أختها كاترين أمعنت النظر في والدها ماسون رنجير ثم ألفت نفسها بين أحضانه وهي تبكي، ضمّ ماسون رنجير ابنتيه كاترين وأنجيلا بقوة وهو في شدة بكاءه وتأثره واشتياقه لهما قالت له أنجيلا:

- بابا لا تتركني مرة أخرى، أنا أحبك كثيراً كاترين كانت تحكي لي دائماً عنك وتقرأ لي رسائلك وتسرد لي أيامك من مفكراتك

زاول ماسون رنجير العمل في المزرعة قرابة ثلاث سنوات كان خلال هذه السنوات صامتا يميل إلى العزلة والإنفراد بنفسه وكثير الاهتمام ببنته.

رسائل هدية

لم تفلح هدية في نسيان ماسون رنجير ومحوه من ذاكرتها ومن قلبها، فراحت ترفض كل من يطرق بابها لخطبتها تأمل أن يعود ماسون رنجير ذات يوم على فرس أبيض ويرجع إليها، كانت بين الفينة والأخرى تفتش بين أغراضه وتضم ثيابه وتشمها من شدة اشتياقها له وجدت بين أغراضه ظرفاً لم تفهم ما كتب عليه لعدم تعلمها، طلبت من ابنة عمها زهرة أن تقرأ لها ما كتب على الظرف، فقالت لها:

- هذا عنوان بيت ماسون رنجير في كاليدونيا أين كان يرسل الرسائل، ليس بداخله رسالة ربما هيئه ليرسل رسالة ما

اقترحت عليها زهرة أن تبعث برسالة اعتذار واشتياق إلى ماسون رنجير وترسله إلى هذا العنوان، فطلبت هدية من زهرة أن تكتب لها في الرسالة ما تمليه عليها:

- يا عزيزا ابن العزيز...أما تعود وتوفي بوعدك التليد لي

في كل ذكرى فراقنا تجلدي أحزاني عليك، ككربلاء تجلد نفسها في ذكرى
مقتل الحسين، ترى قلبي ينزف ألماً عليك، ولو كان الألم دماً لنزف غزارة
كدم القربان، فراقك عني جراح غابت عنك لا تدري، كجرح في ظهر
الخيال تحت السرج متداري، لا الخيل تشكي ولا الخيال داري.

عرفتك يوم نزول الثلج الأبيض بك طار وجداني هلل لساني بتسبيح عاتق
عنان السماء، حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم، شغفتني حبا
في الحين، ولجت أعماق قلبي بلا إذن وسكنت روحي بلا سابق إنذار،
تعلفت نفسي بك بلا مقدمات تمهيدية فاعتنقتك كعقيدة دينية.

جاءنا يوم الفراق الأسود طردك القدر عني ومن حياتك طلب مغادرتي،
تبسمت لقدري بعدها جن عقلي وتأزم حالي اشتعل قلبي غيضاً محوت
سعادتي وسجننتي كآبتي وتشوه يكاني انهار عصبي وخرت منظومتي وفقدت
دليل مسيرتي فغرق مركبي، أمثل على نفسي نسيانك فيفضحني ليلي،
أتجاهلك فتقدفني لجج الأشواق بسهام الحنين فأسدل على عيوني ستار
جفوني، علني ألقاك في أحلامي وتقول لي: «ها أنا هنا وكل الأنا فيك، أنت
أنا وأنا أنت وكل الأنا فيك»

يا عزيزاً ابن العزيز يا ذا الوجه المليح أرني أنظر إليك فإنك تسر ناظري
وترسم ابتسامتي وتخط فرحتي، أما تعود لي وتطرق أبوابي وتبهر ظهتي
وتسكت مطرقة نواح أشواقي، فإن غيابك عني ظلام حالك كغياب
الشمس عن الأرض، يهزني البرد القارص لوحدتي في الشتاء الغاصب

يا عزيز ابن العزيز يا لذيد المعشر، إن بعضي مشتاق لبعضي، فهلا أتيت
وأكلت بعضي، يا كلي وأنت كل حيي، منك امتلأت وما اكتفيت،
ولوجودك معي عطشت فشربت ومنك ما ارتويت

يا عزيز ابن العزيز يا بحري أنت فيك غرقت وما نجوت ولسهو غرامك
فشلت وما نسيت ولعشقتك استسلمت فزدت وما اعتزلت، ولذكراك وفيت
وما زليت، يا عليتي أنت منك ما شفيت يا أرضي أنت منك نفيت، يا وطني
أنت إليك حنيت، يا عزيزا ابن العزيز أما تعود وتوفي بوعدك التليد، فتحييني
وتغمرنني برائحة الشوق عند اللقاء كما وصفها أحمد شوقي

رائحة الشوق عند اللقاء كرائحة الأرض بعد المطر

لأن حياة الثرى بعض ماء وتحيا القلوب ببعض البشر

يا عزيزا ابن العزيز عساك تأتيني بنبا عنك يرأف بحالي وخبر يقين يثلج
صدري فيذهب عني بئى وكل أحزاني

يا عزيزا ابن العزيز، ترى القوم آتاني بالتهديد والوعيد عليك لازمني الخوف
الشديد وإني أعرفك بالعاقل الرشيد عقيد صاحب الرأي السديد مشهور
بالرحمة والحنان المديد، وإن قلبي العنيد يأبى أن ينفك من هيامي بعشقتك
العجيب فأصبح من حبك القديم لحة كالتقديد تراه يصارع عقلي البليد الذي
يفكر بك بشكل عديد مديد، ترى أني مستسلمة لهواك مصلوبة بعشقتك وإن
طيفك يزورني في كل أوقاتي اجتماعا وخلوة.

يا عزيز ابن العزيز ، يا كثير الحب والود، قد اشتقت لكلمة الدلال منك حبيبي، ترى أقف على صحائف ذكرياتنا أمشي عليها طلوعا ونزولا ذهابا وإيابا جيئة ومغادرة أقلب صفحات أيامنا عسى أجد فيها عزائي وما يواسيني ويخفف عني لوعة صابتي، تجدني أبكيك وأرثيك فأصبحت أنا المقصودة من ذا البيت القصيد:

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

يا عزيزا ابن العزيز ، يا أنت وكل الأنا فيك، يا عزيزا ابن العزيز يا عزيزا ابن العزيز أصلي الرب قيما يا ويني إليك والأبد يخلدني معك، يا عزيزا ابن العزيز أدعوا الله وأسأله باسمه المستجيب

أن تعود وتوفي بوعدك التليد لي، فتلبسني تاج الملوك أميرة لزمانى كما وعدتني في اليوم الشهيد، علك يا عزيز ابن العزيز تستجيب، وتأخذ بيدي إلى البيت الجديد ذا الأمان والكرم والجود وتكن لي الزوج العتيد والفارس الحديد والفرح دائما سعيد، من الرب نعمة عظيمة، بارك الله لنا وبارك فينا وبارك علينا أياما ذات بهجة كأيام الفردوس أعلى الجنان، يزينها الإستبرق والسندس من تحتنا تجري الأنهار، رزقنا الله قطعا مني ومنك لآلى كالزمرد الفريد، ولدان مخلدون غير بعيد عليهم عقائق أضحى شكرا لله كالعيد.

علقت زهرة على رسالة هدية:

- من عشقك الشديد أصبحت تنطقين بما نطق به الشعراء والعشاق، لم تنادينه بالعزيز ابن العزيز؟

- إنه عزيز النفس وعزيز عليّ، كنت أحاول أن أنظف صورة الوالد في عينيه، دائماً يقول لي أن يتيم ليس له أب ولا أم رغم وجودهما في حياته، وأردت أن أخفف عنه وطأة حياته الصعبة لذا ادعوه بعزير ابن العزيز، وكنت انصحته أن يكون الأب الرائع والمثالي لأبنائه وأن يحميهم من أثر طلاقه من امرأته،

وضعت هدية يدها على رجمها وبكت قائلة:

- يا ليتني لم أفقد جنيني من ماسون رنجير، لقد رحل ولم يعرف أنني حامل منه ومن شدة حزني فقدت الجنين وأجهضت، يا ليتني لم أفقده لكان ابناً يركض ولكان رائحة من ماسون رنجير

تلقت كاترين رسالة هدية قرأتها وأرتها لوالدتها، خبأت كاترين الرسالة في الصندوق الأسود في المستودع القديم، أخفتها عن والدها واجهت مرقريت طليقتها ماسون رنجير:

- هدية هي السبب، هدية هي السبب في الحزن الذي تلبسك منذ عودتك من الجزائر أنا محقة أليس كذلك؟ كيف لك أن تقيم علاقة عابرة مع امرأة غيري كيف لك أن تفعل بي هكذا

- هدية هي زوجتي ليست علاقة عابرة، وكانت نعم الزوجة عشت معها أياماً كأيام الفردوس أعلى الجنان، علمتني الحب، واحتوتني وأمنتني اعتنت بي واحتوتني وعاملتني بالحسنى، نحن مطلقان أنت من طلب الطلاق أليس كذلك، سأفعل ما أريد، لم أقترف ذنباً بل تزوجت بالمرأة التي حسستني برجلتي وبقيمتي وخافت علي وضحت من أجلي، كيف عرفت بأمر هدية؟

غادر ماسون رنجير وأصببت مرقريت بانهار عصبي وقالت لابنتها كاترين:

- كيف له أن يتزوج وابنته على أبواب الزواج، كان عليه أن يحترم علاقتنا قبل الطلاق

- أنت من طلب الطلاق يا أمي، أنت لا تحبين والدي، لم حزنت الآن على زواج والدي

- أي امرأة مهما كانت لن تتحمل خبر زواج طليقتها وتبديلها بأخرى فهذه إهانة لها ولأنوثتها

- بل زواج طليقتك يا أمي قد مسّ نرجسيتك

- أنا حزينة على نفسي أنا امرأة مقعدة، تزوجت والدك ماسون رنجير وبي علة مستدامة في رجلي، أكبره سنا أكثر من خمس سنوات تزوجته وأنا ابنة العشرينات وهو كان في الخامسة عشر من عمره أنجبت دانيال منه وهو ابن السادسة عشر لم أحبه لأنه كان منبوذا من أهله فكرهته أنا أيضا رغم معاملته الحسنة لي، كان يخدمني ويسهر على رعايتي وراحتي، حتى أنه يتحمل تقلب مزاجي وغضبي وصراخي الدائمين عليه، كنت أظن أنني ضمنته، لكن اليوم قد فقدته... فقدته للأبد

- لم تفقديه يا أمي أنت أم أولاده

- ألم تري الحب ينبع من عينيه حين ذكرت له هدية تلك الفتاة الجزائرية، يبدو أنها طائعة له وتعامله أحسن معاملة كما كان يعاملني، كان والدي مصرا على تزويجي من ماسون رغم رفضي له لكنه كان يقول لي جيناته

من الأوفياء ومعدنه أصيل لن تخيبي معه، لقد أفسدت كل شيء وخربت كل شيء جعلت حياة ماسون رنجير حياة ضنكى، ليس من الغريب أن يتزوج بامرأة غيري تعوض عليه ما قاساه معي، لقد خسرت ماسون رنجير لقد خسرتة إن قلبه ينبض بحب هدية.

لم تتلقى هدية ردا لرسالتها فقررت هدية أن ترسل رسالة أخرى لماسون رنجير تصف تعبها ووهنها من اشتياقها له عله يرد عليها فطلبت من زهرة أن تكتب ما تمليه عليها:

- كآخر الليل أنا منهكة أحمل تعب العقول وسأم الأرواح من شدة الأفكار المشوشة ومن كثرة التنهيدات الكثيرة بعد أن أنساك فيّ وضخ النهار فهل يذكرك بي آخر الليل أنا فسحة الأمل؟ أم آخر الخيارات؟ يا ليتني...، يا ليتني... كنت فلسفة جدلية، أزلية، أبدية، سرمدية أجول فكرك صبحه، وأشغل بالك عشية يا ليتني...، يا ليتني... كنت طقسا من طقوسك اليومية يا ليتني...، يا ليتني... لم تلتاق بي في ببداء بعثرتي، ولم تنتشلي من خرابي، ولم تهدني السبيل بعد تيه طريقي يا ليتني...، يا ليتني... ما انتبهت إليك وأكملت دربي على أشواك القسوة والملل من كل شيء لم؟ لما أنقذتني من نفسي ومن ضياعي ومن بعثرتي؟ لما أنقذتني من وحدتي؟ لما نصبت نفسك مخيما ألتجئ إليك؟ لما احتويتني من كل جوانبي إذا ما يوما قررت أن تعترني؟ وتطردي من مخيمك وتهجري طويلا؟ لم لبست ثياب اللص وسرقت قلبي وشردت عقلي؟ ها أنا أقف ثانية على بابك، علك تحتويني كما سبق ونعيش حلو البدايات أم إنها بداية للنهاية؟ ككل البدايات التي تأتي بسريع النهايات أستغيث برسائلي، وأنا واقفة متوترة قلقة متأكلة هل ستفتح

لي الباب؟، وتمسح الكمد عن عيني؟ وتبنياني حضنا دافئا وأمنا وأمانا ودعما وسلاما أبدا؟ أم علي... أم علي... أن أنكس أمني فيك، وأسقط انتظاري لك وأرفع الحقيقة التي تحمل بضاعة الخلية وأمتطي مركب اليأس منك والاستسلام وأرحل بعيدا عن ذكراك.

خبّأت كاترين رسالة هدية في الصندوق الأسود الذي اعتادت إخفاء الرسائل، وأكثرت هدية إرسال الرسائل لماسون رنجير رغم عدم تلقيها ردا منه فأرسلت له رسالة عتاب:

- إلى متى...؟! إلى متى...؟! ككربلاء أنا أنزف؟!!

ها أنا ها أنا أسمع صوت الوحدة في وطن العزلة تناديني باسمي وتقول لي: «هلم إلي» هلم إلي عزيزتي لطالما آنتك ورافقتك دربك ألق عنك حزنك، وكفكفي دمعك واضربي الحسرة عرض الحائط إنما طبع البشر يذهب بالوفاء ويظهر الجفاء فيردك كالقتيل إذا ما حل الجديد وناب البديل وهم بالرحيل

إلى متى...؟! إلى متى...؟! ككربلاء أنا أنزف؟ تناديني الوحدة تناديني والصدى... والصدى يعلوها صوتا هلم إلى أحضاني هلم إلى أحضاني لطالما كنت أنا حضنك العتيق ارجعي إلي ارجعي إلى وطنك الوحدة والعزلة.

إلى متى؟ ككربلاء أنا أنزف إلى متى؟ إلى متى؟ أسير عارية الروح وأمشي حافية الأمل إلى وطن العزلة وأنفي إلى وحدتي حيث الوحشة أين تتعشش الأفكار في ذهني وصوت عقارب الساعة يغتصب صمت هدوء مكاني إلى متى؟ إلى متى؟ أنتظر من قدوم الفارس على الجواد يجري يأخذ بيدي إلى

وطن الوفاء والفرح والتقاء والفلاح إلى متى؟!.. إلى متى؟! ككربلاء أنا
أنزف كلها كلها لمحت قبسا من نور أقول أبشري يا نفس إنه آخر النفق
ليفاجئني ببداية جديدة لنفق آخر أسوء ربما الحل هو الوحدة والعزلة ربما
الحل ترك كل ما هو خلفي والرحيل إلى المنفى ربما أبقى كالحُسَيْنِ أنا
ذكرى.

أخفت كاترين رسائل هدية عنه ولم يعلم بإرسال هدية رسائل له، قررت
هدية أن ترد على كاترين برسالة تُبعدها عن والده، وتكتب لها كلمات
تفقدتها الأمل بعودة ماسون رنجير إليها فكتبت في رسالتها إلى هدية باسم
والدها ماسون رنجير:

استلمت هدية الرسالة تكاد تطير من الفرح، أرسلت إلى زهرة لتقرأ لها
الرسالة وقالت لها:

- الصابر ينال، رأيت بأمر عينيك لقد رد علي ماسون رنجير أنا متأكد أنه
اعتذر لي في رسالته هذه، وأنا متأكد أنه يبشرني بقدومه، سأقف في وجه
القوم لأنني أحبه رغم أنف قبيلتي ورغم أنف قبيلته افتحي الرسالة واقري
لي ما كتب لا أستطيع الانتظار أكثر

فتحت زهرة الظرف وأخرجت الرسالة اصفر وجهها وأفل الحماس منها
وقالت:

- إنه يقول لك:

- من ماسون رنجير إلى هدية: لن معبر الجسر معا

صدمت هدية من الرد الذي تلقتة، ونصحتها زهرة:

- انسيه عزيزتي، انسيه تزوجي واملئي هذا الفراغ الذي يحيطك بأولاد
تخبينهم الوقت كفيل كي تنسي

ركنت هدية في زاوية غرفتها حزينة كثيبة وقالت لزهرة:

- لا أستطيع، لا أستطيع أن أنساه، حبه يسير فيا سير الدم

مرت الأيام وهدية حزينة على حالها طلبت من زهرة أن تخط لها رسالة
تبعثها لماسون رنجير فقالت له:

- إلى الذي قال لي: « لن نعبر الجسر معا »

الجسر على حاله هذا غاد وهذا رايح وأنا لازلت على قارعة الجسر أنتظر...
أنتظر الخليل والفصول الأربعة تسألني ألم تملي؟ ألم تكي؟ أجيها أيي أستأنس
بثلوج الشتاء البيضاء التي تشبه وأستأنس بخضرة الربيع، وأستأنس بذهب
شمس الصيف الذي يشبه ذهب معدن المنتظر وأستأنس بأشجار الخريف
التي تلقي بالأوراق المنهكة وتستعد لولادة أوراق جديدة قوية، التي تشبه
تساقط أيامنا المتعبة فتني بعهد جديد من الأيام القوية الجديدة

إلى الذي قال لي: « لن نعبر الجسر معا » إني أنتظر على عتبة الجسر وعلى
ضفاف الأنهار والأيام وعلى أغصان الأشجار وعقارب الزمان، إني أنتظر
في الصباح والمساء وفي أول النهار وفي غسق الليل أنتظر في طلوع الشمس
وغروبها وفي كل الأوقات أنتظر قافلة العزيز تملك كي نعبر الجسر معا.

ألقت كاترين رسالة هدية في الصندوق وكتمت عن رسائلها وحرصت على أن لا يعلم والدها ماسون رنجير بأمر الرسائل، لمست من والدها الحزن والكتابة وقفت خلفه تترقبه دون علمه ينظر إلى وجهه في مرآة مربعة صغيرة يرثي نفسه:

- أهذا أنا؟ أهذا أنا الذي أفل نجمه بعد سطوع، أهذا أنا الذي هرمت روحه في عز شبابه، أهذا أنا الذي ذبل وجهه بعد تفتحه، أهذا أنا الذي اسودَّ يومه بعد إشرافه، أهذا أنا الذي انقطع كلامه بعد كثرته، أهذا أنا الذي شلَّتْ خُطاه بعد شغفه، أهذا أنا الذي طال ليله رغم طلوع فجره، أهذا أنا الذي ملَّ من نفسه بعد عشقه لذاته، أهذا أنا الذي أهمل كل أعماله بعد إتقانه، أهذا أنا الذي هوى أرضاً، بعد أن انكسرت أجنحته في سماء علوه أهذا أنا الذي يئس من روحه بعد أمله، أهذا أنا؟! أيعقل هذا؟! هل من راق؟ يرقيني، فيداويني اسمعي صراخي يا بلدي، يا سماء احضيني يا سماء ارفعيني عالياً إليك واجعليني بين الطيور في وسعك أحلق وأطير اغمريني بهوائك العليل نظفيني من تعب الأرض الطويل ارحميني من شقاء البسيطة الذليل يا سماء أعيدي لي وجهي الجميل، يا سماء أعيدي لي نوري البهيج يا سماء أعيدي لي رוחي السعيدة يا سماء أعيدي لي أمني وحظي ونصبي في بلدي يا سماء أعيدي لي حقي في أن أعيش.

الصدوق الرُّسود يُفتح

حمل ماسون رنجير ابنته الصغيرة التي لا تفارقه راح يداعبها أجلسها
في حجره، سألته في براءة:

- أبي ما كل هذه الكتب التي تقرأها

- إنها كتب من الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

-أحتي قالتى بي إن لغة الجزائر العربية، لم يكتبون بالفرنسية

ابتسمت ابنته الصغيرة انجيلا قبل ماسون رنجير يديها الصغيرتين وقال لها:

- عندما تكبرين وتتعلمين يا بنيتي ستفهمين هذا الأدب سأحتفظ بكل هذه
الكتب من أجلك صغيرتي، سأسرد لك قصص بنوار الفتى الجزائري
وسأسرد لك مرويات ليلي فتاة البرابر، ومرويات مريم بين النخيل سأروي
لك الكثير والكثير ستحبين الجزائر والجزائريين صغيرتي

- أبي ما الذي بينك وبين الجزائر

ابتسم ماسون رنجير وجاوبها:

- كأنما بيني وبين الجزائر ألف وعام من الحنين

ثم سألته من جديد:

- أبي صف لي الجزائر:

- غازلت الكلمات ونسجت المفردات واستأجرت الحروف من بنوك
الأبجديات من كل الألسنة واللغات، أركب في وصف يليق بالجزائر
وحسنها ووصف شعوبها، لكن كل الكلمات والمفردات والحروف
والأبجديات اعتذرت وقالت أنها لم تستطع إلى وصف الجزائر سبيلا

- لم أفهم يا أبي

- عندما تكبرين وتسافرن إلى الجزائر ستفهمين صغيرتي

اقتربت كاترين من والدها وحضنته من الخلف ووضعت رأسها على ظهره
وسألته:

- أنت أروع أب في الوجود، وجودك بيننا أفضل مما طلعت عليه الشمس

قبل ماسون رنجير ابنته كاترين على جبينها وضما إليه ثم سألته من جديد:

- من تحب أكثر هدية أم أنا وأنجيلا ودانيال

- هدية اسم على مسمى كانت هدية الرب لي، كنت أسعد رجل معها،
أيامي معها من أسعد أيام حياتي، أما أنت يا كاترين وإخوتك أنجيلا ودانيال
قطعة مني وفلذات أكبادي أفديكم بروحي ودمي وأنا مستعد للموت لأجلكم

- أنا خائفة يا أبي، أنا خائفة

- مما أنت خائفة يا بنتي، لا داع للخوف أنا بجانبك دوما

- أنجيلا أصبحت تلازمك وقليلًا ما تفارقت خوفًا من أن ترحل مجدداً، أنا خائفة مثل أنجيلا، أنا خائفة أن أستيقظ يوماً وأجدك قد رحلت مجدداً

- لا داع للخوف ابنتي الحبيبة

- أبي هل تسامحني وتغفر لي؟

- على ماذا أسامحك بنتي؟

- لقد أخفيت عليك رسائل هدية، من شدة خوفي عليك، ومن شدة خوفي أن تسافر مجدداً أخفيت الرسائل التي بعثتها إليك هدية في الصندوق الأسود الخاص بجدي ميشل، لكن يعز في نفسي أن أراك حزينا كئيبا ومغلوبا على أمره، أنت عانيت كثيرا مع أُمي ومن حَقك أن تعيش حياة سعيدة مع من تحب لذا قررت أن أخبرك بالحقيقة وأفتح لك الصندوق الأسود يا أبي

اصطحبت كاترين والدها إلى المستودع القديم وفتحت الصندوق الأسود القديم الخاص بجدها ميشل فرونسا وأخرجت رسائل هدية، لمح ماسون رنجير فردة حذاء يناسب الرجل اليسرى مشابهاً بحذاء الذي وجدته في الخندق الموجود في قرية البير إوهرايان، أخرجه من الصندوق وقلب فيه وجد غلاف القلم الأزرق وتذكر القلم الموجود في نفس الخندق ووجد النصف الآخر من بذلة الرضيع مكتوب عليها:

- أنت متت وأنا سأنتقم ممن كان من صلبك يا علي، سأستعبد بنيك وأسيل دمك الذي يسري في بنيك

ثارت نائرة ماسون رنجير وتوجه إلى قبر والده ميشل فرونسوا حمل فأسا شرع بتخطيم قبر والده ميشل وهو يصرخ في غضب شديد:

- ماذا فعلت بي أيها القدر، أيها الضابط الحقير، انهض وتكلم، هيا تكلم

كان عمه ليونير في صدد زيارة قبر ميشل رأى ماسون رنجير وهو في حالة غضب شديد ارتعب منه ومن تحطيمه لقبر أخيه أدرك عمه أن ماسون رنجير اكتشف شيئاً يؤثم عليه ميشل فرونسوا، لاذ بالفرار دون أن يحس عليه ماسون رنجير، تذكر قول طليقته التي قالت حينما جادلته:

- على القليل كنت تزوجت رجلا فرنسيا ليس غريبا

اتجه نحو مرقريت فتح الباب دون إذن، أمسكها من ذراعيها وهزها بقوة وسألها:

- ماذا تعرفين عني؟ يا مرقريت ماذا تخبئين عني؟ من أنا؟ كنت تمنين أن تتزوجي رجلا فرنسيا أليس كذلك أن من؟ أنا لست فرنسيا صحيح؟ هيا قولي شيئاً؟ لم أنت ساكنة؟

ارتجفت مرقريت وبدأت بالبكاء وقالت له:

- أنا لا أعرف من أنت، عندما طلب والدي أن أتزوج منك قال لي إنه من دم نظيف لا يخون، وأنه من معدن ثمين ذا أصل رفيع وفي لتراب

وطنه يتوارثون الغيرة على ذويهم فيحمون ما يملكون، أنت لست فرنسيا يا ماسون، أنت لست فرنسيا... سلبوك انتماءك وسلبوك هويتك انتقاما من خسارتهم، جعلوك تنتمي إلى بلد ليس ببلدك الحقيقي وجنسوك بغير جنسيتك هذا كل ما أعرفه

نزع ماسون رنجير يديه من كتفي مرقريت وجلس على الأريكة من شدة الصدمة كاد يُصرع مما سمعه ثم قال بصوت خافت:

- إحساسي بعد الانتماء لعائلة ميشل فرونسا ومعاملته القذرة والقاسية لي خلق في نفسي الشكوك، إذن أنا من؟ أنا دزيري؟ يعني أنا جزائري؟

- لا أعرف من أنت ومن أي بلد أنت؟ لقد استعمرت فرنسا الكثير من البلدان آنذاك لا أعرف إن كنت جزائريا أو من أحد بلدان شمال أفريقيا أو بلد آخر، كلما أعرفه أنك لست فرنسيا

- لم؟ لم تخبريني سابقا؟

سقط ماسون أرضا من شدة هول ما اكتشفه أصابته الرجفة وأصابه القيء الشديد، اصطحبتة كاترين إلى السرير مد جسده على السرير الذي تخنّض بالعرق المتصبب من جسد ماسون رنجير، أصابته حمى شديدة وشعر ببرودة شديدة طلب من كاترين أن تغطيه بأغطية دافئة لكن لم يشعر بالدفء، بل ازداد البرد عليه، فطلب منها أن تزيد له الأغطية فغطته بكل الأغطية الموجودة في المنزل ثم نامت أمامه محتضنة له وراحت أنجيلا تمسح عن وجهه العرق المتصبب وتطمئننه أنه سيتحسن وسيكون بخير ثم حضنته علّه

يتدفأ، لكن ماسون رنجير مازال يرتجف من البرد الشديد وهو يردد ألما
ويشتكي قهرا مما قاساه في أرض ميشل فرونسوا:

- دثروني دثروني

زملوني زملوني

أنقدوني أنقدوني

من تراب الوعر حيث بوق الآه صيَّاح

دثروني دثروني

زملوني زملوني

أنقدوني أنقدوني

من تراب الجور حيث سيف الظلم سفَّاح

دثروني دثروني

زملوني زملوني

أنقدوني أنقدوني

من تراب البور حيث رجل البؤس سيَّاح

دثروني دثروني

زملوني زملوني

أنقذوني أنقذوني

من تراب الجهل حيث عاصف الهلاك رياح

دثروني دثروني

زملوني زملوني

أنقذوني أنقذوني

من تراب القهر حيث فم المأساة أقراح

دثروني دثروني

زملوني زملوني

أنقذوني أنقذوني

من تراب الانتظار حيث المستقبل المجهول والخوف والأتراح

دثروني دثروني

زملوني زملوني

أنقذوني أنقذوني

من تراب الغدر حيث زمهرير الشياطين من الإنس وصرصار الشر أشباح

دثروني دثروني

زَمْلُونِي زَمْلُونِي

أَنْقَذُونِي أَنْقَذُونِي

إلى تراب اليسر حيث بوق الحمد والشكر صياح لا جراح

دَثْرُونِي دَثْرُونِي

زَمْلُونِي زَمْلُونِي

أَنْقَذُونِي أَنْقَذُونِي

إلى تراب العدل حيث سيد الأرض للقسطاس المستقيم زارع فلاح

دَثْرُونِي دَثْرُونِي

زَمْلُونِي زَمْلُونِي

أَنْقَذُونِي أَنْقَذُونِي

إلى تراب الخصب حيث عقب النعم فواح

دَثْرُونِي دَثْرُونِي

زَمْلُونِي زَمْلُونِي

أَنْقَذُونِي أَنْقَذُونِي

إلى تراب العلم حيث أنوار الحياة والانشراح

دثروني دثروني

زملوني زملوني

أنقذوني أنقذوني

إلى تراب البهجة وجوه الخلق مستبشرة وفم الزغاريد أفراح

دثروني دثروني

زملوني زملوني

أنقذوني أنقذوني

إلى تراب الوصول حيث المستقبل المشرق وطمأنينة النجاة كسفينة نوح

ذات الألواح

دثروني دثروني

زملوني زملوني

أنقذوني أنقذوني

إلى تراب الوفاء حيث الأهل أفضل الإنس وصدق الأصدقاء من خيرة

الأرواح

نهض ماسون رنجير من مكانه بعد أن ذهب عنه الروح، أوصى مرقريت
بالاعتناء بابنتيه أنجيلا وكاترين، ترجمته مرقريت أن لا يرحل:

- وما الفائدة من إخبارك، القدر ساقك إلى هنا، أرجوك لا ترحل يا
ماسون، رحيلك وابتعادك عني، أو بالأحرى لقد ندمت على تطليقي منك،
لم أعرف قيمتك إلا بعد أن خسرتك فلنفتح صفحة بيضاء

أنت جرائري

نخرج ماسون من البيت واتجه نحو المطار وحجز أول رحلة إلى باريس،
دخل إلى بيت أخيه بارتيك فرونسوا شدّه من عنقه كاد أن يخنقه لولا
تدخل دانيال قال لبارتيك:

- من أكون أنا؟ من أكون أنا؟ أنت سيد أبيك ميشل فرونسوا، أنت كتفه
اليمنى ومخبأ أسراره، ميشل فرونسوا ذلك الضابط الذي ينهب الأراضي
وممتلكات الناس ويقتل الناس العزل ويسرق أولادهم ويستعبدهم انتقاما
وحقدا، أنت تعرف حق اليقين أنني لست فرنسيا

- كفك نبشا للقبور، ارحم نفسك وارحم من معك أغلق أبواب الذاكرة،
لم تُنقب في التاريخ؟

- في ذاكرتي... في ذاكرتي فوضى من جبال الملفات الكثيرة وأبجر من
القضايا المعقدة كلّها أوقدت النار فيها واحترقت رمادا مندثرا بعثت خلقا
جديدا فتعود تحظر ذات البأس الشديد تفرض... تفرض نفسها في عقلي

فرضا وبقوة فتأزني أزا ودوي البارود يعكس صدها في أذناي تراشقه
البنادق مع صور صادمة عديدة لا تخلوها أصوات الأرواح الشريرة
ووجوه الأشخاص اللثيمة ذات السمات الدنيئة والحكايات الأليمة والحقائق
الدفينة في رحم الخنادق العميقة التي تحرسها قمم الجبال الحادة الشاخنة التي
تروي القصص الحزينة بعيون باكية دما سائلا كان مداد التاريخ كتب على
صفحات الأرض والتراب، ذاكرة تأتي... تأتي أن تندثر وتأتي أن تعود
إلى رفوف الأرشيف العتيقة في فصّ النسيان في الذاكرة المنسية للأحداث
الغابرة القديمة

- نعم أنت لست فرنسيا ولست أخي ولست ابن ميشل فرونسا

- من أنا إذن؟ من أكون؟

- أنت جزائري، أنت من مدد الجزائريين، سلبك أبي من عائلة جزائرية
بعد ما قُتلت ليعذبك وليستعبدك حقدا وانتقاما لخسارتهم الحرب، لكن
والذي ازداد حقه عليك كنت المميز بيننا والمفضل والناجح في كل شيء،
عمد على إذلالك وقطع كل سبل النجاح والتميز في وجهك، حتى نحن كما
نغار عليك ونحسدك

- من هي عائلتي؟ من هم أهلي؟

- لا أعرف هذا كل ما أعرف

- لهذا أبعدني عنكم وحرمني من إتمام دراستي، ورحلني ونفاني إلى كاليديونيا
لأخدم مزارعه وزوجني وأنا قاصر، وحرمني من الإرث، والآن حللت

محل والدك وتريد أن تسلب مني ابني دانيال، في قلوبكم مرض ستموتون
 بحقدكم الدفين هذا ولن يهنأ لكم بال، ألا تنجل من نفسك؟ أليس لكم
 مثقال ذرة من عزة وكرامة ونخوة، تستقون على رضيع لتارسوا عليه أشد
 أنواع العذاب النفسي والمادي حقدا وكرها وتسلونه هويته وجنسيته لأعجب
 في ذلك فالجرائم التي أقامها في الجزائر أشد.

ألقى ماسون بباتريك أرضا وقال له باشمئزاز:

- هذه قصتي معكم، عار عليكم سأسمها في الخرطوم وأسمع بها الأجناس يا
 من تدعون الحضارة وتحتبثون خلف حقوق الإنسان لممارسة خططكم
 الدينية والقدرة

استفزه باتريك بقوله:

- أنت فرنسي شئت أم أبيت

غادر ماسون رنجير بيت باتريك جلس على صور نهر السين مقابلة لماء النهر،
 مرّ أمامه بائع يهتف:

- أنا بائع السعادة، أبيع الورود والبالونات والدمى الدبية والقلوب المصنّعة،
 أنا بائع السعادة استري السعادة وأنشرها لأحبائكم

تقدّم البائع من ماسون رنجير وقال له:

- اشترى الورود وانثر عبقها لأحبائك

نظر إليه ماسون رنجير بعينون ذابلة مبللة محمرة كاحمرار الأزهار:

- يا بائع السعادة أقرضنا البعض منها فإنا بما ل قارون لا تقوى على اقتنائها
فقد طال بنا الحال من جور الكآبة فألقها على رؤوس قلوبنا وأغشنا بها فإنا
ها هنا نحترق كآبة ونذوب حزنا وحيرة في شواطئ الألم قد ساء سبيلا

اشترى ماسون رنجير كل الأزهار والقلوب وشرع في رمي القلوب إلى نهر
السين، ثم الأزهار وشرع برمي أوراقها إلى النهر، تبعه ابنه دانيال متعقبا
له، جلس أمامه وقال له:

- لا تذهب إلى الجزائر، لقد نجوت من الموت في حرب التحرير لا نريد
أن نخسرك، الوطن هناك ممزق بالإرهاب رائحة الدماء تفوح من كل قطر
فيه، لا تذهب أرجوك لا نريد خسارتك، عد إلينا لنجمع شمل عائلتنا من
جديد

- سأجمع شمل عائلتي التي سُرقت منها أولا، كي يتسنى لي أن أجمع شملكم،
يجب أن أجد عائلتي الجزائرية، ليتسنى لكم أن تعرفوا أصلكم وفصلكم، الدم
لن يتحول إلى ماء أبدا، الدم الذي يجري في عروقك هو دم جزائري، ليس
دم ميشل فرونسوا، تحاليل الحمض النووي تثبت أنني لست ابنا للفرنسي
ميشل فرونسوا

- الأوضاع الأمنية خطيرة في الجزائر الإرهاب يقضي على الحابل والتابل
والحصول على تأشيرة دخول أمر صعب جدا

- سأدخل الجزائر عبر تونس

- كيف؟

- سأدخل الأراضي الجزائرية مطلع نوفمبر المقبل عبر تونس كما كان الجنود يدخلون السلاح إلى أراضيها إبان الثورة، هذه حربي يجب أن أنتصر على ميشل فرونسوا، أنا أوصيك يا ولدي أن تعود إلى كاليدونيا، عد إلى كاترين وأنجيلا عوض عليهما غيابي وكن لهما بمثابة الأب

رحمى بقية الأزهار إلى النهر وقال لابنه دانيال:

- هنا يرقد أجدادك يا بني، دانيال ابني خالف الفرنسي باتريك ولا تقبل استعباده لك، اسمع إلى صوت فؤادك وتعلم، وكن شامخا، وإن ما حاول الأعداء إرضاخك واستعبادك واستغلالك تعال إلى هنا وخذ العبرة والنخوة والعز والشرف من أرواح الشهداء في هذا النهر واحك لهم سيسمعونك وسيمدونك بالشجاعة والجرأة، كن شامخا مثل أجدادك الجزائريين، دانيال ابني اعلم أنك إن لم يرض عنك باتريك فرونسوا فإنك تسير في الطريق الصحيح.

ماسون رنجير في الجزائر

عبر ماسون الحدود التونسية متجها إلى الجزائر، أحس بتغير كبير في نفسية الجزائريين كانوا خائفين وحذرين من الإرهاب، الشوارع تكاد تخلوا من المارين مساء، ليلة الفاتح من نوفمبر اتجه ماسون إلى بلاد الشاوية إلى منطقة هاغيث تأمل التضاريس والجبال أخذ بندقية وأطلق الرصاص حتى فرغت من كل الرصاص وهو يصرخ قهرا وألما بكل ما أوتي من قوة:

- يا علي باعوني يا علي، يا علي باعوني يا علي

ظل يصرخ حتى نفذت قواه سقط أرضا من الإرهاق الجسدي والنفسي، طلع الصبح مشى في وجهة لم يعرفها، أوقف سيارة أجرة وقال للسائق:

- اذهب إلى أين شئت فلا وجهة لي محددة الآن

قال له السائق:

- ربما يظن الكثير أن ساتقي الأجرة سيتنازلون عن عملهم بسبب الخوف من الإرهاب، نحن ناس خير، وناس مساعدة، لا نهاب المخاطر، الخوف دفناه إبان الثورة التحريرية، وتعلمنا أن نساعد بعضنا البعض، وتعلمنا أن

نكسب قوت يومنا بعرق جبيننا دون مخافة من شبح الموت، سننجو من شبح الإرهاب كما نجونا من فرنسا وما سبقها من استعمار وستزهر الجزائر من جديد وتُضيء بضياء السلم والأمان، نحن الجزائريين وضعنا اليد في اليد وحرصنا على بنائها ونحرص على أمنها

بعد ساعات من السير ركن السائق سيارته في قسنطينة نزل ماسون رنجير بدا كالتائه بين شوارعها، يذهب وييجي بين جسورها المعلقة، وقف على جسر سيدي مسيد نظر إلى أسفل الجسر تمنى لو كانت له القدرة على إلقاء نفسه من الجسر ليرتاح من عذاب تفكيره، لكن أعاذ الله من فكرته هذه وعزم أن يُكمل رحلة بحثه عن ذاته وأصله، أخرج من معطفه بطاقة هويته قلبها بين يديه وهو يقرأها:

- الاسم: ماسون رنجير

- اللقب: فرونسا

- تاريخ الميلاد: 12 ديسمبر 1956 بباريس

- الجنسية: فرنسية

أخرج قلما أسودا وغطى بالمداد على كلمة فرونسا وكتب بدلها:

- اللقب: دزيري

وغطى على الجنسية بالمداد وكتب أمامها:

- الجنسية: جزائرية، الدم: جزائري

وأحاط تاريخ ميلاده في إطار وكتب أمامه:

- تاريخ ميلاد مشكوك فيه

مرّق ماسون جنسيته إلى قطع صغيرة جدًا ونفخ فيها وهوت من الجسر بهدوء إلى القاع، مرّ أمامه رجل كبير على كرسي متحرك طلب منه أن يساعده على الذهاب إلى المسجد، وفي طريقهما إلى المسجد قص له الرجل المقعد سبب فقده لرجليه:

- أنا فلاح بسيط من الجنوب نعيش على حليب الإبل والتور وعلى بعض المحاصيل الزراعية، كنت أرمي الغنم والإبل دست على لغم من ألغام فرنسا التي زرعتها في أراضينا انفجر عليّ وفقدت رجلاي الاثنتين أغمي عليّ، يا ليتني تمت ولم أكن معطوبا وعالة على غيري، رحل بنا ابني الكبير إلى قسنطينة خوفا من أن تتكرر هذه الحادثة مع أحد من أفراد العائلة لكثرة الألغام فيها، دخلا إلى المسجد لتأدية صلاة الظهر وطفق الرجل يدعي:

- آيتها الأقرح تزلزي عنا واسقطي من أطراف كينونتنا ولترجلي إلى باطن اللاوجود منفي لك وبك اللهم لا لقاء، اللهم زلزل الأقرح عن وطني ولملم جراحه

كان ماسون جالسا على زاوية المسجد شارد الذهن، خاطبه الرجل قائلا:

- ارفع يديك وادع الله بما شئت فإنك في بيته ولا يرد دعاء المضطر، ادع لي الله أن يطول في عمري من أجل أن أصلي في مسجد الأمير عبد القادر لما يتم تأسيسه هنا في قسنطينة، وادع لي الله أن أزور بيته الحرام، رفع ماسون رنجير يديه داعيا:

- يا دعاء طال قيامك أرتلك قبل الصلاة وأثناء الصلاة وخلف الصلاة
وآناء الليل وأطراف النهار وعند الغسق والفلق احظر إليّ واحمل إليّ البشري
وقل الآن: «قد أذن المستجيب»

خرج ماسون من المسجد يفكر في أمره:

- يجب أن أرتاح كي يتسنى لي أن أعيد ترتيب أفكاري، أحتاج إلى أحد
يسمعي، نعم إنه هو، هو سيسمعي وسيتفهمني لا غيره

ضمّ ماسون رنجير مقام الشهيد وأسند رأسه عليه وهو يخاطبه:

- أنا دزيري أعرف أنك حفظتني في ذاكرتك كما تحتفظ أسماء الشهداء
وتاريخ الجزائر العظيم، أنا جزائري بانة الحقيقة، أنا منك وأنت مني،
أرادت فرنسا تجنيسي وسلب أصلي وعملت على طمس هويتي وثقافتي،
سرقني من أهلي ومارست سلطتها فيّ وما عملته فيا لتثبت أن الجزائر فرنسية
لكن هيات أن تفلح، فالدم لن يتحول إلى ماء والجزائر جزائرية والجزائر
للجزائريين وأنا ابن الجزائر الباديبي وابن الأمير عبد القادر والدم يفور في
جسدي على وطني كما يفور الدم في عروق الجزائريين والمجاهدين والشهداء،
أنا جزائري ابن الجزائر لست ابن فرنسا

توجه ماسون رنجير إلى القصبه دق على باب مقهى عمي العربي، طلب منه
عمي العربي أن يقترب:

- اقترب أيها السيد بصري ضعيف لا يمكنني أن أراك من بعيد

- شممت رائحة القهوة المميزة، هل لي بكأس

- ماسون رنجير هذا أنت؟ سأنادي بودالي

تأسف بودالي من موقفه من ماسون رنجير لما كان موظفا في المقهى، قدّم له عمي العربي الصورة التي سقطت منه ورواية الغريب التي كان يطالعا آنذاك

قال لهم ماسون رنجير:

- أنا الغريب حقا بين وطنين لم أحس يوما أنني فرنسي ولم أعرف كيف أثبت أنني جزائري، أنا غريب عن نفسي وعن وطني

أشار بودالي إلى الرضيع في الصورة وقال له:

- أنت هو هذا الطفل، لقد تم سلبك من عائلتك في أحد الأرياف الثورية الجزائرية، لا نعرف أي ريف بالتحديد

تذكّر ماسون رنجير إريك موتانا، وقال في نفسه:

- كيف لم يخطر على بالي أن أفتش في وثائقه وأغراضه في خزانته في البيت

حب الوصول نحو الرُهاب بلّ الرهاب

اتجه ماسون نحو وهران دخل إلى البيت الذي ورثه من إريك موتانا
كاد يُصعق من المنظر الذي رآه سأل صديقه سعد:

- ما الذي جرى لك؟ هل أصبت بحادث؟

ردّ عليه سعد بكلمات حزينة يلوم نفسه:

- سذجتي رسمت لي لوحة نهايتي ممن جعلتهم في مكانة أهلي ودرجة الخلان
والأحباب قاسمتهم ملح الطعام، سذجتي قيدتني بكآبتي وأودت بي إلى
سُيول الخليات وإلى مسارح الإفلاس... إفلاس روحي، نفسي،
اجتماعي، مادي خسرت صحتي أترى الذي استقوى بنتانة روحه الدينثة
وبأقنعة وجهه المتعددة وضحك عليّ بسبب سذجتي

- سذاجة؟ ماذا تقصد؟ لا تُثر أعصابي أكثر ما الذي حدث لك؟

دخل صديقيه ناصر ومخلوف لابسين قيصين وأطلقا لحيتهما، حطّا على رقبة
ماسون رنجير خنجرين وقالاه:

- نحن من قطعنا يديه ورجليه لأنه أبي أن ينظم إلى منظمتنا، وأنت إن لم
تنظم إلينا سيكون لك نفس المصير

دخل نوري عليهم وشدّ ماسون من رأسه وخاطبه بلهجة حادة:

- إياك أن تفكر بعدم الانضمام إلينا، لا خيار لك اختر الانضمام إلينا أو حياتك

كان ماسون رنجير مشوش من أثر ما رآه للتو خاطب أصدقاءه:

- لقد جئت لكي أزف لكم خبرا عظيما أنا جزائري لست فرنسيا، لقد سرق ميشل فرنسوا رضيعا من عائلة جزائرية وتبناه ذلك الرضيع هو أنا، أنا جزائري أبا عن جد، وأما عن جدة... ما بكم هل جنتم نحن أصدقاء تقاسمنا ملح الطعام معا فرحنا معا وبكيننا معا ما الذي أصابكم الآن، ما هذه الهيئة ما هذه اللّهي ما هذه الخناجر والسيوف والسكاكين، كيف سولت لكم أنفسكم أن تهشوا بعضكم بعضا ماذا فعلتم بسعد، أنتم شعب واحد أبناء بلد واحد، أين أحلامكم كنتم تريدون أن تصبحوا نجوم الراي

ضحك الأصدقاء وقالوا مستهزئين من ماسون رنجير:

- الراي مايوكلش الخبز حبيينا، لم نفعل شيئا ما فعلناه هو في صالحنا نحن نشق طريقا نحو كرسي السُلطة، لبسنا قمصانا وأطلقنا اللّهي، نذبح الناس من الوريد إلى الوريد، هذا كل شيء ولا نتعجب وإياك أن تُمثل لنا أنك قديس أنسيت ما فعلتموه أتم الفرنسيون فينا جرائمكم نُقشت على اللوح

خرج الأصدقاء وحذروا ماسون رنجير من الفرار، بحث في دفاتر ووثائق إريك مونتانا لم يجد وثيقة تُدله على أهله، وجد بين الوثائق استدعاءات كثيرة باسمه من طرف المحامي الذي أوكله إريك مونتانا لتسوية ميراثه،

ذهب ماسون رنجير إلى مكتب المحامي استجابة لاستدعائه المتكرر له عاتبه المحامي لعدم حضوره فقال له ماسون رنجير:

- كنت أدعوا الله أن أجدك لقد سافرتُ في السنوات الماضية

- هذه رسالة تركها إريك موتانا مع الوصية لقد نسيت أن أعطيها لك، اشتغلت على نقل ثروته إليك وأهملت هذه الرسالة

فتح ماسون الرسالة وما إن قرأها حتى ثار غضبه على المحامي:

- كيف لك أن تنسى إعطائي هذه الرسالة أيها الغبي

ردّ عليه المحامي بغضب:

- ما أهمية هذه الرسالة مقارنة بالثروة التي ورثتها منه، مجرد كلمات مخطوطة لا إلا

- لو أخذت الثروة والمال وأعطيتني الرسالة لكان أفضل لي، إنّ هذه الرسالة فيها جواب الأسئلة التي تنهش تفكيري طول حياتي

خرج ماسون رنجير من مكتب المحامي وأعاد قراءة رسالة إريك موتانا عدة مرّات قرّت عيناه وارتجفت يداه ووجف مما هو مكتوب فيها:

- ماسون رنجير هكذا سمّك ميشل فرونسوا حينما سلبك من قومك عنوة، ليواصل تعذيبك من أجل أن يُطفئ نار الحقد والانتقام من عليّ وهوارية، تبنّك وقدم لك اسمه وكنيته، وتلذذ في تعذيبك وإسالة دماغك، وحاول أن يُقنع العالم بأنك ابنه فجنّسك وبدل دينك ولغتك وسيطر عليك بما تملبه هواه

الخبیثة لیطمس هویتك، هو یعتقد بفعله هذا أنه أهان الجزائريين، لكنه كنت ألما له وجرحا یفتح كلها حطت عیناه عليك یا ابني، كنت أنت عقباه فكلها رآك أمامه أحس بالذل والخسارة أمام الجزائريين، لهذا ینادیک بالذري لم یفلح فی إضمار كرهه لكل ما هو جزائري. هو بمناداتك بالذري یعترف بأن الجزائر جزائرية و لیست مقاطعة فرنسية أو جزءا منها، ابني ماسون رنجیر أنا أعتذر منك وأطلب الغفران منك ومن كل الجزائريين لقد عمدت علی إخفاء حقیقتك وجزائرتك كي تبقى بجانبي إلى أن أموت، فأنا أشعر بالخوف الشديد والذعر والوحشة أنا أشعر بالخوف مما اقترفته فی الجزائر من جرائم وأفعال یندي لها الجبين، أرجوا أن تقبل ثروتي التي یجب أن تكون لك، أعرف أنها لن تعوض عنك وعن ماضیک وحرمانك من وطنك لكن هذا هو أقل ما یمكن أن أفعله یمکنك أن تستغلها فی البحث عن أهلك، یؤسفني أن أقول أنهم قُتلوا فی أحد أریاف بجاية فی قُراها الثورية إبان الثورة التحريرية، ابحث عن ذاتك فی قرية البیر إوهرا نیان. إریك موتانا یحدث.

تذکر ماسون رنجیر قول السید القعمور لما كانت أم كلتوم تسرد أحداث 10 ماي 1958م:

- قوساس والرضیع، الرضیع كان یبكي هنا، الرضیع ساوموه وراهنوا علیه الضباط سرقه باعوه واشتروه، الرضیع تشبثت به جدته فتمزقت بذلته نصفین نصف قابع فی الخندق والآخر رحل به

عاد ماسون إلى البیت وما إن فتح الباب انهال أصحابه نوري وناصر ومخولف علیه ضربا، وضعوا علی رقبتة السیف وهددوه:

- ألم أقل لك لا تغادر البيت أيها الرومي الأبتَر

انتاب سعد نوبة صراخ حادة لما رأى أصدقاءه يضرّبون ماسون رنجير بطريقة وحشية توجهوا إليه وأغلقوا له فمه، ووجهوا له طعنات في سائر جسده خرجوا وتركوه يسبح في دمائه حاول ماسون رنجير إنقاذه فنعه من إحضار سيارة إسعاف:

- لا داع للإسعاف يا ماسون رنجير، ابق معي لا تدعني أمت وحدي، ماسون رنجير لا تخن وطني، لا تنظم إلى المنظمات الإرهابية أنقذ ما يمكن إنقاذه من هذا الوطن الحبيب نحن في حرب أخرى ضد الإرهاب، الكثير مات فداء لتحرير هذا الوطن، أنت ابن هذا الوطن يا ماسون رنجير الدماء التي تجري في عروقك هي دماء الأحرار إياك أن تخون وطنك

- أرجوك اهدأ ولا تتعب نفسك يا سعد، لا تُجهد نفسك بالكلام، لن أخون وطني وسأعمل لحمايته ولو كلفتنني حياتي

- أتعرف ما يعز في نفسي يا ماسون؟ ما يعز في نفسي أنني سأموت على يدي أصدقائي الذين حسبتهم إخواني، إخواني الذين لم تلدهم أمي أشركتهم كل صغيرة وكبيرة من حياتي ما يعز في نفسي أن أبناء الوطن الواحد يقتلون بعضهم البعض، أرجوك ماسون أكتب ما أمليه عليك على مفكرتك لكي يبقى عبء لمن يعتبر ويتوخوا الحذر من المزيفين ناس الصدى لا معادن أحباب زنجار:

{قال يا بني لا تقصص رؤاك على إخوانك فيكيدوا لك كيدا إنَّ الشيطان للإنسان عدو مبين (05)} (سورة يوسف)

لي إخوة لم تتجهبهم أمي كانوا من صلب الحياة وترائب الأيام، لم أقصص عليهم رؤيائي فقط، بل تعديت القص إلى السرد المفصل لدنياي، فأعليتهم على العرش، فكشفت لهم عن جميع خططي، وأطلعتهم على استراتيجياتي التي أدرستها لكل أهدافي، في مسرح يخلوا من الحيطان رفعت الستائر عن كل لوحات أحلامي وأضئت لهم كل السبل التي أسير عليها لبلوغ طموحاتي، ليراها إخوتي الذين لم تتجهبهم أمي كيف لا أشاركهم كل صغيرة وكبيرة عني فهم كانوا أعز أحبائي وأصدقائي، ودي لهم أعلاهم إلى درجة الأخوة وأكثر، فشاركتهم كل آمالي، متعريا عن كل ما تجمله أوراق حياتي فجعلتها لهم مرتعا يعلمها كل رائح منهم وغاد، بدون تحفظ على الكتم ومجردا من كل أسراري.

آنست من بعيد في أرض سبخة تقطنها العقارب والثعابين والأفاعي مهبجورة مفرعة أناسا برؤوس الذئاب يحفرون بمعاولهم ومخالبهم جبا عميقا وهم يمكرون، ملطخة ثيابهم وأيديهم بدم حق سألت أعز أصحابي الذين هم بمقام الأخوة إلى أين أتم تصطحبونني؟ فقالوا، فقالوا لي:

- إنها حفلة بهيجة على شرفي

بنت أنيابهم من تبسمهم المعتاد، ثم أردفوا قائلين:

فلتستعد للمفاجأة

اطمأنتت وأمنت نفسي عليهم وتحمست فرحا للمفاجأة التي هيأها إخوتي الذين لم تلدهم أمي، لما اقتربت اتضح لي وجوه الذئاب كانوا إخوتي الذين لم تتجهبهم أمي، رموا علي قصصاني، رححت أستقصي عن الدم المتخضم

فيها والدماء المنهمرة على الأرض فكان ذلك دمي ودم الأبرياء، سقطت أرضاً من وقع الصدمة وهول الحدث، وهم حولي يتهيؤون لرمي إلى قعر الجبّ، أترجّاهم أن يرحموني وأنا في ذهول من أمرى لم أستوعب ما يحدث لي، فقهقها ضحكا لسذجتي وقالوا:

- نحن عمل غير صالح للرجاء لا داعي، لأذيتك وللکید لك رايتنا ناصبون، دائرة السوء نحن مترصدون، إن كيدنا عظيم فسألتم:

- فلتفاوض ولنحل سوء التفاهم بيننا، أتم إخوتي الذين لم تتجهم أي أعز أحبائي وأحب أصدقائي! أنزغ الشيطان بيننا؟ فقهقها ثانية وقالوا:

- بل نحن رؤوس الشياطين ذاتها...، ويحك من قصص يوسف لم نتعظ، ولمكرنا المتكرر بك كنت حلما غفورا بنا، نحن عمل غير صالح، لمحاولاتك إدراك النجوم والكواكب لم نطق ومصاهرتك الشمس لم يرق لنا فلا نحن قانعون إلا أن تكون من الصاغرين نسيا منسيا في سجن الحب.

التفت بعيون الاستغاثة إلى نفر من أصدقائي وأحبائي، كانوا بمثابة الأشقاء، علّهم يكونون لي المنجد كيف لا ونحن من عرق الأقارب وملح الطعام مشتركون، فرفعوا سيوفهم وخناجرهم المطلية بالسّم وغمسوها في أحشائي وكلي، واقترب أقربهم لي وضرب رقبتى من الخلف بسيف قطعني نحرا من

الوريد إلى الوريد، سولت لهم أنفسهم أمرا فتعاون الكل وأجمعوا على إلقائي
في غيابات الجب صارخة خبث أفعالهم:

- نحن قوم ضالين... نحن شر مكانا والله أعلم بنا والله أعلم بما نصف

هويت دويا في العمق وأنظر من التحت إلى فوهة الجبِّ الصغيرة والبعيدة
الملتفة حوله انجرُّ الشائك ، وأشلائي تنثرها غياهبه الموحشة وروحي تحتضنه
باطن سواده الحالك، ابيضت عيناى من الحزن وفؤادي كظيم، ودعائي
بلسان ذا النون أقاوم عجاف السنين وبقلب المغلوب أناجي الرب في الشداد:

- إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله

لعل الله يخلصني فأنبئهم بأمرهم هذا فإن الله لا يهدي كيد الخائنين،
فيصحح الحق ويحسن ربي مأواي ويجعلني في مقام القوي الأمين أتمكن
من الأرض وأتوباً فيها حيث أشاء وأرتفع على العرش.

انطفئ أنين سعد بخروج الروح من جسده المثقوب بطعنات السكين، عاد
مخولف وناصر ونوري إلى البيت وجدوا سعد قد فارق الحياة لم يتأثر أحد
منهم ولم يأبهوا له، لفوا عيون ماسون رنجير بقطعة قماش وكبوا يديه من
الخلف واقتادوه إلى مستودع خرب مهجور، نزعوا عنه قطعة القماش نظروا
ماسون رنجير إذا مجموعة من الرجال يبدوا عليه الريب وعدم الأمان، تقدّم
إليه زعيمهم صفعه على وجهه وقال لناصر:

- أهذا الوغد الذي سينفذ عملية الليلة

- نعم سيدي هذا هو

تكلّم ماسون رنجير مستفسرا:

- أي عملية؟ وأين أنا؟ من يشرح لي ما كل هذا

صفحه مخلوف قائلا:

- هنا لا يمكنك أن تسأل، يجب أن تُحسن الولاء للزعيم ياسين الواط

فكّوا أيديه من القيد وقدموا له سيفاً حادا وعنوانا وأسماء كثيرة وطلبوا منه أن يعود برؤوسهم وإلا سوف يقطعون رأسه، حمل ماسون رنجير السيف وقائمة الأسماء والعنوان سلّتها للسلطات واعترف من كان وراء تخطيط هذه العملية بمن فيهم أصدقاءه.

رحلة البحث عن الذات

شدّ ماسون رنجير طريقه نحو قرية البير إوهرايان بجاية، وهو يحسب الدقائق والساعات ليصل إلى القرية ليقابل السيد القعمور محدثا نفسه:

- السيد القعمور هو الذي سيدلني على حقيقتي، كان علي أن أسأله عن قصة الرضيع وقوساس، كان علي أن أصغي إليه

وصل إلى القرية سمع المؤذن يعني:

- يا أهل القرية أعلمكم أن السيد القعمور في ذمة الله، الله يرحمه ويرحم أموات المؤمنين، الدفن سيكون اليوم بعد صلاة العصر

حظر ماسون رنجير الجنازة وقف بين الصفوف مشيعا جنازة السيد القعمور، وصل إلى المقبرة واصطفى بين المصلين لتأدية صلاة الجنازة يبدوا عليه الدهشة والحسرة والأسى وقال في نفسه:

- أيعقل أن يكون حظي بأثنا وتعسا هكذا كيف يموت السيد القعمور حاملا معه سر كينونتي، كيف يموت يوم وصولي إلى هنا

لمح سبي والمشرقي ماسون رنجير بين صفوف الرجال، همس في أذن أخيه الحسن بعودة ماسون رنجير إلى القرية بعد طرده، خلت المقبرة من الناس بعد أن دفنوا السيد القعمور. لبث ماسون رنجير في المقبرة وحيدا يسير بين القبور يخاطبهم:

- يا أهل القبور أنا دزيري، أنا الرضيع المسلوب عنوة من الضابط ميشل فرونسوا، هل منكم من يتذكرني، أنا الجزائري الذي سرقتة فرنسا وعملت على فرنسته وتعذيبه انتقاما، يا أهل القبور يا من عاصروا الثورة يا من شهدوا على حادثة سلب الرضيع من حجر أمه، يا أهل القبور لم أنتم ساكتون؟ هل من محيب، علي يا علي أين أنت يا علي هل تسمعي يا علي

توجه ميشل نحو القس كريستيان، دق الباب عليه لكن أبي أن يفتح له الباب أطفأ كريستيان القنديل وجلس على سريره ألصق رجله في بعضهما البعض وأمسك يديه ضاغطا عليهما من شدة التوتر، يدعوا ربه أن ينصرف ماسون رنجير عنه

انصرف ماسون رنجير إلى منبع ثالا تايما اغترف من مائها العذب حتى ارتوى غسل وجهه وأطرافه ومد رأسه نحو المنبع يسيل على رأسه الماء لبث دقائق والماء يسيل على رأسه رفع رأسه ومسح يديه رأسه وأزال الماء عن خصلات شعره بأنامله، لاحت الشمس في مغربها وتلونت الدنيا بسواد الليل أشعل ماسون رنجير مصباحه اليدوي وصعد أدراجه نحو المسجد العتيق في منتصف الطريق قاطعه رجل ملثم وكزه من الخلف وأسقطه أرضا فوق الحصى ونباتات الشوك سقط المصباح من يده، قفز الرجل الملثم على بطن ماسون رنجير وشرع يصفعه على وجهه حتى تورمت عيناه وأصيب

أنفه بالرعاف وراح يضربه بكل قوّة مدّ ماسون يده ونزع اللثام عن وجهه صُدِم ماسون رنجير من وجه الرجل الملمّم الذي هاجمه كان يحمل نفس وجهه، كأنما ماسون ورنجير كان ينظر في المرأة، فوجه الرجل الملمّم طبق الشبه بوجه ماسون رنجير، طعن الرجل الملمّم ماسون رنجير في بطنه ولاذ بالفرار، استجمع قواه وأكمل طريقه بجسد متقوس من الآلام، دقّ بيت هديّة قالت مستغربة لعمتها:

- من يدق الباب في هذا الوقت المتأخر؟

فتحت هدية الباب أغمى عليها لرأيها ماسون رنجير وحالته المدممة

أدخلت جقجيقة ماسون رنجير إلى المنزل ألقى بنفسه على أرضية المنزل وهو يتأوه من شدة أنين الألم، مزقت جقجيقة قيصه ليتسنى لها أن تُسعفه وأن تُخرج الخنجر المغروس في بطنه، شلّت يديها عندما رأت الشامة التي على سرة ماسون رنجير كانت شامة المقص عندما قُص الحبل السري لماسون رنجير، طلبت منه أن يتحلّى بالصبر، ريثما تذهب وتأتي بخداوش امرأة مسنة كانت متخصصة في إسعاف المجاهدين والمصابين إبان الثورة التحريرية، وقابلة النساء الحوامل، عادت جقجيقة ومعها خداوش أخرجت الخنجر من بطن ماسون وعالجت إصاباته وهي تمزح مع ماسون رنجير بكلام مضحك تُخفف عنه أثر الألم، وتسرد له تارة أخرى امتهانها الطب بأدوات بسيطة إبان الثورة التحريرية، ضمّدت جراحه وطلبت منه أن يرتاح، انفردت جقجيقة بخداوش تستجوبها:

- ليست المرة الأولى التي تعالجن إصابة هذا السيد

- صحيح هذه ثاني مرّة

- الشّامة وندبة المقص

- نعم هذا ابن اللبوء هوارية أتذكر كالليوم حينما أنجبت توأمها، عادت هوارية من الجبل وآلام المخاض تعصر رحمها، أرسلوا إليّ لأكون قابلتها وضعت رضيعها الأول الحسنّ سمّته علي والدها، وضعت ابنها الثاني احتاروا أيّ اسم سيسمّونه حملة أخوه الكبير سي المشري ولم أقص بعد حبله السري، قبله وظمّه وقال لأمه :

- سأسمّيه الحسينّ على آخر دايات الجزائر الداوي حسينّ، بدأت مروحيات عساكر فرنسا بالقصف أسرع في قصّ جبل السري عن الحسينّ لتتمكن من الذهاب إلى قرية أخرى تجنبا للقصف، فأخطأت وقصت جلد بطنه الذي تحول إلى ندبة أبدية تشهد عليه اليوم، تراجعت المروحيات وحلقت بعيدا أحسنا ببعض الأمن أرضعت هوارية ابنها التوأم اللذان يحملان نفس الوجه، يحملان وجه أبيهما كأنما هو الذي عاد إلى الوجود، كأنما هو الذي خلق من جديد، وبعدها حملت بندقيتها واتجهت نحو الجبل لتقاتل العدو وتجاهد بين صفوف المجاهدين، كانت تقول:

- أنا أجاهد لكي يحيا أولادي بحرية في أرضهم الطيبة

فُتلت المسكينة ولم تفرح بالاستقلال، لكنها كانت مؤمنة بيوم يجيء بريح الحرية

جلست جفجيفة شاردة الذهن تتحسس بيدها أحجار السبحة المائة الخضراء،
قدّمت السبحة إلى زوجها سي الجبلي أمسكها سائلا:

- من أين لك بهذه السبحة الفريدة من نوعها

- اسأل ماسون رنجير كانت بحوزته يوم تمّ طعنه بالخنجر

سأل سي الجبلي ماسون رنجير من أين له تلك السبحة الخضراء فأجابه:

- إنها سبحة كانت في يد الرجل المثلّم الذي طعني، سقطت منه حين لاذ
بالفرار فحملتها معي

احتفظ سي الجبلي بالسبحة، وكلها أدخل يده في جيبه يتحسسها وتتسابق إليه
الذكريات الغابرة التي يشاركها مع الجماعة، سافر إلى الجزائر العاصمة قاصدا
بيت سي المشري وأخيه الحسن، دقّ الجرس فتح الحسن الباب وتبعه سي
المشري، أخرج سي الجبلي السبحة ووجهها في وجهه قاتلا لقد أضعت هذه
السبحة في القرية، مدّ الحسن يده ليُمسكها أبعدها سي الجبلي عنه قاتلا:

- هذه سبحة ليست كأبي سبحة، إنها سبحة مباركة أتت من بيت الله
لحرام بمكة المكرمة في موسم سُمي بحجّ الجزائر عام 1957م، لنصرة الثورة،
أدخلت هذه السبحة الخضراء ذات المائة حجر والكثير منها عبر تونس برفقة
مئات من البنادق والأسلحة إلى الأراضي الجزائرية الطيبة وصلت إلى يد
والدك كان يجاهد ويقاوم العدو المستعمر وهي بيده يسبح الله بكرة وعشيا
لكي تستقل الجزائر، لكن كيف ستكون حالته حينما يعرف أن سبحته

هذه جعلها ابنه في يده حينما أراد أن يقتل شقيقه التوأم الذي سرقتة فرنسا
والله أعلم ما فعلت به من شر

طلب سي المشري من سي الجبلي أن يدخل إلى المنزل ليناقشوه في الأمر،
رفض سي الجبلي وقال لهما:

- يمكنكم أن تناقشا الأمر مع الذي في الصورة خلفكم، إنها صورة والدكما
صحيح، ما أطلبه منكما أن تدعا ماسون رنجير وشأنه لأنني أتيت بالمأذون
وأعدت تزويج هدية به، هدية بمثابة ابنتي لا أريد أن تؤذوها، لا تؤذوها في
ماسون رنجير

شهد شاهد من أهلها

توجه ماسون إلى القس كريستيان كان باب كوخه مفتوحا لمحـه يؤدي صلاته موجها وجهه نحو تمثال العذراء مريم، نظر القس كريستيان خلفه ورأى ماسون رنجير فقال:

- الحق الحق أقوله كل من ظلمك سيزول وأنت تحيا، الحق الحق أقوله كل الحقيقة ستكشف وكل الريب سيفنى والكذب كالثوب يلى ستطويه في الصحف فيخفى، الحق الحق أقوله لن يجد المذنبون إلا صريف الأسنان سأله ماسون رنجير :

- من يكون ميشل فرونسوا وأخوه ليونير وعساكرهما؟ من يكون إريك موتانا؟

- أولائك هم حطب جهنم، أولائك هم ناس مرءون منافقون شر الدواب باعوا أنفسهم للشيطان، بل إنهم الشياطين، اعتنقوا شريعة انخطيئة وعبودية الفساد في الأرض، يشاركون كبار الشياطين في نشر شرهم، قلوبهم المريضة والحاقدة ونفوسهم الخسيسة تن من أوجاع الحقد والحسد وراثين الغيرة ونواياهم انخطيئة، سلّموا أنفسهم للاستعمال الدنيء لا للاستعمال

الشريف، عقولهم خاوية وعيونهم لا تبصر إلا بالغيرة، وآذان لا تسمع إلا للرزيلة وأرواح تئن من الحسد والظلم، أصلهم من الخميرة العفنة بل العجين كله قدر، فرعهم من أصل الجحيم تتغذى عليهم رؤوس الشياطين، عملهم إذهاب ما نالوا البشر من النعمة الإلهية، لن يهدأ لهم الحال حتى يلقوا بالناس بئر الهاوية، أصابعهم مسمومة كأذناب العقارب، فالخذر الخذر ابني من الذين يتملقون في الكلام ويزينون اللفظ، فأمثالهم لا يخدمون الإنسانية، فقد دعوا للخطيئة تسود أجسادهم الفانية وقلوبهم تقودها أرواحهم الشريرة فانقادوا لشهواتهم وجعلوا من أعضائهم أسلحة للشر في سبيل الخطيئة والدمار، هم وأمثالهم خاضعون لسلطان الخطيئة مهما سمعوا لا يفهمون، ومهما نظروا لا يبصرون تحجرت قلوبهم فسدوا آذانهم وأغمضوا عيونهم عن الحق، هم صخرة السقوط حاولوا إسقاط الدول ففشلوا

ابن عَلِي

سأل ماسون رنجير القس كريستيان عن نفسه:

- من يكون ماسون رنجير؟ من يكون عَلِي

جلس كريستيان على عتبة كوخه وشرع يسرد لماسون رنجير ما رسخ في ذاكرته:

- كنت في صفوف القوات الحربية الفرنسية برتبة عسكري، لكن ليس كعسكري عادي، إنما كنت عسكريا حاد الذكاء وكنت مقربا جدا للضابط ميشل فرونسوا، كنت أتميز بالشدة والقسوة وعدم الرحمة كنت أسير على قدم وساق مع الآباء البيض والقساوسة لنشر التنصير في أرجاء هذا البلد خاصة في القبائل الكبرى، لأنني كنت متأثرا جدا بهم وكنت أسعى لكي تستعيد الكنيسة مكانتها بعد تهميشها في مجتمعاتنا، كنت على رأس العساكر في عملياتهم التفتيشية والتطهيرية للمجاهدين الجزائريين الذين كنا نعتهم بالفلاقة وبالإرهابيين والاقطاعيين، في إحدى عملياتي التفتيشية لهذه القرية لمحت رجلا ملثما على فرس تبعته وأطلقت عليه النار لكنه نجح في النجاة

مني، لبثت في هذه القرية مع مجموعة من العساكر في اليوم التالي لمحت نفس الرجل الملمم قصد منبع ثالا نتايما نزع لثامه وبدأ بشرب الماء، وقفت جامدا في مكاني أتأمل ذلك الجمال الساحر، لم يكن رجلا كانت امرأة طويلة بشعر أسود وعيون خضراوان نخضرة الحشيش، حملت نفسي إليها وأردت الاختلاء بها واستحلالها، لكنها صدّتي وخذشت وجهي، وبزقت عليّ ومنعت نفسها عليّ، ركبت فرسها وتسلفت الجبل، عدت إلى الثكنة في مدينة بجاية ولم أستطع مسح صورة تلك المرأة المثلثة عن عقلي، عمدت إلى العودة إلى تلك القرية لأقابل تلك المرأة المثلثة، عادت إلى المنبع فاولت الانقباض عليها واستحلالها لكنها صدّتي وأوسعتني ضربا، كنت أستطيع أن أنهي حياتها بطلقة رصاص واحدة لكن أحببت أن أنسلي فكلمها صدّتي وقاومتني كلما أشعلت في قلبي نار التحدي وحب تملكها، تحولت رغبتني في التسلية إلى حب وعشق لها فرحّت أرتاد القرية لرؤيتها وأحيانا كثيرة أنسلل مُقنعا بلباس أهل القرية من أجل أن أراها، ذات يوم رأيتها مع عليّ ذلك المجاهد المغوار الذي يهابه الموت ذلك الأسد الذي يزتر، عليّ ذلك المجاهد الذي حمل فرنسا خسائر مادية وبشرية، كان الشبح الأسود الذي تخاف منه فرنسا، اكتشفتُ بعدها أن هوارية هي زوجة عليّ جنّ جنوني وأحرقّني نار الغيرة، حاولت قتل عليّ بأي طريقة لم أفلح، اعترفت لهوارية بحبي لها وطلبت منها أن تتزوجني ووعدها أن أجعل الشمس على يمينها والقمر على شمالها وسأفرش لها الذهب والفضة وأزينها بأساور ومجوهرات من ياقوت ومرجان وأرحل بها إلى باريس وسأسافر بها إلى كل بقاع الدنيا، قابلت عرضي بالضحك والاستهزاء وقالت لي:

- في كل إنش من علي يساوي الدنيا وما فيها، حيي لعلي أكبر منك وأكبر من الذهب والفضة ومن الياقوت والمرجان، وحيي لوطني وفدائي له أكبر من باريس ومن كل بقاع الدنيا ولا ضوء الشمس ولا نور القمر ينفعاني بعيدا عن وطني، أنصحك أن ترحل وتعود بكلا بك إلى بلدك وترتكنا نعيش بسلام

لم أهضم رفضها لي، كيف يمكنها أن ترفضني فكنت شابا وسيما جدا شعري أصفر وعيوني يناهزان لون السماء في الزرقة وجسمي رياضي لي المال والجاه، رفعت يدي نحوها وكدت أن أبرحها ضربا، لكن لأن قلبي... لأن قلبي اتجاهها، كانت أول مرة أحس بالرحمة أول مرة يلين قلبي لشخص ما، جنحت عن القتال وأصبحت هوارية شغلي الشاغل، حرّضت الضابط ميشل فرونسوا على قتل علي الذي أذل ميشل فرونسوا وكسر جبروته واختبر رجولته وفخولته فاستغفزه بأن يقاتله دون سلاح، فغلبه علي وأوسع ضربا وتسبب بكسور بليغة لميشل فرونسوا بعدها عاد إلى الثكنة مكسور الخاطر أحس بالذل والإهانة أمام عساكره والقادة الفرنسيين، خطّط ميشل فرونسوا لإذلال علي فذهب إلى القرية من جديد وأحاط بعساكره من كل الجهات جمع الناس وأهل القرية إلى ساحة المسجد العتيق خرج علي مع الناس طلب منه ميشل فرونسوا أن يقترب إلى وسط الساحة لينازعه أمام الناس تقدم علي إلى وسط الساحة وقال له:

- يبدوا أنك ستكسر عظامك من جديد

ضحك عساكر فرنسا من استهزاء علي بميشل، ونادى بعساكره وقال لهم:

- الآن قيده

قيّد عساكر فرنسا أيدي وأرجل عليّ، وقال له ميشل فرونسوا:

- إن هدأت وأمضيت المصالحة والإستسلام لفرنسا، وسلمت كل عتادك السلاحى وأرغمت المجاهدين على تسليم أنفسهم سأصفح عنك وستنجوا بحياتك هيا قرر الآن

اقتاد عسكريان زوجته هوارية تحمل ابنا الرضيع، إلى ساحة المسجد العتيق
فصرخت قائلة لزوجها عليّ:

- عليّ مُت واقف يا عليّ، عليّ مُت واقف يا عليّ

فصرخ كل من في الساحة من أهالي القرية بصوت واحد:

- عليّ مُت واقف يا عليّ، عليّ مُت واقف يا عليّ

ضحك عليّ من قول ميشل فرونسوا وقال له:

- من العار عليك أن تلتفظ بهذا العرض يا وجه العار، حتى ولو نمت نوما طويلا لن يحصل هذا الأمر ولو في أحلامك أيها الضابط الجبان

أراد ميشل فرونسوا أن ينتقم من عليّ فاقرب من هوارية زوجة عليّ، وأراد اغتصابها أمامه وأمام الناس صدته هوارية وفتأت عينه، وجه إليها بندقيته، فوضعت أنا البندقية على رأس ميشل فرونسوا أحذره من قتل هوارية نظر إليّ وقال لي:

- أتقتلني يا كريستيان من أجل فتاة قروية جزائرية من مناطق الظل،
اعتبرتكَ ابني آساومني بامرأة فلاقة تقاتل فرنسا

ثم طلب من العساكر أن يقيدوني، فقيدوني وأسرعت هوارية إلى علي
وتقول:

- اقتلوني أنا ولا تقتلوا علي

طلب منها علي أن تبتعد قاتلا:

- حيي لك كبير، تزوجنا على سفح الجبل والرصاص شاهد بيننا وعدنا
بعضنا البعض أن نجاهد حتى نُحرر الجزائر لنعيش أحرارا مع أولادنا،
ووعدنا بعضنا البعض أن لا نفرق حتى يُفرقنا الموت، وإن كان من يموت
الآن فيجب أن أموت أنا، ليس أنت، واعلمي إن مت فإني أموت في
سبيل الجزائر

كنت أشاهد الحب الكبير المتبادل بين هوارية وعلي في آخر أنفاسهما،
انتابتي الغيرة الشديدة وفي ذات الوقت أيقنت أن لا أمل للفوز بهوارية،
أطلق ميشل فرونسوا الرصاص على هوارية سقطت جثة هامدة وصاحت
النسوة:

- تحيا الجزائر تحيا الجزائر

وشرعت أصبح أنا:

لا، لا، لا تقتلوا هوارية

لكن صرخة علي عند مقتل زوجته هوارية كانت أشد ألماً، أمر ميشل فرونسوا عساكره بأن يفرغوا بنادقهم في جسد علي فأطلقوا الرصاص الحي حتى أصبح لا يرى جسده من الدماء وثقوب الرصاص، حمل ميشل فرونسوا رضيع هوارية ضحكاً بشراً وخاطب جثة علي:

- علي كنت شبعا لي، والآن أعدك أنني سأسلب ولدك وسأكون شبعا له وسأفرنسه وأستعبده وأسيل دمك فيه كلها رغبت، وسأرى عذابك فيه، هل أحتفظ به، أو سأبيع هذا الرضيع يا ترى كم سأجني منه أيها الضباط إريك، أيها العساكر أعلنوا المزداد الليلة

غادر ميشل فرونسوا القرية تاركا وراءه وزرا وسالبا رضيعا بريئا لينتقم ممن أذله، دفن أهل القرية والدك في المقبرة، وقتت أنا بإحضار إمام مسجد وقام بدفن والدتك أمام كوخني هذا، واعتزلت الحرب واخترت حياة النسك وصنعت من نفسي قسا أدعوا الرب أن يغفر لي خطاياي، وهيات قبرا لي أمام قبر هوارية لأدفن فيه حينما أموت. يا للقدر لم أكن أتخيل يوما أنني سأقضي بقية حياتي في هذه القرية الهادئة كنت أقول لزملائي العساكر:

- كان علي شكسبير أن يرى هذه القرية ليكتب الجزء الثاني لروايته البؤساء هم أكثر بؤسا من بؤساء شكسبير هاهاها فاقة مسغبة جوع، مناطق ظل، بعد كبير بنا وبين المدن، حياة شبيهة بالحياة البدائية، كنت أتساءل كيف استطعنا أن نصل إلى هنا لبعدها الشديد عن العاصمة وباقي المدن الكبيرة.

أردف كريستيان يحدث ماسون رنجير عن والديه:

- كان لعلي وهوارية ثلاث أولاد ابن كبير وآخران توأمان، سلب ميشل فرونسوا أحد التوأمين الذي هو أنت يا ماسون رنجير، وتكفّلت والدة هوارية بتربية أخويك. القدر أعادك اليوم إلى مسقط رأسك، ابني أنت ابن هوارية وعلي المسلوب، أنت هو الجزائري الحر الذي طمست هويته فرنسا لكن مهما طال الليل سينجلي ومهما خُبئت الحقيقة سنكشف ومهما انتشر الظلم سيحل العدل والمياه ستعود إلى مجاريها والدماء إلى عروقها

زار ماسون رنجير قبر أمه حفظه وبكى حتى ابتل تراب قبرها، فقال لكريستيان:

- إن هذا القبر الذي هيّأته لنفسك يا كريستيان هو أحق لأبي منك، أليس من حق المحبوبين أن يجتمعا

طلب منه أن يريه قبر والده، نقل رفاة والده إلى قبر والدته وجمعهما في قبر واحد بعد أن أكدت نتائج الحمض النووي علي وهوارية هما والداه البيولوجيين الحقيقيين.

أطفال الجزائر يجنون جسدا بشريا من أنفسهم يقاومون الإرهاب والرعداء

في صبيحة يوم ربيعي ها هي سيارة يججو 404 تسير نحو قرية البير إوهرايان بسرعة منخفضة حذرا من المسالك الوعرة، علّق صاحبها في أعلى السيارة أفراد مختلفة من الخفّ البلاستيكيّ القديمة والمستعملة، وينادي بأعلى صوته ومطلقا العنان لصافرة سيّارته: «بوقروازن⁸ ... بوقروازن... الخردة⁹ ... الخردة...» كان يتجول بين القرى والمداشر بحثا عن مخلفات بلاستيكيّة لإعادة تدويرها يشتريها بأثمان بخسة من الأطفال اللذين يجمعونها، وأتراهم من الأطفال يجولون الأودية بحثا عن مخلفات وأدوات بلاستيكيّة يبعونها له مقابل دراهم معدودة أو مقابل علب شكلاطة، أو مقابل ألعاب، أو أساور وما تتزيّن به البنات، خرجت هدية تنادي أولادها الثلاثة وتحثهم على أن يلزموا البيت خوفا منها عليهم من السرقة وخوفا من الإرهاب.

⁸ إقروازن: كلمة من اللهجة الأمازيغية معناها الأغراض المهملة التي لا حاجة لنا

فيها، بوقروازن: هو صاحب هذه الأغراض

⁹ معناها: المهملات من الأغراض وهي كلمة من اللهجة العامية الجزائرية

في صبيحة يوم 22 سبتمبر 1997م أفاقت الجزائر على خبر جريمة بشعة أقامتها المنظمات الإرهابية فأزحقت أرواح أناس أبرياء في بن طلحة، انتشر الرعب في سائر الجزائريين حاولت هدية منع أولادها من مزاوله الدراسة إلا أنهم رفضوا طلبها وقال ابنها الأكبر:

- أنا عليّ أحمل اسم جدي الشهيد عليّ، وأخي سماه أبي عبد القادر على اسم الأمير عبد القادر الجزائري ورثنا الجرأة والشجاعة والمقاومة من آباءنا وأجدادنا لا نخاف من الإرهاب ومن غيره إن لم نواجه هذا المستعمر الجديد فأنى نعلوا بالوطن؟

استغاثت هدية بزوجها ماسون رنجير كي يمنعهم من الذهاب للمدرسة مخافة أن يُقتلا غدرا بأيدي الإرهاب فقال لها:

- لن أمنعهما، كل أطفال القرية ذاهبون إلى المدرسة هم أمل الجزائر وأعمدها القادمة لن أحرمهم العلم ولن يفلح الإرهاب في صدّهم

أمسكت هدية يد ابنتها مزغنة ورفضت جملة وتفصيلا أن يذهبوا بها إلى المدرسة، أفلتت مزغنة يدها من يد أمها وانظمت إلى أخويها قائلة لأمها:

- أنا مزغنة اسم على مسمى أنا كالجزائر أحيا وكالجزائر لا أخشى المحن سأذهب إلى مدرستي وأتعلم لأبني وطني

أمسك عليّ وعبد القادر يد أختهما مزغنة وأمسك تلاميذ القرية أيدي بعضهم البعض حملوا محافظهم على ظهورهم وبنو جسرا بشريا متجهين مشيا على الأقدام نحو مدرسة بوراشد التي تبعد عن القرية أميالا، مرّت سنوات

التسعينات ثقيلة وأثيمة على ماسون رنجير وعلى كل الجزائريين تركت تشوها مليئا بالندوب في ذاكرتهم وتتشعر منها أبدانهم كلها سمعوا بأحداث العشرية السوداء.

حلت فسحة الأمل في مطلع الأعوام الجديدة، ذهب ماسون رنجير إلى كاليدونيا زائرا لأولاده استقبلاه دانيال وكاترين بأحضان السعادة والفرح الشديدين به، لبث ماسون رنجير أكثر من عام يحاول الاقتراب من ابنته أنجيلا صدته وقابلته بالطرد:

- لقد تركتني مرة أخرى، تركتني ولم أشبع منك ولم أشبع من حنان الأبوة، لقد قضيت طفولتي كلها وأنا لوحدي بعيدا عن أبي، لا أريدك الآن

حزن ماسون رنجير وحاول أن يشرح لها وضعه وحاول أن يوضح لها سبب سفره إلى الجزائر، لكن أنجيلا لم تعط له أية فرصة لسماعه فطرده من غرفتها فوضع لها مفكراته على مكتبها قائلا:

- أنجيلا أنت قطعة مني، أتفهم غضبك عليّ ذهابي إلى الجزائر كان قدرا محتوما لأبحث عن نفسي وأبحث عن أصلي وأصل الدماء التي تسير في عروقي وعروقك، أتمنى أن تقرئي هذه المذكرات التي تخصني ربما ستفهميني وربما ستسامحيني يوما ما

- لست غاضبة، أنا مجروحة منك

أسرع دانيال إلى والده يُخطره عن وضع الجزائر، أسرع ماسون رانجير أشعل التلفاز على أخبار الجزائر صُدم بمقتل الشاب ماسينيسا وحزن على الأوضاع

التي سُميت بالربيع الأمازيغي في عام 2001 الذي راح ضحيتها أبناء الجزائر، وضع دانيال يده على كتف والده يواسيه في مصابه هذا:

- أنت حزين على أبناء الوطن الواحد، عليك أن تعود إلى الجزائر يا أبي، الجزائر تحتاجك في هذه الأوقات العصيبة أنقذ ما يمكن إنقاذه، أبي قل لأبناء أجدادي أن يتحدوا قل لأبناء وطني أن يكونوا بقلب رجل واحد إنهم الجسر الذي سيعلي بالجزائر عاليًا.

عاد ماسون رنجير إلى الجزائر ليطمئن على أوضاع بلده وبعد أن هدأت الأوضاع راح يسافر بين كاليدونيا والجزائر، في يوم الحادي عشر من نوفمبر 2004م ألقى أبناء ماسون رنجير عليّ وعبد القادر مباراة كرة القدم المقامة بين البلديات حزنا على وفاة ياسر عرفات عمّ الحزن على أبناء الجزائر وراح الجزائريون يتضامنون مع فلسطين ويرددون "الله أكبر فلسطين الشهداء" "الله أكبر ياسر عرفات" ومتضامنين مع القضية الفلسطينية وآخرون يُنشدون أنشودتهم الشهيرة:

- شُدّوا بعضكم يا أهل فلسطين، شُدّوا بعضكم، ما ودّعتم رحلت فلسطين ما ودّعتم، على ورق صيني نكتب بالخبر على ورق صيني، يا فلسطيني على لي جارالك يا فلسطيني.

بعد أكثر من عقد من الزمن نجح عليّ ابن ماسون رنجير في نيل شهادة البكالوريا وارتاد الجامعة، نهشت رأسه فكرة الهجرة شرعية كانت أو غير شرعية، لكن استطاع أن يكبح ويجهض تلك الأفكار من رأسه وتفكيره

فكان كلما فكر بالهجرة أحظر تاريخ أجداده بين عينيه وقصة والده ماسون رنجير فظل صامدا واختار أن لا يهجر بلاده مهما حصل وقرر أن يكون عمودا من أعمدها بالعمل والاشتغال على رفع راية بلاده عاليا، حزن على هجرة جُل أصدقائه، استطاع أن يقنع بقية أصدقائه بعدم الهجرة، وأنقذهم في آخر لحظة قبل إقلاعهم بالزورق المطاطي أراهم رسالة تلقاها من أصدقائه الذين هاجروا قبل شهر كُتب فيها:

- رمى نبيل نفسه على شاطئ البحر ليقضي آخر ليلة له في وطنه، آملا أن يجد قبسا من نور خلف البحر، بدأ يصرخ بأعلى صوته الواضح عليه المم والكدر والحزن الذي يخر روحه: «يا بلادي راني محفور... يا بلادي راني محفور... يا بلادي راني محفور...» فسمع صدى قويا لعباراته من أماكن مختلفة لأصوات الشباب أمثاله اللذين تتشابه ظروفهم، علت أصواتهم كترتيلات امتزجت بروحانية الليل وارتفعت رويدا رويدا لتعانق أبواب السماء، امتطى نبيل زورق الحظ نحو الضفة الأخرى، شاءت حماية الله أن يصل الزورق إلى إيطاليا سالما بجميع من فيه، الكل ساجد شكرا لله، الكل يوثق اللحظة بصور بهواتفهم ليزفوا الخبر لذويهم، لكن للأسف لم تكن هذه الأراضي الجديدة مباركة على نبيل، فقد داهم الطاعون البلد وأغلقت البلاد تماما، وأعلن حالة الطوارئ وسن الحجر الكلي، فاضطر نبيل للإقامة في معمل قديم مهجور، أخرجه الجوع ليلا ينازع الكلاب الضالة بحثا عن الأكل بين القمامات، هجمت عليه الكلاب ومزقته كما تمزق السباع الجائعة فريستها، حضرت الحماية المدنية لتجمع بقايا أشلائه في صندوق الفناء، واضعة عليه القطعة النقدية واحد يورو التي كان يحتفظ بها.

صدم علي وأصدقائه من خبر وفاة صديقهم نبيل، الذي كان الأول في دفعته في الجامعة، اضطرتة البطالة والعوز إلى اتخاذ البحر طريقا نحو بلاد الغرب آملا أن يحظى بمستقبل أفضل، خرج أصدقاء علي من الزورق ورفضوا الهجرة وراحوا يفكر بحلول تجعل شباب الوطن وشعبه يحظون بواقع أفضل يليق بمقامهم دون اللجوء لبلاد غريبة عنهم، آمنين بأن الجزائر هم فقط أبناءها، وهم من سينبئها وإن هاجروا فمن يتولى في إنقاذ الجزائر وحمايتها، في شهر فيفري من عام 2019م اندلعت احتجاجات شعبية معروفة بالحراك الشعبي في كل مدن الجزائر، فراح الشعب يبني جسرا بشريا نحو العاصمة ليطلب بتغييرات جذرية من أجل بناء جزائر جديدة. وفي صيف عام 2021م تجند ماسون رنجير وابنه بمعية الشعب الجزائري عبر قوافل تضامنية لإنقاذ الحرائق التي أمت بالجزائر.

جمال بن سماعيل هو البطل

لّف جمال بن سماعيل رأسه بوشاح أصفر على رأسه تيمنا بالصحراوي العريق، حضن جمال قيثارته وأخذ يداعبها بأنامله السحرية، مغرّدا بصوته العذب يغني لمحبوبته الجزائر بإحساسه المرهف، وشرارة الحب والغرام لبلده بادية خلف النظارات من عيونه، مشاركا الغناء مع صديقه الذي تجمل بتسريحته الإفريقية

بلادي الجزائر مالقري قاع اللي صاير

بلادي لجزائر، ويا بلادي أوو أوو

بلادي لجزائر مالقري قاع اللي صاير

بلادي لجزائر ويا بلادي أوو أوو

نخلم ييجي نهار نشوفك نت فسمنا لعالي

تكومباطي لماريكان

مام تولي نجمة ظوي،

أنا نبغيك، أنا نعشق فيك

والله بدمي راني نفديك

أنا نعشق فيك أنا نبغيك

وبروحي نموت عليك

بلادي الجزائر مالقري قاع لصاير

بلادي لجزاير ويا بلادي أوو أوو

بلادي لجزاير مالقري قاع لي صاير ويا بلادي أوو أوو

هكذا غنى جمال بن سماعيل لبلاده الجزائر، وذكرها بحبه لها وأنه مُتميم وعاشق ولهان لها، وحلف بالله أنه مستعد للموت فداء لها ويهدبها دمه وروحه، وتمنى جمال بن سماعيل أن يرى بلاده الجزائر نجمة تضيء في علياء السماء وأن تكون كبيرة الأوطان وسيدتها وتضاهي الولايات المتحدة الأمريكية في قوتها وشأنها في العالم.

لم يكتف جمال بالغناء لوطنه فقط، بل سعى جاهداً بفكره ومظاهرته السلمية وإدائه للنظام الفاسد، فكان عضواً في قيامة الحراك من أجل الربيع الجزائري المسالم، قتره خارجاً في مظاهرات سلمية من أجل بناء جزائر جديدة ذات ديمقراطية شعبية، ويندد وضع الشباب الميئوس من أوضاعه المزرية التي يتخبط منها شباننا التي لا تخفى عن العيان، آمن جمال بالحراك وآمن بالمستقبل الجميل لبلده وتنبأ بنور ساطع يشع من آخر النفق بعد مسيرة

عسيرة عاشها الجزائريون، فتجده يطير في المظاهرات كطير السنونو فرحا زاهيا ينتقل بين الأشجار ويهز يديه مستبشرا بغد أفضل لبلده وشعبه، كأنهما جناحين لملك نظيف بريء يهزهما استعدادا للتخليق إلى العلى حيث الآمال، تراه حاملا في يديه علم حبيبته الجزائر المرصعة بألوانها الثلاثة الأبيض والأخضر يتوسطها النجمة والهلال بالأحمر، ترفرف على رأسه، يهبل وينشد لها كالعندليب بلا انقطاع ولا كلل منه ولا ملل صباحا وفي الليل الحالك راقصا على أنغام الوطنية بين الحشود والسيارات وعلى ضوء القمر الأبيض. فرح بقدم التغيير إلى جزائر جديدة وقوية، كطفل صغير بريء فرح بقدم أمه، حاملا في قلبه قضية وطنه

رصدته كاميرات الجريدة الرسمية الجزائرية " الشروق " مجندا في الصفوف الأولى للحراك، نصبته غلافا في أولى صفحاتها يوم 21 من أفريل 2019م بعد الجمعة التاسعة للحراك المبارك، لابسا الراية الوطنية المجيدة، رابطا معها وشاح فلسطين غير متناسيا القضية الفلسطينية التي تبنتها الجزائر منذ عقود، باد على وجهه الإصرار على التغيير، واثقا من نفسه ومن شعبه ومن رجال ونساء الجزائر على بعث روح جديدة للوطن،

وحبه للشعوب تخطى الحدود الجغرافية لوطنه، وتعاطفه مع أحداث العالم والقضايا الوطنية الأجنبية، فقد نسج كلماته معبرا عن حزنه وتعاطفه مع فلسطين وشعبها ككل الجزائريين لما تقاسيه من القصف الصهيوني فغنى لها بصوته للقضايا العادلة وسخر قلبه سلاحا لها وعن ذلك غرّد فقال:

- اعذريني يا غرّة، اعذريني يا غرّة، قد كتبت عليك مرّة وألف مرّة، رسمتك عندي في أحلى صورة، لم تكن الخطوة الأولى مني، بل أنت طريقي

من البداية، ولن تكون التفاتى الأخيرة لك، إنى معك حتى النهاية، فهذا قلبي لك أهديه، كسلاح بك أغذيه، أنت الحياة أنت القضية قصبتك صارت منسية، وحقيقتك دوما مرئية، حاصرتك الأعداء من كل ناحية، ضربتك بالموت الفجائية، قاتلتك بالقنابل العنقودية، وأنت لازلت في أنوفها صامدة قوية، فلك السلام لك التحية، على دماك وجراحك المكوية، فاصبري وناضلي حتى تأتيك شمس الحرية، شمس الحرية، شمس الحرية.

ولم يخجل جمال بن سماعيل بصوته ولا بغناؤه ولا بماله على إخوته من البشر السود، فراح يغني لهم ولأطفالهم ويقدم لهم يد المساعدة بماله ونفسه وكانت الصور التي تجمه مع المهاجرين الأفارقة البرهان والدليل على أصيل معدن جمال، وشاهدة على إنسانيته العظماء، وتواضعه وفهمه أن الإنسان أخ الإنسان، ويقينه بأن الناس سواسية كأسنان المشط، مما نال حظاً عظيماً في أفئدتهم وفي حبه لهم.

كانت علاقة جمال بن سماعيل بالطبيعة، علاقة غرام وألفة ومحبة، فكان يُكنّ لها أسمى مشاعر الحب والامتنان، وبادلته الطبيعة بدورها نفس المشاعر، فجعل بينهما المودة والرحمة، والسكن، فراح جمال يسير بالأيام والليالي بين تلاها ومسالكها يكتشفها ويستأنس بها بعيداً عن ضجيج الحياة المعاصرة ومشاكلها اليومية، ويقصد الكهوف والمغارات والشواطئ والبحار ووسط الغابات ناصبا خيمته للتخييم هناك ومستغلاً بديع الجماد والحيوانات فيسترسل متأملاً لعظمة الطبيعة، وكان يعامل كل ما فيها من أشجار ونباتات على أنها كائنات حية لها عقل تفهمه، وأحاسيس مرهفة يقدرها ويتوحن الحذر عليها، وكان لطيفاً وعفويماً في وصفه لأصدقائه عن كل ما رآته عينه

من مشاهد ومناظر، وعبارة «شخال شابة بلادي» تصدح لسانه ولا تفارق فيه ويعيدها ويكررها كلما حطت عيناه على منظر ساحر بديع في أرض الجزائر، وكان في الليل يجلس أمام النار بين أصحابه في الخيم ويتأملها ويحرص على أن لا تؤذي أحدا، وكان يغني لأصدقائه هناك وينشد شعرا ورووي خواطر، ويحكي لهم عن يومياته بكل عفوية، براءة الأطفال يخبرهم حبه للتوم وأحلامه بالحرية التي تراوده في منامه، في مقاطع موسيقية، حيث جعل الفن والموسيقى جل حياته وحبه للفن يسير فيه مسرى الدم، ويقول:

- إن الموسيقى هي دواء الأرواح، وإن الموسيقى هي اللغة التي يفهمها كل البشر

وراح يقدم آلاته الموسيقية لمن حوله في الخيم ويعلمهم العزف عليها، وأحيانا يطلب منهم أن يعزفوا بكل عفويتهم والاعتماد على أحاسيسهم الداخلية ليشكلوا موسيقى خاصة بهم، وكان دائما يحمل قلبا ودقترا معه تحسبا إلى إلهام يأتيه بغتة فيدونه في الحال، كان مؤلفا بارعا، ورساما مبدعا، يترجم الزمن والمكان والأحداث والأشخاص والأحاسيس بريشة عرف كيف يداعبها ويوزع عليها الأدوار فأتقنها على مسرح الأوراق البيضاء، وكان يوثق كل شيء بصور وفيديوهات بهاتفه ويحفظها، ويحرص على تصوير اللحظات السعيدة التي يقضيها مع أصدقائه وغيره وكذلك الأحاديث العفوية التي تدور بينهم، كان بشوشا ومرحا ومتفائلا، كان عاشقا للسفر والمغامرات والاستكشاف فعن رغبته في السفر الدائم غنى معزوفته الحزينة فقال:

- هناك النهار طوّل، حتّى الصبر ضاق وهجر، القلب حاب يدمع، العين مابغات تفتجّر، الغياب زاد فالعذاب، فراقك خلّاني مودّر، بأسراري هارب، نحاق كي الطير الحر، شحال نعيّا نخيّ ونقول، ياك حالي راهو يهدر، لي عدّيتو في سنين، راه فالجيين مسطّر، ما طلبت ملك ولا جاه، ولا قصور الجور والمرم، حبّيت منّا لهنّا، حبّيت نروح نبقي مسافر

وعرفته الحيوانات بالرحمة والشفقة عليها، إذ تفرح بقدومه وتنتظره بلهفة، فكل مرّة يقصد الغابات بغية إنقاذ البيّة ومساعدتها وخدمة لها، فتجده يحمل الماء والطعام ينثره في أرجائها لتلتقطه الطيور والدواب، ويسقيها الماء، فكم من دلاء حملتها يدها الطاهرتان إلى بعيد الغابات في عزّ الصيف ذات الشمس الحارقة والحرارة العالية، غير محتسب للتعب والشقاء، فكانت سعادته لما ينقذها من العطش الشديّد، وفرحته أكبر لما تتعافى الحيوانات المريضة والمتأذيّة هناك بعد رحلة من العلاج والاهتمام الخاص بها من طرفه شخصيًّا، كان إنسانا منفردا عن غيره، كان يحمل الطيور والحيوانات إذا وجدها تستغيث بصمتها وركونها في أرض الغابة المنعزلة وسط المخاطر التي تحدّق بها من كلّ صوب، كأنّه يفهم منطقتها فيأخذها معه إلى حيث هو كائن في المنزل وغيره، يتفرّغ لمعالجتها ويعيدها إلى الغابة بعد تعافيا، إنّه حقّا بطل الحقيقة والواقع، حبه للحيوانات يتجلّى أين ما ذهب وحلّ، كان يطعم القطط الكثيرة في حيّه، والأطفال يلقون حوله ويشجعونه ويقتمدون به، وكان يحكي ويجد ضالّته وأنسه في قطّه المدلّل (سيزار)، حيث ألّف له مقطعا غنائيّا وأسمعها له بصوته العذب:

- آه يا سيزار قد خلوي شحال تحلى معاك القعدة كي نكون نقصر ونغني

جمال بن سماعين يسع قلبه الكرة الأرضية، بل أكثر من ذلك بل يسع الوجود برمته، تراه رءوفا رحيفا ودودا يحنّ كالأمّ على رضيعها حديث الولادة على كلّ موجود، سبحان الذي زرع الرحمة والشفقة في فؤاده، زينته بالشّهامة، كان لا يتوانى عن مساعدة الآخرين والمحتاجين، ولا يردّ اليد التي تستغيثه، وكان يؤثر غيره على نفسه، وسخر ماله ووقته ونفسه وقوّته للمسكين والضعيف والمغلوب على أمره، وجعل اللحن في لسانه يعبر عن مواساته لكلّ أطيايف المجتمع فغنى للوطنية وللقضايا العادلة وللأحداث وللحيوان ولكلّ إنسان، رفع قيثارته ينشد للأمّ والوالدة يطلبها مسح دموعها وعدم البكاء على فلذة كبدها الذي يقاسي كروب الحياة الصعبة وأمواجها العاتية، ويشكى لها قسوة الحياة عليه فقال:

- لالا متبكيش امسحي دموعك يّمّا، اسي ماتوحيش نت عيونك غالية
اسي ماتوحيش عمري ماقديتش،

حياتي بلا بيك فانية، فراقك شحال صعيب
هذي دنيا قاسية

قطعت أنا لبحور ركبت موج عالية

رحت وماولييتش قصتي راها باينة

توحشتك بزاف يا نجمتي الضاوية

ي لالا ماتبكيش، لالا ماتبكيش، لالا ماتبكيش،

السي ماتوحيش

وغنى للأطفال وشاركهم حبّ الفنّ منذ نعومة الأظفار، ولازمهم الصداقة والأمانة، ولم يكن فارق السنّ بينهم يحول في صحبته للأطفال، فقد كان نعم الصّاحب والمعلّم لهم، فظهر في فيديوهات له يُعلّم أطفال المهجر من

إفريقيا الحروف، ويعلم سائر الأطفال شيئا من القرآن، ويعلمهم الغناء، كان يفهمهم ويفهمونه، ربّما يعود ذلك إلى البراءة التي لم تغادره، أو إلى ذلك الطفل الصّغير النقيّ البريء الحالم الذي لم يكبر بعد في داخله، فجعل سامي ومنير من أعرّأ أصدقائه الأطفال عضوين لفرقة الفنيّة، فغنّوا على الجائحة التي أمت بالعالم "كورونا" وغنّى معهم أغاني الأطفال.

كان جمال بن سماعيل شابّا عصامياً طموحا محبوبا من أهله وأقاربه وسكّن حيه من الكبار والصغار، ومن النسوة والرّجال، محبّا للخير وناشرا للسلام وناظرا العنّف والقوّة، ويشهد له بخصال الخير والأخلاق الحميدة والفضائل كلّ من أحبه القدر وتعرّف عليه، جمال بن سماعيل فنّان بامتياز، تجمّعت عنده المواهب العديدة فراح يؤلّف ويكتب، وينشد ويغنّي، ويعزف ويرسم ويمثّل ويرقص، وقد أدهش متابعيه في تطبيق التيك توك الخاصة به، برقصه المعاصر استعرض فيها الحركات المتقنة ويصلح أن يلقّب بمايكل جاكسون الجزائر، كان حلمه أن يكسب فرصة لدور بسيط في أحد المسلسلات والأفلام التلفزيونيّة، كان حلمه أن يسمع العالم صوته الفريد، وأن يدخل إلى العالمية وأن يحاط بأضواء الشهرة، وكلّ مرّة يجتمع بأصحابه ويقول لهم بعد عزف وغناء ورسم:

- واحد ماراه سامع بيا بصّاح نهار نموت الكل راح يسمع بيا وكان دائما يردد:

- الموت تاعمي هي آلي راح توحد كامل الجزائريين

اضطرّ جمال بن سماعيل أن يُوقف مشروعه في رسم لوحاته الفنية بعد عشرة أيام من بدئه، الذي يتشاركه مع صديقه شمس الدين لرغبته في مساعدة إخوانه في منطقة القبائل بتيزي وزو، وتقديم يد المساعدة في محنتهم التي أصابهم بعد الحرائق المهولة التي أتت على غابات المنطقة والتهمت الأخضر واليابس وراح ضحيتها مئات العسكريين والمدنيين والنساء والرجال والعجائز، وحتى الأطفال والرضع، فاجعة مروعة تشهدا الجزائر وصوت الضمير عند جمال بن سماعيل لا ينضب، فله أصدقاء من المنطقة جمعته بهم مائدة الطعام والملح وجمعته بهم رابطة الصداقة، وعلى أساس الهبة الوطنية التضامنية وتحت مفهوم "الصديق وقت الضيق"، وتحت الاستجابة لنداء الوطن وقت المحن همّ جمال بن سماعيل كسائر الجزائريين بجمع التبرعات وكله أمل في النهوض بالمنطقة، والتغلب على هذه المصيبة، بعيدا عن الملل والكلال، فعندما يعمل الإخوة معا ينتجون مناجم من ذهب، فعندما يتوحد المواطنون على يد واحدة تحت شعار الأخوة فلن يكون بعد ذلك إلا الفلاح والنجاح، ففي الإتحاد قوة، وليستحيل كسر الأوتاد وهي مجتمعة، وكم يسهل تحطيم وتدمير الأوتاد وهي متفرقة، شدّ الرحال من مسقط رأسه خميس مليانة بعين الدفلى إلى تيزي وزو، وثق بداية رحلته على تطبيق التيك توك، ظهر بقميص أخضر كلون الطبيعة وبسروال قصير أسود ومعه محفظة صغيرة، حيث انفرد بالليل وحرّم النوم عن عينيه تلبية لواجب الصداقة والوطنية، فسار طوال الليل الخالك منتظرا وقت وصوله إلى تيزي وزو عند بزوغ الضوء، مقدّما يد العون وممارسا إنسانيته وآدميته مخلّدا بطولته هناك.

في يوم 11 أوت 2020م، أرست كاميرا قناة الأوراس عدستها على الأسود، أمسك جمال بن سماعيل الميكروفون بيده اليمنى، كان الجزء العلوي

من جسده عاريا، يحمل في جوفه في شقه الأيسر قلب المحب لوطنه، قتره واقفا جنبا بجنب مع أحبابه وإخوانه في مصابهم من حرائق، على رقبته قلادة سوداء، وعلى رأسه قبعة سوداء اللون، تغطي شعره الكثيف، وتظل وجهه من أشعة الشمس الحارقة، يبدوا عليه وغشاء السفر، كيف لا وهو الذي قضى الليل كاملا بلا نوم ولم ينل قسطا من الراحة، منذ أن انطلق رحلته نحو المجد والمساعدة من مدينته خميس مليانة بولاية عين الدفلى، وصولا إلى لاربعا ناثيراثن بولاية تيزي وزو، قائلا:

- سلام عليكم، خاوتي بالمناسبة الأليمة والحزينة اللي راه تعيش فيها منطقة القبائل، كما يقولوا أهلنا خاوتنا وولادنا، الله يرحم جميع من مات، وإن شاء الله هاد ليكيب، اللي واقفة الله يعطيهم الصبر...

كان رهط من الرجال خلفه، كهل منهمك بأشغال على متن الشاحنة، وشباب يلتفون حول الأسد الشجاع لما كان يزأر بمعالى كلمات الوطنية والإنسانية والأخوة، ويعبر عن مدى تأثره لما حصل مبينا بحضوره إخلاصه لوطنه وشعبها.

واصل الحديث والحسرة نتأجج من نبرة صوته، راح يضغط على الكلمات من مخارج نطقها، ويعصر يده التي يلبس في إصبعه الوسطى خاتما، وإسواره في يده تبدوان أتمها من الفضة، وكأن الخاتم هو خاتم القران بوطنه الجزائر، وكأن الإسواره التي تربط يده هي عهد تربطه بالجزائر كما ربطت الإسواره يده، وراح يحركها ويضعها على صدره لما نطق بالأخوة ووحدة الشعب الجزائري، كلامه كان صادرا من أثر إحساسه المرهف وجلالة وطنيته، كيف لا فهو الذي يتدقق عشقا لوطنه وسباقا إلى المساندة أمام الشدائد.

روى رحلته الطويلة من أجل الوقوف مع أعزّ أحبائه وأصدقائه، وقضايا وطنه مع كل الجزائريين الواقفين في هذه المحنة كرجل واحد بقلب واحد فقال:

- أنا البارح جيت فليل، مارقدتش، جيت نوقف مع خاوتي، عطاوني درس، عطاوني درس للتضامن، للشّجاعة، للقوة

استأنف الحديث داعيا رجال الجزائر لهم بتفعيل دورهم، من أجل خدمة الوطن وقضايا وطنه، ووجه نداء عاما لكافة الناس طالبا مساعدة المنطقة وأهلها التي أصبحت منكوبة بفعل الحرائق، ملوّا بيده ارتفاعا ونزولا ومعدّا على أصابعه احتياجات أهل المنطقة وما يخصّها فقال جمال:

- وبتنّي من جميع جزائري حر، يلعب الدور ديالوا، وباش يكون في علمكم خاوتي بلي منطقة القبائل في هذه الناحية، مكاش تريسيتي، وماكاش لما، ومكاش لغاز، مكاش لخبز، مكاش الرّيزو، ومكاش بزّاف عفايس...

ثمّ انتقلت به الكاميرا إلى مايينّ خلفه شاحنة بيضاء، محمّلة بصهر بچ الماء، يبدو أنها لمدينين مشاركين في عملية إخماد الحرائق، ويظهر طريق معبد، يعلوه الأشجار، والمكان يغزوه دخان الحرائق، هناك قال كلمته الأخيرة:

- سمحلنا حيينا، حنا نروحوا نخدمو، ونت تبعنا ملور، خاوتي في حياتي ما شفت واش هاو صباري هنايا، ومام المنطقة قالوا بلي جامي شافوا حادثة كما هاذي صرات وحدة في 1986م، بصّاح ماشي كما تاع ذي الخطرة، مالغري تشوفو مارحش تأمنوا

ثم ناول المكروفون إلى شاب من ولاية الشلف يرتدي قميصاً رمادياً وكمامة، عبر عن تضامنه، وأثنى على الهبة التضامنية من كل أرجاء الوطن، مع تيزي وزو وأهلها فقال:

- الأولى السلام عليكم، الثانية أزول فلاون، أنا يوسف من الشلف جيت نعاون خاوتي في مدينة تيزي وزو...

بينما كان يوسف يواصل كلامه مدّ جمال بن سماعيل يده إلى كتف يوسف مدّ الأخوة والمساندة والتعاون واقفا كالبنيان المرصوف على نوابب الدهر التي تمسّ الوطن، وتلبية لواجب التعاون على التقوى ومساعدة الأخ في الوطن والدين والأخ في الإنسانية لما يستغيث، وواصل يوسف رواية محافل التضامن الوطني من كل بقاع الوطن العظيم استجابة لنداء الوطنية قال:

-...ورانا واقفين معاهم، 48 ولاية هنايا راهم يشاركوا...

سويغات قليلة على هذه المقابلة، حشرت الناس حول سيارة الشرطة التي تقلّ شبانا يشتبه بهم أنّهم من أحرقوا الغابات، ويرددون شعارات "أولاش سماح أولاش"، قام الشباب الغاضب بالإحاطة بالسيارة وعرقوا وأبطؤوا سيرها، ومنهم من سبقها إلى مركز الأمن، متوعّدين من بداخلها بالعقاب الشديد، وعدم الغفران له، مارين بحرم المسجد بيت الله الذي تقام فيه الصلوات، وتلى آيات الرّحمان، ويجتمع الناس فيه على خطبة الجمعة، التي تعلّمهم اليقين من الخبر، قبل أن يصدّقوا ما سمعوه من أنباء، والعفو والصفح، ومقابلة السيئة بالحسنة، إقامة لأمر الله عزّ وجلّ:

- { يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبوا على ما فعلتم نادمين (06) } { الحجرات (06) }

ولم يذكروا قول الرسول صلى الله عليه وسلم { التمس لأخيك سبعين عذرا } وتناسوا أنه من الممكن أن يكون من بداخل هذه السيارة مظلوم من عبيد الله، وتناسوا أن الظلم ظلمات يوم القيامة، شباب غاضب وثار من الفعل الإجرامي، حاملين العصي، مغيبين الوازع الديني والعقل الرَّاجح، مجردين من الحكمة والتأني، غلب التهور والتعصب عليهم، فراحوا يضربون السيارة بكل قوتهم، محاولين إخراج المتهم، نجحوا في كسر أبواب سيارة الشرطة الخلفية، دخلوا في شقاق مع الشرطة، وخاضوا مهمة الوحوش الكاسرة، فلم يبق إلا الشباك الفيصل بينهم وبين المشتبه به، كان دوي الصراخ يعم المكان، والرعب سيد الموقف هناك، انخراب ساد مركز الشرطة من طرف الشباب الغاضب، تسلقوا أسوار وأبواب مركز الأمن بعدها أشنخوا الحشود ضد الذي بداخل السيارة، أصوات إنذار لسيارات الشرطة، وآخرون تجدهم حاملين هواتفهم الذكية مصورين الحدث المرعب الذي لا يخظر على بال، الأمر تعدى كل الحدود، فتحو الباب الخارجي لأمن الدائرة عنوة، والتفوا حول السيارة وتسلقوا فوقها أين يقبع بها المتهم، شرعوا يهزّون السيارة بشدة فراحت تميل بمن فيها يمينا وشمالا، وعلو المكان الصراخ الصاخب كأن الأرض تهتز من تحت سيارة الشرطة، لم يشفع ابن القبائل الحر صاحب العقل الراشد الواقف أمام سيارة الشرطة يطلب من الشباب الغاضب أن يتركوا المتهم وشأنه، وقال لهم:

- دعوه وشأنه إنه الآن في قبضة الشرطة

لم يسمع له أحد هل.

أسرع شاب ذو لحية يرتدي قميصاً أخضراً، يبادر في فتح باب السيارة، طلب من الشباب أن يساعده في فتح الباب، نجحوا في ذلك، ما إن فتح الشاب صاحب القميص الأخضر الباب، صُدم جمال بن سماعين المظلوم والمفتري عليه بالتهمة الكاذبة بإحراق الغابات، فألقوه في غيابات سيارة الشرطة وألقوه إلى براثن اللانجاة، ربّما كان جمال بن سماعين يقول في نفسه في تلك اللحظة الصّادمة:

- هل أنا في حقيقة الواقع، أم أنه كابوس الأحلام؟ أليس فيكم من يساعدي؟ أنا بريء يا عالم، أنا بريء يا عالم، أنا بريء من كلّ التهم، أليس فيكم رجل رشيد؟ إخواني وأصدقائي وأحبابي وعائلي أنتم أهلي أتيتكم للمساعدة والمساندة، أنا الذي أرسم أوراق الشجر على أغصانها، فكيف لي أن أحرق الجنّات؟

انتكست كل الكلمات ولم تعد تعرف بما تواسيك ولا نحن نعرف كيف نواسي أنفسنا بعد كل هذا.

تسابق الشباب إلى الدخول في سيارة الشرطة وتنافسوا على الانقضاض على البراءة والإنسانية جمال بن سماعين، لطموه على وجهه بلجمات أسالت دماءه النقيّة، تعدّوا عليه بشتى أنواع العنف اللفزي والماديّ، سبّوه وشمّوه، تحت تحريض الحشود وجلّهم يوثقون لحظات السّادية وهم مستمتعون باغتيال الفنّان والإنسان والبريء، كان جمال يحاول تبرئة نفسه فقال للشّاب صاحب القميص الأبيض يرتدي كمامة أنه بريء، وفي يد الشّاب هاتف

يصور جمال ويأمره بأن يشهد شهادة زور على نفسه وقومه، ولكن سيدّ الحقّ جمال أنكر ذلك البهتان، واصل محاولة تبرئة نفسه من وزر لم يرتكبه، وما كان له من سلاح إلا الحلف بعظمة الله بأنّه بريء، وأنّه سيموت مظلوماً:

- خو والله العظيم... والله العظيم رح نموت مظلوم

لم يصدّقوه، بل أمره بالجلوس، وكان جمال يلوح بأصابعه بعلامة التّفنيد لهذا الذّنْب الذي لم يرتكبه، ويقسم ويحلف بالله العليّ العظيم ببراءته، لم يُسمع منه، ولم يُتقبّل منه حتّى محاولة الدّفاع عن نفسه، فزادوا عتوّهم وتجرّبهم، فركلوه وضربوه بالتناوب، وهم فرحين، وصبّوا عليه ماء مخلوطاً بمادة سامّة استنفذوا من جمال بن سماعيل جميع قوّته، ولم يعد يستطيع حتى التّلق بنبت كلمة فطلب منهم شربة ماء:

- خو مانقدرش نهدر، راني عطشان مانقدرش نهدر، عطيني نشرب

لكن القلوب الأشدّ قسوة من الحجر أعطوه سائلاً خطيراً غير الماء، وهكذا يُعامل الإنسان أخاه الإنسان؟

توجّه إليه صاحب القميص الأبيض، جرّده من كلّ أشياءه التي يحملها معه، ولم يهدأ له بال حتى قام بتفتيشه كلياً، وكان جمال يحلف مرّة أخرى ببراءته:

- والله العظيم والله العظيم أنا بريء

ويستغيث بأن يصدّقه، وكان وفيًا حتى التّخاع، ولم يصدّق ما رآته عيناه من الغدر وكان رجلا بكلّ معاني الكلمة وقال لهم: - خو نت راجل ماديرش هكذا... قبائل رجال مايدروش هكذا

ولكن يا جمال هذه فئة لا تمثّل القبائل الأحرار، إنّما هم فئة إجرامية باعت نفسها للشيطان، هم من الخميرة الفاسدة، بل هم العجينة القذرة، وهبوا أنفسهم للخطيئة، أصابعهم أذنان العقارب يسعون في الأرض الفساد، ومتى كان للإرهاب قلب؟ ومتى كان للإرهاب هوية؟ ومتى كان للإرهاب دين أو إنتماء؟ فزجروه ودفعوه بقوة إلى الدّاخل، وسكبوا عليه البنزين، وأخذ القارورة منهم، فتحها جمال عسى أن يجد ماء فيها فأغلقها ولم يشرب، وحمل نفسه البريئة، وجسده الهزيل المتلوي من آلام الضرب والتّعذيب، وجاء إلى جانب السيّارة ونظر من الشباك بعينه البريئتين والمتفتختين من اللطم والدّماء متمخضة وجهه وجسده الهزيل، مخاطبا الحشود الشّاهدة على ظلهم وقال لهم زتوعدا:

- قولوهم يصبروا قولوهم يصبروا، راهم رايجين يندموا

ثمّ اتّحد واتفق الشبان على طعن جمال، تولى المهمة شاب بقميص أسود من علامة أرمني، طبع عليه حرفي (A^x)، بلوني الأبيض والأصفر الذهبيّ، أدرك جمال قدره المحتوم في الموت، رفع يده إلى أعلى وضمّ أصابعه الأربعة، وترك السبّابة متّجهة نحو ربّ السموات العلى، ليلفظ الشّهادة الإسلامية «أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله» فجعلها آخر ما يلفظ به، في آخر دقائق حياته، وإنك يا جمال شهدت بالله وأقررت بوحدانيّته، وبمحمّد رسول الله، فإنّ الله يا جمال لا تضيع عنده الودائع، إنّ الله شاهد

على فعلتهم، فليجعلك الله صاحب وجار الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، ثم طعنه الأخير على مستوى البطن، موضع استقبال الروح، غرق جمال بدمه، وسقط جثة هامدة، أنزلوه من السيارة وألقوه على الأرض، سخبه من رجله، والتفوا حوله كما تلتف الضباع الجائعة على أسياها الأسود عندما تموت

لم يشبعوا من ضربه حياً فضربوه وهو ميت، لعلمهم يشفوا غليلهم المشبع بالخطأ والفساد والخطيئة والوزر والذنب، فأبعدهم قائدهم من المجرمين، بصدد إملاء عليهم أشع طرق التنكيل من كبيرهم، عطفوا الأنامل غيظاً عليه حياً وميتاً، فجروه خارج أمن الدائرة جراً إلى ساحة المحرقة، من رجله وجسده ممدد على الأرض ودماءه الطاهرة تتصبب منه، فشربت الأرض من دماءه وارتوت، كما شربت من دماء الشهداء الأبرار، جروه منددين بعبارات عنصرية تعصف بوحدة الوطن وتزرع الفتنة بين الشعب الواحد، قتلوا الذي كان يحارب من أجل متانة وحماية الوحدة الوطنية، بسطوه في ساحة الأبطال، ساحة عبان رمضان، هذا الاسم الكبير، الذي تعرفه كل الأجيال وتدارسه كل السنوات في كتب التاريخ، وتنطق باسمه المقاومات البطولية لرجال الجزائر الأحرار، في إزالة الوجود الاستعماري الفرنسي الغاشم. (عبان رمضان) رجل من رجال القبائل الأحرار، إنه واحد من قادة الثورة التحريرية، المولود عام 1920م بقرية عزوزة في بلاد القبائل، انخرط في صفوف حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، التحق بالثورة في المنطقة العسكرية الرابعة (العاصمة) وكان من أبرز مفكري الثورة التحريرية المجيدة، شارك في مؤتمر الصومام المبارك بفعالية ممثلاً لجبهة التحرير الوطني

ومحررا لميثاق الصومام وعين عضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ وفتة المنية بالمغرب عام 1957م.

عجا للقدر كيف يوازي الأبطال بالأبطال، أحرقوك يا جمال في ساحة الأبطال والشهداء، على رأس عبّان رمضان الخالد ذكره هناك، ميزانك أمثاله من الأحرار ميزانك العربي بن مهدي، وزينود يوسف، والأمير عبد القادر، والأمير خالد، كريم بقاسم، ومصطفى بن بولعيد وغيرهم من الأحرار، ومن قال أن الأبطال توقّف ميلادهم بنهاية حرب التحرير، لا وألف لا، بل لنا بعد البطل علي لابوانت "جمال بن سماعيل" الذي وهب نفسه ودمه لتراب هذا الوطن، ولتحريره من أيادي الفتنة التي غدرت بك يا جمال تلك الأيادي التي مددت لها يدك للمساعدة، ضربوك بألة حادة، وأوقدوا فيك النار، فحرقوك، وذبحوك، وتركوك حتى غروب الشمس في محفل الشيطان يرقصون حولك، كالكلاب التي ترقص على جثث أسياهاها الأسود، فرحين وزيّنت لهم أعمالهم القذرة الذنيئة، يحومون حولك والسعادة بخطيئتهم تطير بهم من شر جريمتهم الشنعاء، كأنهم قتلوا وحش الغابة، أو ذبحوا طائر العنقاء، ولكن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون: «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار(42)» {سورة إبراهيم (42)}، صورك بعد قتلك وتعذيبك وحرقك أعداء الله، ورقص وتمايل أمامك معارفك قبل الغباء عنك، ظنا منهم أنهم تخلصوا منك وبعثوك إلى الفناء حيث اللاوجود. متّ وموتك كموت الأبطال يا جمال، إنما الأبطال هكذا تموت.

- يا الله... يا الله... يا الله... يا الله آي، يا ربّي يا ربّي ليك ندعي،
استجب الدعوة، يا ربّي ليك ندعي فاستجب الدعوة، نت هدتهولي ونا
هدتهولك، نت هدتهولي ونا هدتهولك يا الله

بهذه الكلمات استقبلت والدة جمال بن سماعين فاجعة فقدان فلذة كبدها،
عبارات خرجت من رحم المأساة، ومن قلب مفرجوع لبشاعة الفقد،
تنهيدات وأنين لم تفارقها من هول الصدمة، كاد يغمى عليها من البثّ
والحزن، فطلبوا منها أن تتلو الفاتحة على روحه، وقالت أنّ ابنها ذهب لتيزي
وزو لمساعدة أهلها في سبيل الله، وترحمت عليه ودعت له بالثبات عند
السؤال:

- الله يرحموا ويوسّع عليه، وليدي راح يخدم لله في سبيل الله، راح يعاون،
الله يرحموا ويوسّع عليه، كثر خير الجزيرين، كثر خيرهم، الله يرحموا ويوسّع
عليه، الله يثبتوا للسؤال، يا الله، يا ربّ

ثمّ تلت على روحه سورة الفاتحة أمّ الكتاب:

- "بسم الله الرحمن الرحيم (1) الحمد لله ربّ العالمين (2) الرحمن الرحيم
(3) مالك يوم الدين (4) إياك نعبد وإياك نستعين (5) اهدنا الصراط
المستقيم (6) صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين
(7)" (سورة الفاتحة)

بالكاد جمعت قواها وأكدت أنها وعائلتها ليسوا من أهل الفتنة وينتمون إلى
عائلة كريمة:

- حنا ماشي تاع فتنة، حنا قاع جزائريين

مسح سي نوردين والد جمال بن سماعيل دموع الفاجعة من عينيه بيده الطاهرة، وواصلت الوالدة الموجوعة على فلذة كبديها بالحديث عن ابنها المغدورين جمال وإسحاق، موت جمال أيقظت كل آلام العائلة لمقتل شقيق جمال إسحاق قبله منذ سنوات، ليعمق جرحها الذي لم يندمل ولم يشف بعد فقالت وآلام الماضي ممزوجة بآلام الحاضر:

- جمال وإسحاق، هذي، هذي لي...، جمال وإسحاق يا الله يا الله

كان الألم أكبر من أن تصف كلماتها ألمها، فلم تستطع محاكاته عبر الكلام إلا بالمناجاة لرب العالمين فهو الوحيد العالم بمدى جراحها لفقد ابنها ووصفتها بالشهيدتين:

- جمال وإسحاق...يا الله ماتوا شهداء في زوج، في زوج مغدورين

أكد سين نوردين والد جمال بن سماعيل أن القبائل إخوته وأسابه ومن قام بقتل ابنه جمال فئة لا تُمثل القبائل، وطلب من السلطات التدخل لإرجاع جثة ابنه:

- قبائل حنايا خاوتنا، نسابنا وحبابنا... الفتنة حنايا ماناش نحوسو عليها، نحوسو تتاحدوا، بالعكس تتاحدوا، والي دارهاد الشيء إن شاء الله إن شاء الله يخلصوها...

وصدمة الفاجعة ظاهرة على وجه توأم جمال وناطقة بلسانه: - إنا لله وإنا إليه راجعون، جمال هو خوياً، توأم تاعي، الله يرحموا ويوسع عليه، الله يجيب الخير للبلاد إن شاء الله

والفاجعة شملت الجزائر برمتها، صدمة الحادثة الشنيعة لحقت بالجزائريين والأجانب بعد اغتيال جمال البريء، فاجعة تهزُّ على كل إنسان يحمل قلباً حياً متشعباً بالإنسانية والآدمية رجلاً كان أو امرأة، كبيراً أو صغيراً. فهبت كل أطراف المجتمع لنصرة الحق، ورثاء رجل الجزائر، رحل جمال رجل الإنسانية الفنان والموسيقي والراقص والرسام، صديق البيئة والطبيعة، خليل الأطفال والمهاجرين، ابن الوفاء وعنوان الرحمة، ومثال الصدق وحسن النيات، محب الجزائر، شغلت قضيتك الإعلام وتجدت أقسام المحاماة لنصرته، حج إلى بيت والديه الجزائريون زمراً، أتوه رجالاً ونساءً من كل ضامر ومن كل فجٍ لتقديم واجب العزاء،

وصل سي نوردين إلى تيزي وزو تحديداً إلى لاربعاً نائيراثن، لاستلام جثة ابنه جمال، استقباله أحرار القبائل طالبين منه العفو والغفران، على ما اقترفته الفئة البلطجية التي لا تمثل القبائل أبداً، وقام رجال القبائل الأحرار وإخوتهم من أبناء الوطن بتظاهرات منددة لهذا الفعل الشنيع، مطالبين بعقوبة الجناة، وأشعلوا الشموع في مكان اغتيال الضحية.

وصل جثمان الشهيد البطل جمال ابن سماعين ليلاً إلى مسقط رأسه خميس مليانة بعين الدفلى، تقله سيارة الإسعاف استقبلته جماهير غفيرة حاضرين من كل بقاع الوطن، مكبرين الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، يطوفون حول السيارة وملتفين بها، ومواسين أهل الفقيده بالتعازي لسي نوردين الذي

نزل من السيارة وأكمل طريقه إلى المقبرة مشيا على الأقدام، أمام الحشود المكتظة بأبناء الوطن مضئئين سواد الليل الحالك بأنوار هواتفهم النقالة، ومكسرين هدوئه بأصواتهم القوية والمرتفعة إلى أعلى السموات موحدين الله:

- لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله

ملتقطين تابوت البطل جمال بن سماعيل بأيديهم، أقاموا الصلاة عليه ووضعوه في مأواه الأخير، داعين الله له بالرحمة والمغفرة والثبات، في مراسم جنائزية مهيبة شبيهة بجنائز الشخصيات البطلة التي فازت بحب شعوبها، فصنعت التاريخ وكتبت اسمها بحروف من ذهب، وراح أعيان القبائل ومشايخها إلى أهل جمال بن سماعيل طالبين الغفران.

بعدها توالى صلاة الغائب عليه، وتوالى الصدقات والهبات على روحه العطرة، وأقيمت للبطل الشهيد عمرة في بيت الله الحرام من أطيب الناس من مختلف الجنسيات، وذكر اسمه في وسط الدعوات بلسان شيخ وإمام الحرمين الشريفين بمكة المكرمة، وغيرها من بيوت الله في بقاع المعمورة من المساجد وبيوت أذن الله لها أن يذكر اسمه فيها، ورُسم وجهه في حيطان الجزائر وأحيائها حتى راح الكثيرون يتساءل ما السر الذي بينه وبين الله يُسخر له الخلق، ويزرع حبه في قلوب البشر.

شارك رواد مواقع التواصل الاجتماعي من أبناء الجزائر وشعبها الأصيل، أصواتهم في ردع الفتنة والحفاظ على أمن الوطن وحماية الوحدة الوطنية، بنشر الوعي والتحذير من الوقوع في براثن الأعداء الذين استهدفوا الجزائر

للليل منها ومن أمنها وشعبها وأراضيها، وقامت المؤسسة الإعلامية الجزائرية بعرض شريط وثائقي يصور هذه المؤامرة وتحليل عملية اغتيال الشهيد جمال بن سماعيل، اتجه أعيان مدينة تيزي وزو من كبار المشايخ وأهل الحكمة والشأن، والمعروف عليهم برجاحة العقل والنطق بالحق، إلى منزل عائلة جمال بن سماعيل بنخميس مليانة بعين الدفلى، لطلب العفو منهم ومن أهل المنطقة برمتها، وإصلاح ذات البين، وإصلاح ما أفسده المجرمون، والعمل على دحض الفتنة ودفع الدية، والذين قبلوا بالصفح والعفو من العائلة المعروفة بالتسامح والرحمة والعفو.

إن العالم تأسف لفقد جمال بن سماعيل وتألم كثيرا، وإن أسى وألم القبائل عليه كان أضعاف مضاعفة، لأن الحادثة وقعت على أراضيها الطيبة، بفعل أيادي المجرمين الذين يحاولون زعزعة الوحدة الوطنية، وتشويه صورة القبائل الأحرار، وخلق الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، فكان الشعب البطل متيقن لها الكمين وأصر أن يُطفأ نار الفتنة كما أطفأ الحرائق، وكما أطفأها سي نور الدين والد البطل الشهيد جمال بن سماعيل بقوله:

- كلنا جزائريين

سَخَّرَ الشعب الجزائري نفسه، لتحليل الصور والفيديوهات التي توثق مقتل الشهيد جمال بن سماعيل، وشاركوها عبر منصات التواصل الاجتماعي، والتي مكنت وساهمت في تحديد المجرمين، فكانت قُصصهم دليل إدانتهم، ووجوههم واضحة وضوح الشمس في النهار، وهذا ما أثبتت عليه القوات الأمنية الجزائرية.

انطلقت القوات الخاصة ليلا وصباحا تعمل على قبض المجرمين، واستطاعت القبض عليهم بنجاح، وعبر الجناة عن ندمهم الكبير بكاء وتوسلا بالمغفرة، ومعترفين بفعلتهم الشنيعة، طالبين العفو أمام الكاميرات أثناء مساء لتهم واستجوابهم. و الندم الشديد بين على وجوههم ومن كلامهم، في يوم لم ينفهم ندمهم، في انتظارهم عقابهم ونطق المحكمة في قضيتهم، كما يقول المثل القبائلي بما معناه باللغة العربية

- أيتها الحكمة، أيها التآني، أيها الرشد، كم أنتم جيدين لو أنكم تحضرون على بال المرئ في أول الأمر

جلس ماسون رنجير على الرماد من بقايا الحرائق كتب في مفكرته بألم عسير:

- حريق في وطني وآخر في قلبي، غابات خضراء أصبحت هباء منثورا بما فيها المنازل والحيوان، الجنود والمدنيون قبضة النار جمال بن سمعين هو البطل ابن الجزائر وأخ الشعب وحبيب الجزائر راح ضحية الغدر رحمة الله عليك يا بطل الشهداء.

الجدسيّة الجزائرية

شارك ماسون رنجير في عملية إخماد النيران التي أحرقت غابات بلده الجزائر، وتبرع بما لديه من مال لشراء قرووات الأكسجين من أجل مساعدة مرضى فيروس كورونا، أنهكه التعب الشديد وأرسي بعُجالة إلى قرية آيت سيدي علي برباشة التي حاصرتها النيران حزن على مقتل أربعة أشخاص من أبناء القرية، انتشرت النيران في القرى المجاورة والتهمت غابات بلدية كنديرة وقرية عفرون، اندلعت النيران في غابات قرية البر إوهرايان أواخر شهر أوت 2021م بين الحدود مع قرية خليل على الساعة الحادية عشرة ليلا انتشر الناس بفؤوسهم ومعاولهم ينزعون الحشائش ويقطعون الأشجار القريبة من بيوتهم، وهب الناس من كل مدن الجزائر وأقطارها يتضامنون مع ضحايا الحريق، تمكنوا من إخماد النيران، سقط ماسون رنجير مغشيا عليه نقل على جناح السرعة إلى المستشفى أصيب بفيروس كورونا ولبث في العناية المركزة طويلا، طلب دانيال وكاترين من أختهما أنجيلا أن ترافقهما للجزائر لزيارة والدهم ماسون رنجير طريح الفراش، أبت أنجيلا وأصرت أن لا تذهب ولا تود أن ترى والدها، ترجّاهما دانيال قائلا:

- إن أزمة والدنا ماسون رنجير هي أزمة هوية حادة، ذهب ليأتم هويته ويغسل جذوره ويرجع الدماء إلى عروقها الأصلية، سافر إلى الجزائر لأنه جزائري وأنت تحملين دمه، استوعبي حالة والدي، كان تأتها وغريبا عن نفسه فاتخذ رحلة البحث عن ذاته التي تبين لك أصلك يجب أن تكوني له عوناً في قضيتته

قدم ابنه دانيال وكاترين من كاليدونيا تحسنت صحته وشفي بأعجوبة، لم تكتمل سعادة ماسون رنجير بغياب ابنته أنجيلا لعدم مصالحتة له، تقدم إليه أخوه التوأم الحسن أمسك يده يطلب الغفران منه:

- أنت شقيقي التوأم يا ماسون رنجير، لم تكن لي الجرأة في مقابلتك سابقا، لأنني حاولت قتلك لأحرمك حقك المشروع من والدينا، لكن بعدها علمتني درسا لن أنساه، لقد قابلت سيثي بالحسنة، وتبرعت بكليتك لي، أي رجل أنت، أنت حقا ابن علي الجزائري الأصل الذي وهب دمه لأرض الجزائر وأعرف حق اليقين أنك ستهب دمك أنت أيضا من أجل هذا الوطن العظيم

- لا داع للشكر، نحن الاثنان تقاسمنا رحم أمي هوارية ولبثنا في رحمها نحارب المستعمر الغاشم تسعة أشهر في الجبال، وخرجنا إلى الحياة، فرقنا الاستعمار وحاول طمس هويتي، لكن الحقيقة لن تخفي أبدا أنا لست ابن ميشل فرونسوا أنا ابن علي الدزيري، لا أريد شيئا منك أريد فقط حقي في الاسم لأنني دزيري، جزاري حر

في 03 جويلية 2022م لبس ماسون رنجير قشّاية بنية اللون وزاد عليها البرنوس الأبيض ولفّ رأسه بالعمامة، ولبس حذاء المجاهدين الذي يعود إلى حقبة الثورة الذي كان في الخندق، توجه إلى العاصمة الجزائرية، منحت المحكمة العليا في الجزائر العاصمة الجنسية الجزائرية لماسون رنجير بعد دراسة ملفه واعتمادا على الأدلة التي نُثبت أنه ابن جزائري أبا عن جد وأما عن جدة، وبعد أن أسقط جنسيته الفرنسية عن نفسه برغبة منه، تنزلت المحكمة بزغاريد مدوية وهتافات:

- تحيا الجزائر تحيا الجزائر

أقام ماسون رنجير حفلة كبيرة في 05 جويلية 2022م بدأت احتفالاته بموكب من السيارات من الجزائر العاصمة وصولا إلى قرية البير إوهرايان، كان يأمر سائق السيارة بأن يفتح الشبايك ويقول لهم:

- هل تشمون ما أشم، أنا أشم رائحة العنبر ورائحة المسك، توقف أيها السائق

نزل من السيارة فتح ذراعيه تحت الريح الطيبة التي تحمل معها رائحة المسك والعنبر، أقسم على أهله أنه يشم الروائح الطيبة من مسك وعنبر، وقف أهله يتأملونه بغرابة، لكن ماسون رنجير راح يتنفس شهيقا وزفيرا يشم الروائح الطيبة التي تسابق إليه وصل إلى قرية البير إوهرايان، استقبله الأهالي بحفلة أخرى كبيرة حضرها كثير من الناس أطلقوا البارود ووجهوا البنادق وأطلقوا الرصاصات تحفلا بالحدث واستذكارا لعيد الاستقلال المصادف ل 5 جويلية 1962م والذي يحتفل به الجزائريون سنويا، قُرت عيناه فرحا وقال:

- أنا دزيري، ابن المليون ونصف المليون شهيد، أنا ابن الجزائر، أنا ابن عليّ ابن الشهداء والمجاهدين، أنا ابن الوطن العظيم هذا الشعور أكبر من كل وصف، لقد عادت الدماء إلى عروقها تحيا الجزائر، أستسمحكم أيها الناس أريد أن أطلب منكم طلبا اسمي من اليوم فصاعدا دزيري، أريدكم أن تتادونني بدزيري سأغير اسمي في الوثائق الرسميّة باسم دزيري

فاجأته ابنته أنجيلا أسرعت إليه وضمته وقالت لوالدها:

- أنا نفخورة بك، وأنا نفخورة كوني ابن جزائري، وأنا نفخورة وسعيدة كوني اليوم هنا معكم في أرض أجدادي... أسميت ابنتي الصغيرة الجزائر لتكبر وتحمل بين يديها جنسيتها الجزائرية وتحمل في قلبها حب الجزائر، وفي عملها خدمة الجزائر، كان عليّ أن أفهم السر وراء رحلتك نحو الجزائر، كان من الأجدر أن أدرك عظمة قضيتك في إثبات نسبك وإثبات جزائريتك، قضيتك التي تشبه تلك الشمس الساطعة لا الأفول يروقها، ولا الغروب يليق بها.

انضم إليهم أبناءه كلهم وضمّوه بقوة وبفخر

تقدّمت ابنته مزغنة إلى المنصة وألقت كلماتها التي أبكت الحاضرين وأحيت الذاكرة الجماعية لجيلها:

- نافذة على حائط من حيطان غرفتي الملون بالبنفسجي عليه أعمار الهلال وثرثريا النجوم وصور الأزهار، بذوق الطفلة التي بداخلي تلك الطفلة التي لم تكبر ولن تكبر وترفض أن تكبر.

هذه الطفلة التي بداخلي ترغمني أن أجلس على الأرضية وأصنع بالقصاصات تماثيل وأزهار وأصنع منها أشكالاً مختلفة ذات ألوان زاهية وألصقها على حائط غرفتي، وأرسم برديتي على دفاتري الطبيعة الجميلة لبلدي جبالا وسهوبا وصحاري وثلوج وغيثا وأمطار وشمسا وأنهارا وبحيرات.

هذه الطفلة التي لم أفلح في ترويضها وجعلها تكبر، أجمعت لها مغريات الحياة وبها رجها وزينة الشباب وأتيتها من كل جانب إلا أنها تأبى أن تكبر، ثم أوكلت لها الدنيا وما فيها من زينة لتكبر فاعتذرت الدنيا وقالت:

- لم أستطع إليها سبيلا فذريها في عالم الطفولة تسرح

فتجدها ترغمني على فتح نافذة الطفولة وتُرجع بي إلى سنين خلت عبر عجلة الزمن الماضي الذي يسري إلى الوراء وتُلف بروحها روحي رغم شبابي، فتراني أجالس الصغار وأتجاوز بلغتهم وأجري خلفهم، وترى الأطفال يُسارعون إلى حائط غرفتي يقطفون الأزهار التي عليه يشمون عبقها، ويطاردون الفراشات فيه ويفتحون النافذة ويغردون مع الطيور، ويحسبون عدد السحب فأتعقبهم بنظرات فيلوزون سراحا بالفرار وصوت ضحكاتهم الطفولية تعلوا وتزداد كأنهم العنادل لما أجري خلفهم لاسترداد أزهارهم وفراشاتي منهم.

هذه الطفلة التي بداخلي تُذكرني بأيام جميلة خلت بين أهلي وإخوتي فقد كنت أنا الطفلة التي تتوسط إخوتي فكان كبيرنا كأنه الملك الدكتور الذي له القوة والسلطة بيننا ورأيه مسموع ويجب أن نتبعه في كل صغيرة وكبيرة ولا يجوز أن نرفض له كلمة، وآخر العنقود كولي العهد بلغ به الدلال حد

الخطورة، فحرم أن يزججه أحد وويل إن اشتكى بأحد إلى والدي وقدري أنا أن أكون في مرتبة الوسط بينهما استغلا مقامهما ليتسلطوا عليّ الأول بسطوته والثاني بدلاله، فعدت أنا كالشعوب المضطهدة قابضة بين نارين نار جبروت الملك ونار دلال الأمير فرحت أشكي أمري إلى المحكمة العليا في المنزل جدتي رحمها الله وعفا عنها، فضغظت على الوتر الحساس الرأفة والرحمة اللتان وضعهما الله في قلب الوالدين نحو أبنائهم ففرجت بحق الفيتوا أتمشى شاحخة بين إخوتي أحتفل بإنجازي كالشعوب المنتصرة.

راحت الطفلة التي بداخلي تلك الطفلة التي لم تكبر ولن تكبر تستذكر مواقف مع إخوتي، كما نقيس حدود المشروبات الغازية في كؤوسنا إن لم يزد كأسا عن كأس ولو بقطرة واحدة، وكما نقيس طول الحلويات التي نضطر أن تتقاسمها بيننا فنحظر المسطرة والمنقلة وأدوات الرياضيات والآلة الحاسبة ونقوم بعمليات رياضية دقيقة شبيهة بعمليات الجبر والهندسة ونحرص أن لا نخطئ في التقسيم أكثر من حرصنا على حل تماريننا المقدمة في وظائف وواجباتنا المنزلية، وكما نحتمي ببعضنا البعض ولا نحمل أن يُصاب أحدنا بأذى ونسهر نشتكي ألما إذ ما اشتكى أحدنا ألما ونفرح بفرح أحدنا، وتراحمنا وتعاطفنا مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد .

هذه الطفلة التي بداخلي لم تكبر وتأبى أن تكبر تقلب الصور القديمة لها مع أترابها وتستحضر ذكرياتها، فتحدثني الطفلة التي بداخلي عبر الصور عن أوقات المرح في وسط النهار تحت شمس الصيف الحارقة نلعب مع الفتيان ونناهزهم في لعبتهم المفضلة كرة القدم تلك الكرة التي صنعوها من لَمَّ الكاغط والأوراق على شكل كرة يغلفونها بكيس بلاستيكي ويلفونها بشريط

لاصق، أو يصنعونها بلف جواربهم القديمة والمتقوية، نحن أولئك الأطفال الذين كنا نصنع الترفيه بأنفسنا فنشد بالحبل أغصان الأشجار ونصنع أرجوحة تتأرجح بها، ونجلس نحن الفتيات نصنع الدمى بصوف النعاج والخرفان، ونخطط لمن ثيابا بإعادة تدوير الملابس البالية، ونصنع سيارات بأسلاك من نحاس، ونجتمع بفتيات الجيران ونلعب بالحصى، وتتعلم حياكة الزرابي من النساء المحترفات، ونجتمع بأطفال الأقرباء والجيران ونكتب سيناريوا طفولي بلهجة الكبار وتحويل إلى ممثلين بارعين نتقن بشدة أدوارنا التي اخترناها لأنفسنا، ثم نخرج في المساء نلعب الغميضة ونجري بين الكبار ونحتجئ في المحلات وفوق الأشجار وخلف البنايات، ثم نتسلل إلى ديار الجيران ندق الجرس ونلوذ بالفرار ونبلل أنفسنا بمياه الينابيع ونستسقي الدلاء ونملها على ظهر الحمير، نخرج مسرعين على صوت الطائرات والمروحيات ننظر إليها ونناديها:

- اهبطي واجعلينا نظير معك

نحن أطفال مناطق الظل والأرياف الذين ندمج بأطفال المدن ونستمع إلى طريقة حياتهم الحضارية ونرى البحر البعيد عنا عبر وصفهم وسردهم لنا، ونسبح في الأنهار والبحيرات ونجري جوار بعضنا البعض نتسابق لاقتناء المرح ونظير كأسراب الطيور لئلا حواصلنا تسلية ولعبا في رحاب الطفولة بعيدا عن كل النعرات والاختلافات

نحن أولئك الأطفال الذين كنا نجري خلف السيارات في موكب الأعراس، نحن الأطفال الذين كنا نجعل البلاستيك والقارورات في الأودية ومن مخلفات الحارات لنبيعها لتجار البلاستيك بثمن بخس أو مقايضة لها

بأساور وخواتم وقلائد من حلي أو كريات، أو ببعض السكريات والحلويات.

نحن أولئك الأطفال الذين كنا نخرج ونجول المداشر والقرى بدون وجل من الإرهاب ضارين عرض الحائط لقوانين حظر التجول غير فاقهين لمدلوله

نحن أولئك الأطفال الذين كنا نضع أيدينا فوق بعض و نشد بعضنا البعض فتشباك أصابعنا فبنني جسرا بأجسادنا الصغيرة نُجندها أرواحنا ونقطع مسافات طويلة بين دهاليز مخفية ومُخيفة تحت الأشجار في جبال البابور الكثيفة في عز الصباحيات الباكرة في صقيع الشتاء وعتمته الداكنة بدون شمعات متحملين لبرد الثلوج وغضب الشتاء القارس ومتحملين حر الصيف الحارق مشيا على الأقدام أميالا طويلة لنعبر فوق المقابر المنسية نُسلم على أهلها، ونقف ترحما وإجلالا لشهداء المعارك والثورة التحريرية، ونعبر فوق أنهار الدماء المنهمرة ونمر على جثث ضحايا الإرهاب لنصل إلى مدرستنا البعيدة عن قُرانا لوحدنا دون مرافقة أوليائنا، مقاومة منا للإرهاب وبناء لحصون هدمها الاستعمار الغاشم ودمرها، ولا نرتعب من أخبار فصل الرؤوس عن أجسادها ذبحا بسيوف الإرهاب، ولا نخاف من ملاقات الإرهاب ولا نخاف من لصوص الأطفال ولا نخاف من تجار البشر والأعضاء، فنقف صفوفا كالبنيان المرصوص في ساحة مدرستنا تعلمونا رايتنا علمَ الجزائر الحبيبة تُرفرف في السماء، أساتذتنا على أيماننا والمدير على شمائلنا والعمال حولنا، أيدينا على قلوبنا نشد أبيات القصيد لمفدي زكريا

نشيد الوطن قسما بلحن محمد فوزي ابن الوطن الصديق أم الدنيا مصر الحبيبة.

نحن أولئك الأطفال الذين كما نهاب المدير ونُجل المعلم الذي كاد أن يكون رسولا، نحن أولئك الأطفال الذين لا نخشى عصي المعلم ولا نشتهي لأوليائنا ضربه المبرح لنا، نحن أولئك الأطفال الذين لا تستهويهم الرسوم المتحركة الأجنبية بل كما نستمع لحكايات الثورة أمام الكانون من أفواه الأجداد والجدات، وتوارث المقصوصات الشعبية، نحن أولئك الأطفال الذين كما نسأل عن أجدادنا الذين لا نعرفهم:

- لم ليس لنا جد؟

فيجيبنا أهلونا:

- أجدادكم استشهدوا في الثورة التحريرية

ويسردون لنا تفاصيل مقتله من طرف المستعمر الفرنسي، فتمشي ورؤوسنا شامخة كقمم الجبال شرفا واعتزازا بأجدادنا الشهداء

نحن أولئك الأطفال نخرج من المدرسة كالفراس المبوث نجري على الأرض ونلعب في البسيطة، نحن أولئك الأطفال نتعثر ونسقط على الأرض مرارا وتكرارا ونهض لوحدا، ثم نتعثر مرة أخرى ونسقط فتحضننا أرضنا الطيبة وتزيننا بترابها الزكي كأنما الأرض تُعبر عن فرحتها بنا، وترجم سعادتها بالحرية والاستقلال اللذان تراهما فينا نحن أبناءها الصغار فتفرح بأطفال الجزائر أحفاد الشهداء كأنما هي تبسم لنا ونحن نمرح ونجري عليها،

وَنُطُّ مَرَحًا وَفَرَحًا عَلَيْهَا، فَتَتَعَمَدُ الْأَرْضُ إِسْقَاطَنَا عَلَيْهَا لِتَحْتَضِنَنَا بِأَحْضَانِهَا الدَّافِئَةِ، كَأَنَّهَا آبَائُنَا وَأَجْدَادُنَا الشُّهَدَاءَ الَّذِينَ مَاتُوا لِنَحْيَانَا الَّذِينَ دُفِنُوا فِي بَاطِنِهَا عَلَقَتْ أَرْوَاحَهُمْ فِيهَا وَأَرْوَاحُنَا هِيَ ظِلْمُهُمْ، يَرِيدُونَ أَنْ يَحْضُنُونَا وَيَشْمُونَنَا رِيحِنَا فَتَنْتَعِشُ وَتَمْتَلِئُ ثِيَابُنَا الْبَسِيطَةَ بِالتَّرَابِ حَتَّى وَجُوهُنَا وَرُؤُوسُنَا وَلَا ضَمِيرَ إِنَّ لَمْ نَمْسَحْ أَثْرَ التَّرَابِ عَلَيْنَا حَتَّى وَلَوْ رَقَدْنَا وَرَأَيْتُمَا التَّرَابَ تَفْجُوحَ مِنَا.

نَحْنُ أَوْلَادُكَ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ كَمَا نَفْرَحُ بِالْعِيدِ وَنَنْتَظِرُهُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ، فَهَذَا لَيْلَةُ الْعِيدِ لِنَوْقِضَهَا مِنْ نَوْمِهَا الْعَمِيقِ لِتَسْرِعَ فِي الْإِنْقِضَاءِ وَيَطْلُعَ الصَّبْحُ، وَنَأْتِي الشَّمْسُ مِنْ رَأْسِهَا نَدَاعِبُ خِصَلَاتِ أَشْعَتِهَا بِأَنَامِلِنَا وَأَصَابِعِنَا الصَّغِيرَةِ لِتَسْتَفِيقَ مِنَ النَّوْمِ لِتَشُقَ الْفَلَقَ وَيَطْلُعَ ضَوْءَ الصَّبْحِ بَاكِرًا، فَتَلْبَسُ الْجَدِيدَ وَلَا تَنْقُصُ فَرِحَتِنَا إِذْ مَا نَحْنُ لِبَسْنَا الْقَدِيمِ وَلَا نَلُومُ أَوْلِيَانَا إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمُ الْقُدْرَةُ عَلَى كِسْوَتِنَا بِلِبَاسٍ جَدِيدٍ، تَنْسَابِقُ وَتَنْسَارِعُ إِلَى الْمَسَاجِدِ وَتَتَرَاخَمُ بَيْنَ الْكِبَارِ لِتَأْدِيَةَ صَلَاةِ الْعِيدِ، ثُمَّ نَزُورُ الْأَقَارِبَ وَالْجِيرَانَ وَنَطُوفُ الْقَرِيَةَ بِرِمَتِهَا وَنَسْتَمْتِعُ بِطَعْمِ الْحَلْوِيَّاتِ وَنَحْتَفِلُ بِالمُفْرَقَاتِ وَنَتَقَاسَمُ الْكَبْشَ مَعَ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ.

تلك الطفلة التي بداخلي لم تكبر وتأبى أن تكبر، فتحت نافذة الطفولة ولم تغلقه أبداً، نذكر كل هذا وأكثر فتشبت بالطفولة وتأبى أن تكبر وتأبى أن تترك لقوانين الكبار، أقص عليها مشاكي وأشكي إليها بي وحزني عليّ أجد فيها العزاء في همي فتضحك من ثرتي لأنها لم تفقه شعوري ولم تفهم مرادي، ثم أعاد القص لها فتضحك من جديد من كلامي وكأنني أسرد لها نكتة مضحكة فتسقط أرضاً من شدة الضحك حتى ارتطم رأسها أرضاً،

فضحكتُ أنا الأخرى حتى سقطت أرضاً من شدة الضحك وارتطم رأسي أرضاً من شدة الضحك، اقتربت مني هذه الطفلة الصغيرة التي بداخلي التي لم تكبر وتأتي أن تكبر وضعت يديها الصغيرتين على خديّ، وتحسست وجهي وتأملت في عيوني ومسحت الكمد عنها وقالت لي:

- يعز على نفسي أن أرى الطفلة الصغيرة التي كبرت شابة قد كدّر الأشرار روحها المشعة بالحياة ويعز على نفسي أفول بريق عيونها الواسعتين، كُلي واشربي وقرّي عينا ولا تحزني إن لك ربا سينجيك، فما الحياة إلا ساعة من الزمن بقبضة الرب فلا جزع لأحداثها ما دامت كل الأمور بيد الله وما دامت يد الله معنا، فأنت منعمة كمرغنة وأنت ابنة الجزائر العظيمة وأنت كالجزائر المحمية بالله.

تم بحمد الله وفضله

الفهرس

5	تمهيد
7	الجزائر العاصمة، جوان 1982م
40	حفلة زفاف
49	مقهي عمي العربي
73	من الجزائر البيضاء إلى وهران الباهية
87	زيارة إلى الحبس
99	من ذاكرة إريك موتانا
112	بين عائلتين
121	العاصمة، أكتوبر 1988م
146	رحلة البلابل إلى بلاد القبائل
153	اللقاء بجاثوم اليوم
175	في الطريق إلى مدينة بجاية
180	الشهداء في الذاكرة الجماعية
184	الولوج إلى قرية البيروهرانيان
189	أحداث 23 جوان 1957م
195	سي المالح يحذر الأطفال من قاوساس
199	الطبيعة تتكلم بلسان ماسون رنجير
201	أحداث 10 ماي 1958م

- 220.....جاري البحث عن الخنادق
- 226.....نساء مزغنة مدللات كل محنة
- 229.....الخنونة في قبضة الثوار والقلادة الحمراء في جيد الحوكا
- 231.....مُعجزة النجاة من مقصلة فرنسا
- 234.....ذكرى شهيد
- 236.....موكة قامات الكبرى 29 فيفري 1960م
- 244.....زواج ماسون رنجير
- 250.....على جبل ثاقنطوشث
- 253.....موكة ثيقوفاف 26 جانفي 1956م
- 258.....العودة إلى باريس ثم إلى نومييا
- 264.....رسائل هدية
- 275.....الصندوق الأسود يُفتح
- 285.....أنت جزائري
- 290.....ماسون رنجير في الجزائر
- 295.....حب الوصول يُحوّل الأجاب إلى إرهاب
- 304.....رحلة البحث عن الذات
- 310.....شهد شاهد من أهلها
- 312.....ابن علي
- 319.....أطفال الجزائر يبنون جسرا بشريا من أنفسهم يقاومون الإرهاب والأعداء
- 325.....جمال بن سماعيل هو البطل
- 349.....الجنسية الجزائرية
- 360.....الفهرس